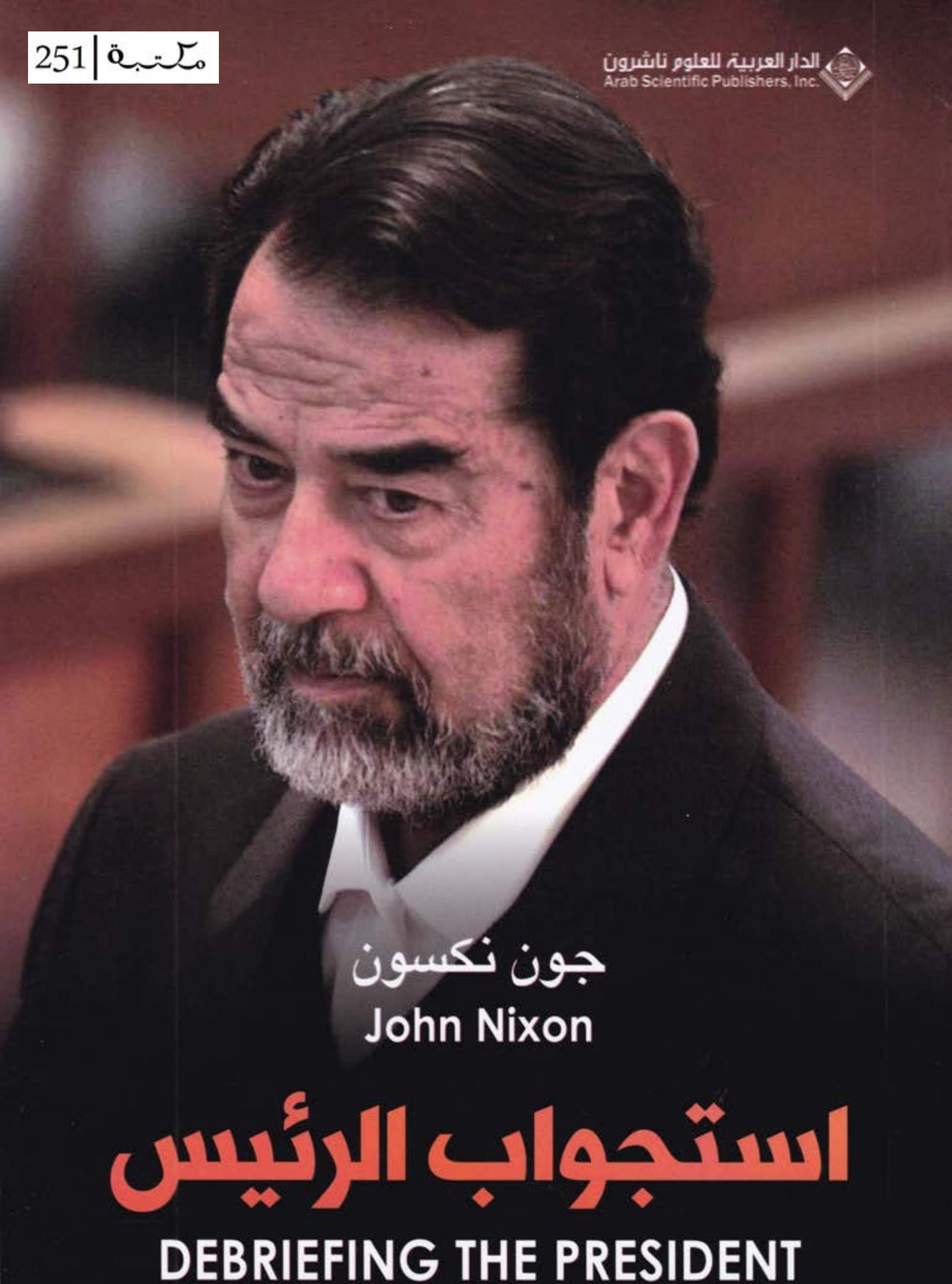


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جون نكسون
John Nixon

استجواب الرئيس
DEBRIEFING THE PRESIDENT

استجواب الرئيس

DEBRIEFING THE PRESIDENT

استجواب الرئيس

DEBRIEFING THE PRESIDENT

جون نكسون

John Nixon

ترجمة

إياد أحمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
DEBRIEFING THE PRESIDENT
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Blue Rider Press, an imprint of Penguin Random House LLC
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2017 م - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2250-5

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

المحتويات

مقدمة

عمل قيد الإنجاز

ولكن المشارِك لديه مساهمة حيوية واحدة على الأقل يسجلها التاريخ: سيكون على علم بأي واحد من الاعتبارات العديدة المحتملة التي أثـرت بالفعـل في القرارات التي ساهم في اتخاذها. سيكون على علم بالوثائق التي تعكس الحقيقة التي كان يرتئيها. سيكون في وسعه استذكار تلك الآراء التي نالـت قبـولا جديا، وتلك التي تم رفضها، وأنماط التأمل الكامنة وراء الاختيار... ولـو تم بشكل مجرد فربما ستساعد مذكرات المشارك مؤرخي المستقبل في الحكم على حقيقة مظهر الأمور، حتى - أو ربما خصوصا - لو أسفر مرور الزمن عـن توفّر المزيد من الأدلة حول جميع أبعاد الأحداث.

هنري كسنجر، 1979

يمثل التطرف الإسلامي في العراق تحت راية داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام) بشكل خاص، فاجعة ما كانت الولايـات المتحـدة ستواجهها لو كانت مستعدة للتعايش مع صدام حسين الآيل إلى الكهولة والعزلة. لست راغبا في التنويه بأن صدام كان بريئا من التهم التي وُجهت إليه عبر السنين. كان دكتاتورا عديم الرحمة، واتخذ أحيانا قرارات أقحمت منطقته في الفوضى وسفك الدماء. ولكن، ومع مراجعة أحداث الماضي، فإن تأمل صدام حسين وهو في السلطة يكاد يبدو مطمئنا بالمقارنـة مـع

الأحداث الشنيعة والجهود الضائعة التي بذلها شبان وشابات القوات المسلحة الأميركية، ناهيك عن مبلغ ثلاثة آلاف مليار دولار الذي أُنفق حتى الآن لبناء عراق جديد.

في كانون الأول 2003 وكانون الثاني 2004 كنت أول أميركي يجري استجوابا مطولا لصدام حسين بعد أن قبضت عليه القوات الأميركية. كنت محلل قيادات أقدم لدى وكالة الاستخبارات المركزية، وكنت قد أمضيت السنوات الخمس السابقة لذلك في دراسة العراق وإيران. لقد شعرت لدى المباشرة في جلسات الاستجواب، أنني أعرف صداما، ولكن الأسابيع التالية جعلتني أدرك أن الولايات المتحدة كانت قد أساءت فهمه وفهم دوره كعدو حازم للتيارات الراديكالية في العالم الإسلامي، بما فيها التطرف السني.

ومن المفارقات أن صداما، مع بذل المحافظين الجدد الأميركيين قصارى جهودهم في الربط بينه وبين أحداث الحادي عشر من أيلول وتنظيم القاعدة، اعتقد أن الهجمات على برجي مركز التجارة العالمية ومبنى البنتاغون ستجعل الولايات المتحدة تتقرب من نظامه، إذ كان صدام يعتقد أن العراق والولايات المتحدة كانا حليفين طبيعيين في الحرب ضد التطرف، وكما كرر مرارا خلال استجوابه، لم يتفهم عدم اتفاق الولايات المتحدة معه في ذلك التوجه. كان صدام سنيا وكان حزبه البعثي رمزا للقومية العربية والاشتراكية، وكان يعتبر التطرف السني مصدر تهديد لقاعدة سلطته. كان صدام يتظاهر بأنه لا يعرف الخوف أبدا، ولكنه فاجأني حين قال إنه كان يخشى نهوض التطرف في بلاده. كان يدرك مدى صعوبة استخدام أجهزة قمعه السنية في محاربة عدو يتخذ من

الأصولية السنية قوة دافعة له.

من بين ملاحظات الباحث الإسرائيلي آماتزيا بارام أن صداما أدرك دائما خطر النخب المنافسة مهما كانت ميولها الدينية أو العلمانية. واعتقد أن لا مكان لغير قائد واحد، وقال: "عليك أن تفهم أن العراقيين يتآمرون عليك على الدوام، خصوصا الشيعة"

لو نظرت إلى تاريخ العراق منذ سقوط النظام الملكي في 1958 لكان عليك أن تقر بأن صداما كان محقا في ذلك، فالنشاط السياسي مبتلى بفئات متناحرة كثيرا ما يهاجم بعضها بعضا. في كثير من الأحيان وصف صدام خطأ بأنه ملحد أو بأنه يستخدم الدين في الترويج لأهدافه السياسية. ولكنه لم يكن في الواقع معاديا للدين بحد ذاته، بل كان يطالب بالسيطرة على أي نشاط ديني في العراق. كان صدام مؤمنا وفق شروطه الخاصة، وقام في العام 1991 وبعد انتهاء حرب الخليج بإدخال الدين والرموز الدينية بدرجات متزايدة في الحياة العامة في العراق.

غير أن تسامح صدام الديني كان له حدوده الواضحة، فكما قال لي أثناء استجوابه: "قلت لهم لا مانع في ممارستهم للدين ولكن عليهم ألا يدخلوا العمامة في السياسة، فلن أسمح بذلك" كان صدام يتحدث عن الشيعة، ولكن ذلك المنع كان يشمل الأصوليين السنة أيضا. في هذه الحالة كان يشير بالتحديد إلى زعماء الدين الشيعة، مثل محمد باقر الصدر ومحمد صادق الصدر اللذين اختارا معارضة صدام وكانا يهددان نظامه بثورة إسلامية على غرار تلك التي أطاحت الشاه في إيران في العام 1979، فأمر بقتلهما.

من بين التطورات ذات العواقب المؤثرة خلال السنوات العشرين المنصرمة كان انتشار الفكر السلفي في دول الخليج العربي. ذلك الفكر الذي يسعى إلى إعادة المؤمنين إلى نمط أكثر تقشفا من الإسلام، على غرار ما كان سائدا في زمن الرسول محمد. كان تفهم صدام للتهديد السلفي ووجهات نظره تجاه التهديد الإرهابي المستوحى من إيران وروابط إيران بمتطرفي الشيعة العراقيين تتسم بالواقعية وبعد النظر، وكان يعتبر العراق خط الدفاع العربي الأمامي ضد الفرس الإيرانيين، وحصنا سنيا في وجه الأغلبية الشيعية الساحقة في إيران.

غير أن صداما، مع حلول تسعينيات القرن الماضي، بات يرى انتشار السلفية في العراق وبات يسمع عن تكوين خلايا من السلفيين في بلاده. وقال الدكتاتور العراقي صدام أثناء استجوابه متنبئا: سوف ينتشر الفكر السلفي في الأمة العربية بسرعة تفوق كل التوقعات، ويعود ذلك إلى أن الناس سيعتبرون السلفية فكرا ونضالا... سيصبح العراق ساحة قتال لكل من يريد حمل السلاح ضد أميركا. أما الآن فهناك ساحة قتال حقيقية تتيح المجابهة المباشرة.

الإطاحة بصدام خلّفت فراغا في السلطة حوّل الخلافات الدينية في العراق إلى حمام دم طائفي. ظل الشيعة لفترة من الزمن يغضون النظر عن فظائع الزرقاوي بقيادة السنة، آملين بنيل السلطة من خلال صناديق الاقتراع. ولكن، مع تزايد أعداد القتلى، تدخلت الميليشيات الشيعية في القتال.

في كانون الأول 2010 اندلعت شرارة الانتفاضات الديمقراطية، المعروفة باسم الربيع العربي، في تونس قبل أن تنتشر في 2011 إلى مصر

وليبيا واليمن والبحرين. ثم جاء الشتاء العربي بانقلاب عسكري في مصر وحروب أهلية في ليبيا واليمن وسورية.

اندلعت الحرب الأهلية في سورية في آذار 2011 حين أمر الرئيس بشار الأسد بقمع عسكري للاحتجاجات ضد حكمه. في البداية كان المتمردون السنة المعتدلون هم الذين يعارضون الحكومة، ثم انضمت إليهم حركة الإخوان المسلمين السنية الأكثر تطرفا دون أن تقترب مما كنا سنشاهده من داعش. (السنة يشكلون ثلاثة أرباع عدد السكان في سورية، بينما لا تمثل طائفة العلويين التي ينتمي إليها الأسد أكثر من 10 في المائة من السوريين). مع نهاية عام 2013 كان النزاع قد اجتذب وحدات من تنظيم القاعدة ومقاتلين من داعش الذين انشقوا نتيجة خلافات حول مسائل تكتيكية وقيادية. بعد ذلك بخمسة أشهر أعلن تنظيم داعش عن قيام دولة الخلافة، مستخدما تسجيلات فيديو لعمليات ضرب الأعناق والإعدامات الجماعية - أي إباحية العنف - لاجتذاب آلاف المتطوعين من الشرق الأوسط والغرب. أما الباقي فهو بمثابة تاريخ يثير الاشمئزاز: مئات الآلاف من القتلى في سورية، مع تشريد نصف عدد سكانها البالغ عددهم 17 مليون نسمة، وضم داعش لمساحات واسعة من أراضي العراق وسورية إلى دولة الخلافة، واتساع حرب متعددة الأطراف باتت تشارك فيها الولايات المتحدة وتركيا وحزب الله - الميليشيا الشيعية التي تدعمها إيران - والأهم منها روسيا.

هل كانت هذه السلسلة من الأحداث ستحصل لو بقي صدام أو خليفة له في السلطة؟ إن الجواب سيبقى في عالم الغيب والتكهن. من

المؤكد أنه لو لم يُحل الجيش العراقي لما كان العديد من كبار ضباطه سينضمون إلى داعش ليزودوا هؤلاء الجهاديين بخبراتهم العسكرية المميزة. ولاستخدام هذا الجيش القوة لاحتواء التوترات الطائفية في العراق. لذا يمكن القول إن العالم العربي، لو لم يتم الغزو الأميركي، كان سيبقى هادئا محبطا تحت قبضة أنظمة دكتاتورية في العراق وسورية ومصر وليبيا.

دعم صدام لسنوات عديدة الإخوان المسلمين في سورية. هل كان يفعل ذلك لكونهم يتبنون مبادئ مشتركة معه؟ الحقيقة، لقد قام صدام بذلك لكون الإخوان يعارضون الأسد، منافسه على قيادة الحركة البعثية. لو كان عملاء من الإخوان قد سعوا إلى قيادة تمرد ضد صدام لسارع إلى القضاء عليهم.

لم يكن صدام مفكرا ولم يكن من بين الذين ينظرون إلى العالم من زاوية واسعة. كان محتارا بشكل خاص في شأن الولايات المتحدة التي كان يعتبرها أهم مصدر إزعاج له، ومن كان سيلومه؟ كانت الحكومة الأميركية متذبذبة بشكل ملفت في موقفها تجاه صدام، فلقد ساندته في الحرب العراقية - الإيرانية، ووقفت ضده في حرب الخليج وحرب العراق. ربما كان ذلك التباين في المواقف عاملا مهما في دفع صدام إلى اتخاذ سلسلة من الخطوات الخاطئة التي وضعته ضمن قائمة واشنطون للأشخاص الواجب الإحاطة بهم مع حلول موعد تولي إدارة جورج بوش الابن السلطة في 2001. لا أقول ذلك لإعفاء صدام من اللوم، فلقد ارتكب عددا كبيرا من الأخطاء الجسيمة.

أدرك اليونانيون القدامى أن الآلهة لو أرادت معاقبتك لقدمت لك أكثر ما تتمناه. بين عامي 1990 و2003 عملت واشنطن على تقويض

وتدمير نظام صدام دون أن تفهم التداعيات المحتملة. كنا نفتقر إلى فهم حقيقي للطريقة التي ينظر بها صدام إلى العالم أو كيف كان يحول دون تأجج التيارات السياسية الخفية في العراق. بل كان النقص في فهمنا يعكس خللا خطيرا في سياسة الولايات المتحدة الخارجية ظلت تلازمنا منذ تأسيس بلادنا. اعتادت الولايات المتحدة على تبني رد الفعل الأعمى على التهديدات، سواء كانت من الشيوعية أو من زعيم عربي مستبد، بدون تقييم واقعي لمنافع التواصل والسياسة الواقعية. يبدو أن قادتنا ليسوا قادرين على وضع أنفسهم في مكان القادة الأجانب، وبالأخص الاستبداديين منهم.

في 2009 أي في السنة الأولى من عهد إدارة الرئيس أوباما باشرت بقراءة كتاب رائع في واشنطن بعنوان (دروس في الكوارث)، وهو سرد مشوق لوجهات نظر ماكجورج بندي المتبلورة حول التدخل الأميركي في فيتنام. أثر بي الكتاب بشكل خاص لكونه ظهر بالتزامن مع انهماك الرئيس أوباما في اتخاذ قرار بالموافقة على نشر المزيد من القوات في أفغانستان. كان لديّ دافع آخر لقراءته، إذ كان بندي أحد أساتذتي في دراساتي العليا وكنت أحترمه جدا فلم يكن رجلا متمسكا برأيه ويخشى تغييره. فبعد أن كان من الصقور المدافعين عن الإجراءات العسكرية الأميركية حين كان مستشارا للأمن القومي للرئيسين كندي وجونسون، تطور عبر أربعين عاما ليصبح ناقدا متشددا للفكر الضحل الذي جرنا إلى فيتنام. ولقد ألهمني صدقه الشامل. لدى مراجعتي لسنواتي الثلاث عشرة التي أمضيتها في وكالة الاستخبارات المركزية كمحلل أقدم في مقر الوكالة بمدينة لانغلي في ولاية فيرجينيا، ولفتراتي الثماني على الأرض في

العراق، انتبهت إلى أن تطورا مماثلا بات يؤثر على آرائي. لقد أدهشني مقدار المراجعة التي أجريتها لأفكاري، ورأيت بوضوح بعض الأخطاء التي ارتكبتها الولايات المتحدة في مضيها في حرب اختيارية في العراق مع كوننا لم نعرف غير القليل جدا عن أوضاعه السياسية والطائفية.

كان صدام قد بلغ قمة السلطة في العراق بإرادته وحنكته السياسية وبمقادير لم تكن قليلة من الدهاء والخديعة. غير أنه كان رجلا جاهلا في بعض الجوانب، إذ كان شابا فقيرا ولم يحصل على تعليم رسمي. قتل مئات الآلاف من شعبه، وشن حربا على إيران راح ضحيتها سبعمئة ألف شخص تقريبا، واستخدم أسلحة كيماوية بلا تردد أو تأنيب ضمير، وكان يستحق لقب (جزار بغداد). ولكنه كان أكثر تعقيدا مما كان يبدو عليه. لا بد لنا أن نعرف من كان هذا الرجل وما الذي كان يحفزه. فمن المؤكد أننا سنرى عددا من أمثاله في ذلك الجزء من العالم.

نسعى إلى تركيب التاريخ قطعة بقطعة، ولكننا لن نتمكن أبدا من التأكيد بأننا قد كوّنا سردا شاملا ومتجانسا، فاستذكار الأحداث وإعادة تكوينها عمل دقيق ومضنٍ. وتقدم بعض الذين لعبوا دورا في إطاحة صدام لعرض رواياتهم. ولكن السجل التاريخي لم يزل بعيدا عن الكمال، فأكثر ما ينقصه هو التعرف إليه شخصيا، وما كان يقوله خلال الأشهر التالية للقبض عليه في 13 كانون الأول 2003. لكوني كنت معه خلال تلك الفترة وأمضيت سنوات في تحليل قيادته، سوف أسعى إلى ملء الفراغات بقدر ما أستطيع. أتمنى أن أساعد مؤرخي المستقبل في إزالة الهالة الأسطورية المحيطة بهذا الرجل.

كثيرا ما يسألني الناس: كيف وجدت صداما؟... أو: هل كان مجنونا؟... خلال الفترة التي تحدثت فيها مع صدام حسين وجدته بكامل قواه العقلية. كان العالم مليئا بأعداد من السفاحين المختلين ولكن الغريب هو أننا اخترنا ملاحقة هذا الرجل، خصوصا في ضوء التداعيات. أما أنا فأعتقد أن الحكومة الأميركية لم تأخذ في اعتبارها أبدا ما سيؤول إليه الشرق الأوسط بغياب صدام. **صحيح أننا كنا قد سمعنا كل الروايات المروعة – مقتل مئة ألف من الشيعة في الجنوب وعدد مماثل تقريبا من الأكراد في الشمال بعد حرب الخليج، واستخدام الأسلحة الكيماوية ضد العراقيين الذين كان يعتبرهم مصدر تهديد سياسي له، ومجازر الحرب العراقية الإيرانية – ولكننا لم ندمج أبدا تلك الأفعال الدموية بدوره بالغ الأهمية في المنطقة، ولم نفهم ذلك إلا بعد سقوط نظامه ورحيله.**

لدى عودتي من العراق في العام 2004 بعد لقاءاتي مع صدام، كان العديد من زملائي المحللين يتطلعون إلى معرفة ما كنا أنا وطاقمي قد علمناه منه. كان بعض المشككين يعتبرون الموضوع هدرا للوقت. ولكن الحقيقة هي أننا تعلمنا الكثير عن تفاصيل حكم صدام وعن الأسباب التي جعلته يفعل بعض ما فعل. كما علمنا الكثير عن الملابسات التي استخدمت لتبرير غزو العراق وإسقاط نظامه. ولكن السؤال الأهم – هل كان علينا أن نزيح صداما عن السلطة؟ – لم يطرح أبدا وظل بالتالي بلا إجابة. صانعو السياسة في البيت الأبيض والقيادات في الطابق السابع من مبنى وكالة الاستخبارات المركزية ما كانوا راغبين بالاستماع إلى أن العديد من الأسباب المبررة لاستهداف صدام كانت تستند إلى حجج

واهية إن لم تكن زائفة. لقد بادرت مرارا إلى تدوين صيغة من هذه القصة ليتم تداولها داخل الوكالة، ولكني جوبهت بما لا يوصف بغير الاهتمام الزائف وبوجهة نظر مفادها: هذا ليس ما نقوم به هنا.

كان رتشارد هاس مديرا للتخطيط السياسي في وزارة الخارجية إبان غزو العراق ثم تولى رئاسة مجلس العلاقات الخارجية. وقال في حديث مع الصحافي جورج باكر إنه لم يعرف أبدا ما جعل الولايات المتحدة تخوض الحرب التي وصفها بأنها مجرد شيء قد حدث. وفي مذكراته عن الحرب بعنوان *حرب الضرورة، الحرب المختارة*، يصف هاس المراحل الثلاث من النزاع: أولا، النزاع السياسي الذي يتم عادة قبل القتال، وثانيا، القتال بحد ذاته، وثالثا، الصراع حول التفسيرات المتباينة لما حققته الحرب وما كانت تعني في مجملها. يمثل كتابي هذا مساهمتي في الجزء الثالث من تحليل هاس. معظم ما يرد في صفحاته هذه مستند إلى ما تعلمته خلال استجوابي لصدام.

وأخيرا، كان هناك صدام نفسه. كان من الواضح أنه يشكل تهديدا للمصالح الأميركية في منطقة من العالم تعتبرها حكومتنا منطقة حيوية. **فلقد تسلم مجتمعا فخورا بنفسه وكثير التقدم وسحقه في التراب بحكمه المشوه.** ثم في المراحل اللاحقة من حكمه أصبح مهووسا بموقعه في التاريخ وكاد أن يبعد نفسه عن الشؤون الخارجية. بدا وكأنه يتطلع إلى التعويض عن بداياته المتواضعة. وكان يشبه في العديد من النواحي أحد المتقاعدين الذي يعشق مشاهدة قناة التاريخ التلفزيونية. **كان التاريخ يسحره ولكنه كان يفتقر إلى العمق الفكري ليتعلم من دروسه.** أما قرارات السياسة الخارجية فلقد انتقلت بشكل متزايد إلى أيدي المتشددين من أمثال نائب

الرئيس العراقي طه ياسين رمضان، ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت إبراهيم الدوري، ووزير الخارجية السابق طارق عزيـــز. إن عدوانيتـــهم ومحدودية الرؤية العميقة لديهم جعلت رمضان وحلقته يفوّتـــان فرصـــا عديدة لاختراق عزلة العراق الدولية. أما صدام فلقد زاد مـــن اهتمامـــه بالأمن الداخلي وبمتابعة ما يلهيه. خلال فترة أسره كان صدام يشـــير إلى نفسه بأنه الرئيس العراقي، كما كان يقول إنه مؤلف، **ما** جعل التوفيـــق صعبا بين صدام الحديث **وشخصيته السابقة كجزار بغداد.**

1

يا للهول، إنه صدام!

في 13 كانون الأول 2003 كنت قد أمضيت ثمانية أسابيع في العراق. كان الجو رائعا خلال النهار - كانت درجات الحرارة تراوح بين 21 و32 مئوية - وباردا نسبيا خلال الليل، وكثيرا ما كانت تهطل الأمطار. لم يكن غريبا أن نفيق في الصباح لنجد بضع أقدام من الماء الراكد أمام مقطوراتنا في المنطقة الخضراء. قام حراسنا العسكريون بوضع ألواح خشبية كجسور تؤدي إلى اليابسة لتكوّن بذلك ممشى إلى الفيلا - ذلك المبنى في مجمع وكالة الاستخبارات الذي كنا نقوم فيه بأعمالنا السرية وحيث كانت حاسوباتنا.

كنت محللا في مقر الوكالة ببغداد. وكان عملي يتمثل في مساعدة ضباط الوكالة ووحدات الجيش الخاصة في استهداف الأفراد بغية القبض عليهم لنتمكن من استجوابهم بهدف الحصول على معلومات استخباراتية مفيدة. في عملية البحث عن صدام كانت أهم المعلومات تردنا من المحتجزين الذين ربما كانوا قادرين على الوصول إليه أو إلى أحد مساعديه. كان العمل مضنيا ودقيقا ويتطلب التواصل المستمر مع الجهات العسكرية ومع ضباطنا الميدانيين. كما كان علينا أن نرد على الأسئلة الواردة من

واشنطن - ومن القيادات المدنية والعسكرية في بغداد - حول تقدمنا في البحث عن صدام حسين.

كانت الولايات المتحدة قد مُنعت من دخول العراق منذ حرب الخليج في 1991. وفي 2003 كنت أعتقد أن الولايات المتحدة قامت بغزو العراق بدوافع صائبة: لإيجاد وتدمير أسلحة الدمار الشامل ولتحرير البلاد من **دكتاتور وحشي**. كنت أصدق التهديد المتمثل بأسلحة الدمار الشامل. كان خبراء حكوميون وأكاديميون، ممن لديهم خبرات تفوق خبرتي بمراحل، مقتنعين بأن صداما إما كان يمتلك أسلحة دمار شامل وإما كان يسعى للحصول عليها، وهو استنتاج كانت تؤيده كل نبذة من الاستخبارات التي اطلعت عليها.

كانت الفيلا أحد القصور السابقة العائدة لنجل صدام، عدي، وكانت تضم حوض سباحة لمساعدته في إعادة تأهيل نفسه من الإصابات التي أصيب بها في محاولة لاغتياله في 1996. وكان موقع الفيلا قريبا من قصر صدام الجمهوري الذي كان سطحه يحمل أربعة تماثيل نصفية لصدام وتغطي رأسه خوذة. كانت من أول الأشياء وأكثرها إثارة التي شاهدتها لدى وصولي إلى العراق. ولكن التماثيل قد تم إنزالها الآن ووضعت على جوانبها على الحشيش الأخضر وبقربها لوحات تحذيرية **تحمل عبارة (ممنوع التبوّل)**.

بدأ نهاري كالمعتاد بحضور اجتماع التاسعة والنصف للمجموعة المسماة (خلية الصَهر) والتي كانت تضم محللين عسكريين واستخباراتيين يتبادلون المعلومات ويراجعون الإشارات الواردة خلال الليل. وكان هؤلاء - بين عشرة وخمسة عشرة محللا - يعيرون اهتماما خاصا للتقارير

المتعلقة باحتمال مشاهدة صدام، كما كانوا يتباحثون حول إيجاد مسالك جديدة للبحث عنه. وكنا نطرح اقتراحات حول من سيترتب علينا احتجازه ضمن جهودنا لرصد أثر صدام.

كنا في معظم الأيام نجتمع في المبنى التابع للفيلا حيث كان محللو القيادة الأميركية الوسطى المشرفة على ساحة العمليات العسكرية في الشرق الأوسط. في صباح ذلك اليوم أخبرنا بعض أفراد القوات الخاصة بأن لديهم معلومات دالة جيدة عن مكان وجود بعض الحراس الشخصيين الذين كنا قد اعتبرناهم قريبين من صدام. ومع كونها معلومات مشجعة، إلا أنها لم تختلف كثيرا عن آلاف النبذ المماثلة التي كنا قد تتبعناها خلال الأسابيع الماضية.

بعد انتهاء اجتماع خلية الصَهر قمت بقراءة البريد الإلكتروني وتقارير الاستخبارات وبالإجابة على أسئلة واردة من مقر لانغلي حول البحث عن صدام. وعند الظهيرة توجهت مع زميلي المحلل راندي إلى مطار بغداد الدولي لإرسال بعض الأشياء بالبريد إلى البيت. كان المطار خارج نطاق المنطقة الخضراء بمسافة قصيرة وكان من المواقع القليلة التي يمكن للمحللين الذهاب إليها بلا حماية أمنية. كان يضم دائرة بريد وسوقا صغيرا يمكنك فيه شراء معجون الأسنان وشفرات الحلاقة وغيرها من المستلزمات الشخصية.

وكانت هناك إضافة جذابة متمثلة في مطعم برغر كنغ، فكان المكان الوحيد في بغداد الذي يتيح لك تذوق طعم الديار. في أعقاب نجاح الغزو بسرعة البرق في آذار قامت شركة برغر كنغ بفتح فرع في المطار لتلبية طلبات شباب وشابات القوات المسلحة ممن كانوا سيدفعون أي شيء

مقابل الحصول على شطيرة من ذلك النوع، فخلال فترة بالغة القصر أصبح فرع بغداد أكثر فروع الشركة ازدحاما في العالم.

وشأنهم شأن غيرهم من أفراد القوات المسلحة، كان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية يقومون برحلات خاصة إلى المطار، متحدّين بذلك المفخخات محلية الصنع من أجل الحصول على شطيرة من النوع الكبير والبطاطس المقلية. في 12 كانون الأول، بعد أن تحملنا الوجبات المعدة لنا في المجمع لعدد من الأسابيع، كنت بحاجة ماسة لتذوق شطيرة همبرغر، ولكننا وجدنا لدى وصولنا إلى المطار أن نقصا في التجهيزات دفع المطعم إلى إغلاق أبوابه. كنا قد جازفنا بحياتنا وبسلامتنا من أجل شطيرة لنحرم منها في نهاية المطاف.

في طريق العودة كان قد أغلق شارع المطار نتيجة العثور على عبوة ناسفة على قارعته. تركنا أنا وراندي الطريق الرئيسي وتوغلنا في شوارع تمر بمناطق في بغداد لم نرها من قبل. لم يكن معنا جهاز اتصال ولم تكن سيارتنا مصفحة، وسرعان ما وجدنا نفسينا تائهين في حي شيعي كانت صلاة الجمعة فيه قد انتهت لتوها وكان الشارع مزدحما جدا. كانت سيارتنا الجديدة نسبيا تُميز بسهولة وهي محاطة بسيارات عامة الناس، كما كانت دروعنا الواقية من الرصاص تعرفنا بأننا أجنبيان في بحر من العرب. لم يكن معنا هاتف محمول لطلب النجدة عند الضرورة. ولكننا عثرنا أثناء تجوالنا على بعض المعالم التي تعرفت عليها بكونها قريبة من المنطقة الخضراء.

لدى نزولنا من السيارة صادفت صديقي مايك، وهو محلل من مجلس الأمن القومي معارة خدماته إلى قيادة المنطقة الوسطى في خلية الصهر

وكان في وسعه الاستعانة بمصادر عسكرية لم تكن في متناول يدي. كشف لي مايك أن أفرادا من القوات الخاصة كانت قد قبضت على محمد إبراهيم عمر المسلط مساء أمس. كان محمد إبراهيم رئيس حراس صدام الشخصيين خلال فترة فراره، إلا أنه سرعان ما انهار وبسهولة بعد أن حاول التأكيد بأنه لا يعرف مكان وجود صدام. غير أن إغراء الجائزة - 25 مليون دولار - قد تفوق على الولاء الشخصي، فقاد أفراد القوات الخاصة إلى مخبأ الدكتاتور السابق. (تبين لاحقا أن صداما كان قد استبدل العديد من حراسه الشخصيين قبيل سقوط النظام. كانت تلك خطوة حكيمة، إذ كانت أجهزة الاستخبارات حول العالم تركز في دراسة تدابيره الأمنية بهدف إيجاد وسائل لاختراقها. ولكن صداما كان حريصا في شأن أمنه وأناط المسؤولية عنه بمعاونين يثق بهم وكان معظمهم من أفراد عائلته، فكان يعول على هؤلاء لضمان سلامته إلى حين تمكنه من إيجاد سبيل لاستعادة السلطة).

قاد محمد إبراهيم القوات الخاصة إلى المزرعة ذاتها التي كان صدام قد اختبأ فيها في 1959 في أعقاب اشتراكه في المحاولة الفاشلة لاغتيال رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم الذي قاد الانقلاب الذي أسفر عن مقتل الملك فيصل الثاني والقضاء على النظام الملكي الهاشمي الذي حكم العراق مدة سبعة وثلاثين عاما. كنا على علم بمشاركة صدام في المؤامرة ضد عبد الكريم قاسم قبل أربعة عقود من الزمن ولكننا لم نكن نعرف أنه فر للاختباء في مزرعة لم نزرها طيلة الأشهر التسعة التي أمضاها مختبئا.

سعيا منا للاطلاع على المزيد توجهنا أنا ومايك إلى المبنى الصغير القريب الذي يستخدمه زملاؤنا من القوات الخاصة للاسترخاء، ولكنهم

لم يوحوا بشيء. وبات واضحا أن جهود البحث عن صدام والقبض عليه كانت تنصب الآن في تحديد الجهة التي ستنال التقدير عليها. كان ذلك الوضع يواجهني كلما ذهبت إلى العراق. كانت القوات العسكرية تستعين بوكالة الاستخبارات لكونها صاحبة خبرة، ثم تقطع اتصالها بالوكالة لدى اقترابها من هدفها.

كان من ضرب المفارقات أن تلتزم القوات الصمت حول محمد إبراهيم عمر المسلط، إذ كان محللو الوكالة هم أول من دعوا إلى التركيز على الحراس الشخصيين في البحث عن صدام، فخلال الأشهر الأولى التالية لسقوط بغداد، كان زملاؤنا في الاستخبارات العسكرية يركزون على استجواب كبار رموز النظام البارزين في حكومة صدام. لم تقم القوات المسلحة بمطاردة حراسه الشخصيين إلا بعد اتضاح عدم معرفة كبار المسؤولين أي شيء عن مكان وجوده. كان ضباط القوات الخاصة رجالا من الطراز الأول، وربما لم يتم القبض على صدام بمعزل عن عملهم البطولي. كانوا يحضرون اجتماعات خلية الصهر صباح كل يوم وكانوا تواقين إلى سماع آرائنا وكثيرا ما كانوا يطلعوننا على مداهمات الليلة السابقة. ولكنهم باتوا الآن يلتزمون الصمت فيما يتعلق بالمداهمات التالية ومن كان المستهدف بها.

بعد أن تركت مايك ورجال القوات الخاصة توجهت ماشيا إلى مقر الوكالة حيث شعرت بأجواء من الإثارة والترقب لم أشعر بمثلها منذ وصولي إلى بغداد. في حوالي الساعة السابعة مساء بلغنا أن القوات الخاصة كانت تستعد لشن عملية مداهمة كانوا يعتقدون بأنها ستنجح في القبض على أهم مستهدف في العراق. قبل عيد الشكر كنت لا أعتقد

بأننا سنقبض على صدام، فالعثور على رجل واحد في بلد يبلغ عدد سكانه ستة وعشرين مليون نسمة يعتبر أمرا صعبا بحد ذاته، ناهيك عن كون العراق بلدا يعاني من الانهيار. أما تقنيات الاتصالات - مثل شبكة فعالة للاتصال الهاتفي - فكادت أن تكون معدومة. وكانت الهواتف المحمولة نادرة الوجود كما كان حال الأبراج الخاصة بهذا النمط من الاتصالات. كانت هواتف الاتصال بواسطة الأقمار الاصطناعية أكثر توفرا ولكنها لم تكن في متناول جميع أقراننا في الجانب الأميركي، ليصعب علينا بالتالي التواصل معهم أو مع أقراننا المدنيين في سلطة التحالف المؤقتة.

كنت في تلك الأمسية جالسا أمام حاسوبي في الطابق الثاني من الفيلا حين أبلغني آندرو، رئيس كادر محللي وكالة الاستخبارات، بأنني مطلوب في مكتب مدير فرع الوكالة. لم يكن مدير الفرع موجودا في العراق فاجتمعت مع نائبه غوردون والمدير التنفيذي بازي كرونغارد. كما كان آندرو وستيف - رئيس خلية استغلال المحتجزين - وعدد آخر من ضباط الوكالة حاضرين في المكتب الذي كان يضم طاولة كبيرة وعددا من الأرائك الجلدية.

فاجأني غوردون بالسؤال: إن كان عليك أن تتعرف إلى صدام فكيف ستقوم بذلك؟ ما الذي كنت ستبحث عنه؟

فقلت له إني سأبحث أولا عن وشوم تظهر انتماءه إلى قبيلة البونصر. كان واحد منها على ظهر يده اليمنى، بين السبابة والإبهام، والآخر على أسفل رسغه الأيمن. كان الوشم سلسلة من النقاط، بعضها في خط مستقيم وبعضها على شكل مثلث بالإضافة إلى ما يشبه هلالا.

قد يبدو ذلك أسلوبا باليا في نظر الغـربيين، إلا أن الوشـم كـان ضروريا في البلدان العربية مثل العراق، حيث كانت السـجلات العامـة تفتقر إلى الكمال والدقة فكان الوشم يتيح للقبائل تتبّع أبنائها، كما كانت وسيلة مضمونة للتعرف إلى الأفراد وفي فض النزاعات والشكاوى المحلية.

كما ذكرت له أن صداما كانت ساقه تحمل أثر جرح أصيب به أثناء محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم في 1959، كما كانت شـفته السـفلى متدلية قليلا، ربما بفعل عمر قضاه في تدخين السيجار. كنا على الـدوام نبحث عن تسجيلات فيديو أو صور له بحثا عمـا يشـير إلى وضـعه الصحي. في 1999 شاهدت مقطع فيديو كان يبين بوضوح أنه كان قـد فقد الكثير من وزنه، وكان ذلك قبيل زيارة الرئيس الفنزويلـي هوغـو شافيز إلى بغداد. انهمكت مع عدد من أطباء الوكالة في التدقيق في الصور وأشرطة الفيديو وتوصلنا إلى أن صداما كان ببساطة يمر بمرحلة من العناية بصحته. كنا على صواب في ذلك، ولكن العناية لم تشمل تخليـه عـن تدخين السيجار.

قاطعني كرونغارد قائلا: علينا أن نتأكد من أن هذا هو صدام بالفعل وليس أحد بدائله الذين يشبهونه.

ما كنا سنخبر واشنطن والعالم بأننا قد قبضنا على صـدام إلا بعـد تيقننا من أن الرجل لم يكن بديلا مشابها.

كانت فكرة البديل الشبيه تمثل أسطورة مزمنة من بـين الأسـاطير المحيطة بصدام، وكانت مصدر خلافات ومزاح ضمن حلقـة متـابعي صدام، إذ كان يُفترض أن صداما كان لديه رجـال يشـبهونه ويمكـن استخدامهم كبدائل عنه في التجمعـات العامـة، ولإربـاك وكـالات

الاستخبارات الغربية التي ربما كانت تفكر في اغتياله. يعود مصدر هذه الشائعة إلى كون العديد من الرجال الذين كانوا يحرسون صداما لديهم ملامح تشبه ملامح الدكتاتور العراقي. هذا صحيح، وربما يعود إلى كون الكثيرين من حراسه ينتمون إلى عائلته الأوسع ويشتركون فيما بينهم في بعض الملامح الجسدية. لا أعرف عدد المذكرات التي صدرت إبان عهدي الرئيسين كلنتون وبوش تهدف إلى تبديد هذه الفكرة، ولكنها ظهرت بالرغم من ذلك في مذكرات وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ومديري السابق جورج تنت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية بين عامي 1996 و2004.

(بعد بضعة أسابيع وأثناء استجوابنا الرسمي لصدام، سألناه إن كان يوما قد استخدم بديلا عنه، فضحك وقال لنا: كيف تعرفون أنكم لا تتحدثون مع أحدهم الآن؟ قد أكون أنا البديل بينما يكون صدام الحقيقي مختبئا. ثم ضحك ثانية بصوت عال وقال: كلا. لا يوجد غير صدام حسين واحد).

طلب مني غوردون أن أجهز نفسي لأساهم عند الحاجة في التعرف إلى هوية الرجل. سارعت إلى حاسوبي في الطابق الثاني حيث لحق بي ستيف وطلب مني أن أعد قائمة بأسئلة لا يعرف إجاباتها غير صدام وحده. ثم قال ما كان سيغير مسار حياتي العملية: نريد منك أن تذهب لتتأكد من أن الرجل الذي قبضنا عليه هو بالفعل صدام حسين.

كنت قد أمضيت سبعا وعشرين ساعة بلا نوم وكنت منهكا تماما، ولكن ما قاله جعل الأدرنالين يتدفق في جسدي بشكل لم يحدث لي من قبل، فلقد أصبحت فجأة الشخص الذي سيصادق على إعلان سينتشر

بسرعة البرق إلى جميع أرجاء العالم. بقيت مثنيا أمام حاسوبي حوالى أربعين دقيقة لأعد أسئلة سأطرحها على الدكتاتور الذي دفع الولايات المتحدة إلى خوض الحرب.

أبلغوني بأن القوات العسكرية كانت تقوم بنقل صدام المفترض جوا في تلك الليلة إلى المطار وبأن التحقق من هويته سيتم هناك. وقال ضابط كبير في الوكالة إننا سنلتقي في الحانة قبل التوجه إلى المطار. كانت الحانة الخاصة بأفراد وكالة الاستخبارات من بين الأولويات التي أقيمت في المجمع. كانت تشغل إحدى المقطورات وكانت مزودة بعدة تلفزيونات ومصابيح أعياد الميلاد والكثير من البيرة المبردة. كنت أقول للناس إننا لو أدرنا العراق كما كنا ندير الحانة لأصبح العراق سويسرا الشرق الأوسط. كان كبار ضباط الوكالة يتبادلون التهاني على أسر صدام. انتظرت لفترة بدت لي أزلية قبل أن يبلغوني بأن القافلة كانت جاهزة أمام باب مقر الوكالة فسارعت إلى هناك لأستقل إحدى السيارات.

توجهنا عبر شارع المطار قبل منتصف الليل بقليل. وكان ذلك هو الطريق الذي لقبته وسائل الإعلام الأميركية بأنه أخطر طريق على سطح الكوكب، وكان مهجورا خلال ساعات الليل. كنت مزودا بدروع جسدية كما كنت أحمل سلاحا. كان معي في السيارة مترجمنا جورج – وهو من أصل لبناني – وبروس الخبير بتشغيل أجهزة كشف الكذب كما كان موهوبا في جعل الناس يرتخون ومن ثم يتكلمون. (لم يخضع صدام أبدا إلى اختبار كشف الكذب، إذ كانت قيادة وكالة الاستخبارات تعتبر – وكانت محقة بذلك برأيي – أن صداما سيرى في ذلك إهانة له، ويقضي بالتالي على احتمال كسب تعاونه).

كان المكلفون بقيادة سياراتنا يستخدمون المناظير الليلية وكانت السيارات محملة بترسانة أسلحة. كنا نسير بلا إنارة المصابيح بسرعة نحو مئة ميل في الساعة فبلغنا المطار خلال فترة قياسية من الزمن. أوقفنا جنود مسلحون على الطريق الفرعي المؤدي إلى منشأة الاستجواب الميداني وبعد فترة بدت لنا طويلة جدا قام أحد الجنود برفع الحاجز فمضينا عبر مسلك معتم إلى مجموعة من المباني المحصنة.

كانت المنشأة يستخدمها سابقا الحرس الجمهوري الخاص كمحطة له. وكانت تلك القوة تضم نخبة من الوحدات العسكرية الأكثر ولاء لصدام. وكان المبنى تسوده حالة من الفوضى. قام جنود مدججون بالسلاح واقفين عند طاولة مكتبية، فتحققوا من هوياتنا وطلبوا منا الجلوس في غرفة انتظار مجاورة مزودة بشاشة تلفزيونية كبيرة وثلاجة مليئة بالمرطبات وعدد من الأرائك.

طال انتظارنا بضع ساعات أمضيتها في مراجعة الأسئلة التي كنت سأوجهها لصدام. (بلغني في وقت لاحق أن الجيش كان قد عرض صداما على سكرتير الرئاسة عبد حامد محمود التكريتي وعلى وزير الخارجية السابق طارق عزيز، فتبسم عبد لدى رؤيته صداما من خلال زجاجة تتيح النظر من خلالها وهي مرآة من جهتها الثانية، وقال: نعم، إنه هو). أثناء انتظارنا مر من أمامنا جندي يحمل طستا من النوع المستخدم في الحلاقة **وبلغنا أن الجيش كان لتوه قد حلق لحية الدكتاتور العراقي. ثم لحق أحد حراسنا الأمنيين بحامل الطست وعاد وأبلغني بأنه قد حصل على بعض من شعر لحية صدام كتذكار.** فخطر لي بأننا علينا أن نباشر عملنا قبل أن ينتشر هذا النمط من الهراء.

أخيرا، مد جندي رأسه في الغرفة وقال لنا: هيا يا رجال. لقد جاء دوركم.

مضينا في ممر طويل وكنت أشعر بضربات قلبي في صدري. كانت عند نهاية الممر غرفة استحمام كبيرة حيث كان صدام محتجزا، فوقفنا أمام الباب لدقائق عدة بينما كان المحققون العسكريون يكملون استجوابهم.

انفتح الباب فجأة، فشهقت حين شاهدته جالسا على كرسي معدني وهو يرتدي دشداشة وسترة زرقاء مبطنة - كانت ليلة شتوية باردة - كنت قد رأيته لسنوات عديدة في الصور وتسجيلات الفيديو فخطر لي: يا للهول! إنه صدام!

ولكنني أدركت في الوقت ذاته أنه لا بد لي من التأكد من خلال أدلة جسده وبأسئلة تكشف الحقيقة.

دخلنا وأخذنا مواقعنا أمامه في تلك الغرفة المزدحمة، فبالإضافة إلى طاقمنا المؤلف من خمسة أشخاص (أنا والمترجم جورج وبروس وستيف من خلية استغلال المحتجزين)، كما كان هناك ستة أو سبعة من مرتدي اللباس العسكري. ولكوني المسؤول عن المصادقة على كون القوات الخاصة الأميركية قد قبضت على الرجل المطلوب، كنت أنا من تكلم أولا، من خلال المترجم: لدي بعض الأسئلة أود أن أطرحها عليك، وعليك أن تجيبني بصدق. هل فهمت؟

استمع صدام إلى المترجم وطأطأ رأسه معبرا عن موافقته.

سألته أولا: متى كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها ولديك على قيد الحياة؟

أصغى صدام وتبسم قليلا ثم عاد لينظر إليّ وقال: من أنتم؟ هل أنتم من الاستخبارات العسكرية أم من المخابرات؟ أجبني. عرفني بهوياتكم!

كنت أتوقع أن يكون صدام متحديا، ولكن إجابته فاجأتني بعدوانيتها. وقبل أن أرد عليه قال أحد أفراد مجموعتنا: لسنا هنا للإجابة على أسئلتك، بل أنت موجود للإجابة على أسئلتنا.

أقر صدام بذلك فواصلنا عملية الاستجواب. بدا صدام غير مكترث وهو يستمع إلى أسئلتنا وأعجبتني سرعة تأقلمه مع محيطه الجديد ومع وضعه الجديد كأسير، فبدا وكأنه يرتاد هذا المكان مساء كل سبت، وأن الوضع جزء من روتينه المألوف.

لاحظت على الفور الوشم القبلي على ظهر يده اليمنى وعلى أسفل رسغه الأيمن، وكان فمه متدليا قليلا كما كنا نراه في الصور والفيديوهات. كنا قد قطعنا شوطا يقترب من تثبيت هويته بنسبة مئة في المئة. فكان علي الآن أن أرى أثر الجرح الذي تركته الرصاصة في 1959، وأن أستمع إلى إجاباته على أسئلتي.

أجاب صدام على معظم الأسئلة بصدق، أو في الأقل على تلك التي قبل الإجابة عليها. لم يقل أي شيء عن كيفية خروجه من بغداد ولا عمن ساعده في ذلك. كان يدعي أنه لا يفهم ما الذي يجعلني أسأله هذه الأسئلة، قائلا: لماذا لا تسألني عن السياسة؟ يمكنك أن تتعلم الكثير مني.

قلت له إني أقر بذلك ولكن علي أولا أن أوجه له أسئلة معينة. ما كنت سأجري عادة استجوابا بهذه الطريقة. أي شخص يدخل ومعه

قائمة من الأسئلة سيضمن أن الاستجواب لن يحقق شيئا، فالقائمة تحول دون إقامة ترابط مع المحتجز الذي سريعا ما سيدرك أن صمته سيستهلك جميع الأسئلة. ولكن الذي كنا نقوم به كان وسيلة للتحقق من الهوية ولم يكن استجوابا رسميا، فما كنت أتوقع إجابات مستفيضة.

كان لكل من وكالة الاستخبارات وقوات الجيش مترجمها الخاص، ولاحظت أن مترجم الجيش الشاب كان يقاطع مترجمنا جورج بتعليقات خاصة به. استمر ذلك لفترة طويلة. كان سيطرح سؤال أو تصدر إجابة ليقول عندئذٍ مترجم الجيش بصوت متسلط: كلا، هذا ليس ما قاله! أو: لقد أخطأتَ في ترجمة ذلك.

كنا متجهين بسرعة نحو انفجار الموقف الذي كان من شأنه أن يقوض جلسة الاستجواب برمتها. كان صدام يتابع ذلك الحوار كما لو كان يشاهد مباراة في كرة المضرب وكانت عيناه تتحركان من جهة إلى الجهة الثانية، ثم ظهرت على وجهه ابتسامة دلت على استئناسه بهذا الوضع. بدأ صدام يتظاهر بالانزعاج من أسئلتنا ومال باتجاه مترجم الجيش وهز رأسه، وكان مذهلا أن يقابله مترجم الجيش بالمثل. استمر هذا الوضع نحو ساعة تزايدت خلالها أجواء التوتر. أما صدام فكان يستمتع بسوء التفاهم القائم في الجانب الأميركي والذي شجعه على اتباع أسلوب الاستفزاز. لقد جذبتني مشاهدة صدام وهو يرصد خرقا صغيرا ويستغله في تأجيج الاحتكاك بين أشخاص ينتمون في الظاهر إلى طرف واحد، فكان الموقف يظهر جانبا من أسلوب تحكمه في البلاد.

في إحدى المراحل سألت صداما إن كان لديه ما يقوله لنا، فأجاب بـ (نعم)، ثم انطلق منددا بالمعاملة الخشنة التي تعرض إليها لدى القبض

عليه من قبل القوات الخاصة وقال: هل هذا أسلوب يعامل به رئيس دولة؟ لو كان رئيسكم بوش في الوضع ذاته لدى العراقيين، هل كانوا سيعاملونه بهذه الطريقة؟ أقول لكم إنه ما كان سيتعرض لذلك.

نظرت إلى صدام مستغربا، فها هو رجل لم يتردد في قتل شعبه وهو يتذمر الآن من بعض الجروح الصغيرة والخدوش. قلت له إن شكواه قد تم تثبيتها. فكان صحيحا أن أفراد القوات الخاصة أساءوا معاملته، وكان قد بلغني أن أحدهم قد لكمه قائلا: هذه مقابل الحادي عشر من أيلول.

بدأ يشير إلى عدد من الجروح والخدوش، ثم رفع ثوبه ليرينا ساقه اليسرى المتضررة. رأيت أثر جرح قديم وسألته ببراءة إن كان ذلك هو الجرح الذي أصيب به في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم. أقر بذلك فتجمعت كل البراهين المطلوبة. إذ كنا بالفعل قد قبضنا على صدام حسين.

ثم سأله أحد الحاضرين عن مسألة أسلحة الدمار الشامل. نظر إليه صدام وأجابه باقتضاب: لقد عثرتم عليّ. لماذا لا تذهبون للبحث عن أسلحة الدمار الشامل؟

ثم بدا وقد سخّنه موضوع مساعي الرئيس بوش غير المثمرة في البحث عن أسلحة الدمار الشامل العراقية. قال صدام إن الأميركيين كانوا مجموعة من المخربين الجهلة لا يفهمون شيئا عن العراق، وهم مصرون على تدميره لكونهم يعتقدون بوجود أسلحة حيث لا وجود لها. ثم بدت علامات خجل عليه، لاعتقاده على ما كان يبدو، بأنه قد أساء إلى (ضيوفه)، وقال: لا أتحدث عنكم، فأنتم تبدون رجالا جيدين. إنها حكومتكم التي أتحدث عنها.

أخيرا سألني أحد أفراد مجموعتنا إن كان لدي المزيد من الأسئلة. كانت تلك فرصتي لأسأل عما كنت أفكر به منذ أن شاهدت القوات الأميركية وهي تسقط تمثال صدام في ساحة الفردوس في نيسان الماضي فسألته: يا صدام، أعرف أنك أمضيت حياتك في تثبيت مكان لك في تاريخ العراق وبذلت أفضل ما لديك من جهود لتخليد حكمك من خلال إقامة نصوب تميز عهدك. كيف تشعر الآن وقد تم إسقاط كل هذه التماثيل؟

ضحك صدام ضحكة خفيفة ورفع إصبعه وقال: أريد منك أن تصغي لي. لم أطلب أبدا من أحد أن ينصب لي تمثالا. كثيرا ما كان أعضاء مجلس قيادة الثورة يقولون لي إنهم يريدون رفع صورتي في مكان ما أو إقامة تمثال لي، فكنت لا أوافق. ولكن القيادة كانت تتخطى رفضي، فمن أكون أنا لأتخطى قرار القيادة؟ أذهلتني إجابته فكنت أعرف أن صداما لا يتراجع أمام أتباعه. ثم لدى استعدادنا للمغادرة قلت له: يا صدام، ذكرت بأنه يمكنني أن أتعلم منك الكثير عن السياسة فأتمنى أن يُتاح لنا وقت للتحدث عن السياسة.

وافق صدام فمضينا خارجين من الغرفة.

عدنا إلى مقر الوكالة عند الفجر. كنت ماشيا في اتجاه مقطورتي السكنية، حين التقيت بأشخاص كانوا قد أفاقوا لتوهم وأرادوا الاطلاع على ما كان قد حدث. قاموا واحدا بعد الآخر بتهنئتي كما لو كنت أنا الذي قمت بسحبه من الجحر. كان ذلك يسرني ولكنني كنت بحاجة إلى النوم بعد أن أمضيت ثلاثين ساعة مستيقظا.

الآن وقد تم تأمين صدام بين أيدي القوات الأميركية، كنت أتأمل بارتياح قضاء أربعة أسابيع هادئة قبل الموعد المقرر لعودتي إلى الولايات المتحدة. كم كنت مخطئا في ذلك. فبعد بضعة أيام قال رامسفيلد عبر شبكة (سي أن أن) إن وكالة الاستخبارات المركزية ستتولى أول استجواب لصدام. فكان عملي في بغداد لم يتخطّ مرحلة البداية.

2

تجرأ أن تكون محقا

لم يخطر لي أني سأكون يوما خبيرا في الشأن العراقي لدى أهم وكالة استخبارات في العالم، إذ ما كنت أعرف عن وجود مثل هذه الوظيفة إبان سنوات نشأتي. لقد ولِدت في الثامن من آذار 1961 - وكنت الأصغر من بين أطفال العائلة الخمسة - على الساحل الجنوبي من جزيرة لونغ آيلاند. كنت صبيا عاديا لا يهتم بالسياسة أو التاريخ أو العمل لدى الحكومة. كنت أتابع شؤون الرياضة، ثم انتقل اهتمامي إلى فِرق الروك أند رول التي كنت أمضي أوقاتا طويلة في التحدث عنها مع أصدقائي. لم يلفت العالم الأوسع انتباهي، كما ساهم لقب عائلتي - وهو لقب ذلك الرئيس السابق الذي أُجبر على التنحي - في إبعاد اهتمامي عن الخدمة الحكومية.

كان الشرق الأوسط عنصرا محفزا لعدد من الأزمات العالمية المتعاقبة خلال سنوات تعليمي المتوسط - اغتيال الرياضيين الإسرائيليين خلال دورة 1972 للألعاب الأولمبية، والحرب العربية الإسرائيلية في عام 1973، والمقاطعة النفطية في 74/1973، ولكن صغر سني جعلني لا أدرك أهميتها. لقد خصصت مدرستي درسا واحدا في يوم واحد لتناول موضوع العالم

الإسلامي. في المقابل، أمضينا أسابيع في دراسة تاريخ وجغرافية إسرائيل (كانت المدرسة تضم العديد من التلاميذ اليهود وكان الكثيرون منهم قد تعلموا اللغة العبرية). لم أعد إلى التفكير في الشرق الأوسط إلا حين أخذني أخي بسيارته كي أسجل اسمي في سجل الخدمة العسكرية الإلزامية في 1980. كان الشرق الأوسط آنذاك في حالة من الغليان؛ كان الاتحاد السوفيتي قد غزا أفغانستان وكان 52 أميركيا محتجزين كرهائن في السفارة الأميركية بطهران، وكانت السفارة الأميركية في إسلام آباد قد تعرضت إلى هجوم، وكان الرئيس جيمي كارتر قد أعاد فرض التسجيل للخدمة العسكرية على جميع الذكور بين عمري 18 و26 عاما. وما كنت قد التقيت بأي مسلم حتى عام 1981.

التحقت بجامعة هوفسترا في لونغ آيلاند. لم أفكر كثيرا في الموضوع ولكن هذه الجامعة كانت مثالية لي، فالأساتذة كانوا ممتازين، وكنت كثير المطالعة ثم عشقت التاريخ. اجتذبني التاريخ الروسي وقيام الاتحاد السوفيتي وتطوره وسنوات الحرب الباردة. كان ذلك إبان عهد الرئيس ريغان الذي تجددت خلاله توترات الحرب الباردة. ولم يكن لدي غير اهتمام قليل بالشرق الأوسط.

كانت المطالعة قد مهدت لمسار حياتي العملية، ولقد تأثرت كثيرا بكتابين: نيكولاس وألكساندر للكاتب روبرت ماسي، الذي يتناول سيرة آخر القياصرة الروس وعائلته، والذي أعلمني بما يحدث حين يرتطم الفرد بقوى التاريخ. أما كتاب البيت في شارع غاريبالدي للرئيس السابق للموساد الإسرائيلي إيسر هاريل فيروي فيه كيف قبض الموساد على آدولف آيخمان وسلمه إلى العدالة في إسرائيل. لن أنسى أبدا ذلك المشهد

الذي جابه فيه هاريل المقبوض عليه آيخمان، فنظر ذلك النازي الذي دبر ترحيل اليهود إليه وردد دعاء الرب باللغة العبرية. ولقد أثار الكتابان اهتمامي بعالم الاستخبارات، وفي السنة الأخيرة من دراستي عزمت على تكريس حياتي العملية في الخدمة الحكومية كي أرى بنفسي ما كنت قد قرأت عنه. كنت أريد مقعدا أماميا في مسرح التاريخ.

التحقت بجامعة نيويورك كي أحصل على شهادة الماجستير في التاريخ، مع التركيز على الدبلوماسية الأميركية. وحالفني الحظ لكوني كنت أدرس بإشراف ماكجورج بندي. كنا في الأسبوع مرة نناقش موضوعا مختارا من الحرب الباردة، فكان يلخص لنا ما قد حدث مع آراء الباحثين في شأنه. كان يتحدث لمدة ساعتين دون أن يراجع ملاحظاته المكتوبة وبلا تعثر في إلقائه. كان ملما تماما بأساليب الدراسة والتدريس الحديثة وكان على استعداد دائم لتخصيص وقته ليلتقي بالطلاب وليقدم لهم المشورة، بشرط أن يتم ذلك بموعد محدد مسبق.

في آذار 1989 انتقلت إلى كاليفورنيا لقضاء بعض الوقت مع والدتي وثلاثة من أشقائي الذين كانوا قد انتقلوا إلى الساحل الغربي، كما تعرفت إلى عدد ممن أصبحوا أصدقائي. ربما كان الأجدر بي أن أنتقل إلى واشنطن العاصمة كي أمضي في دربي إلى وكالة الاستخبارات المركزية.

تقدمت للمرة الأولى إلى العمل في الوكالة في 1990، أي بعد سنتين من حصولي على شهادة الماجستير من جامعة نيويورك وخلال الفترة السابقة لحرب الخليج الأولى. التقيت أحد أفراد الوكالة في أل مونتي بكاليفورنيا. أتذكر أنني كنت جالسا في غرفة الانتظار حيث كنت أقرأ

عن غزو الكويت وأفكر بأن ذلك كان من الشؤون الكبيرة. بدا الموظف الذي قابلته وقد أعجبته إجاباتي على أسئلته وقال لي إن الخطوة التالية ستكون امتحانا نموذجيا لاختبار مدى إلمامي بالشؤون الخارجية. اجتزت معظم أجزاء الامتحان بامتياز وطلبوا مني أن أذهب إلى واشنطن لإجراء مقابلة. ثم اتصلت بي الوكالة لتخبرني بتأجيل موعد المقابلة، ثم تلقيت مكالمة أخرى تعلمني بتغيير الموعد، ثم مكالمة أخرى للغرض نفسه، تلتها مكالمة مماثلة. وأخيرا أخبروني بأن المقابلة لن تتم، فأصابتني خيبة أمل. ولكن الذي ما كنت أعرفه هو أن الوكالة كانت منهمكة في مرحلة إعادة ترتيب كوادرها، ما قلص نشاط التعيينات بدرجة كبيرة.

انتقلت إلى واشنطن في 1993 والتحقت ببرنامج دراسات الأمن القومي بجامعة جورجتاون كي أحصل على شهادة ماجستير ثانية، فحصلت عليها في 1996 وأرسلت سيرتي الذاتية إلى جهات عديدة في العاصمة. ثم في 1997 فوجئت بمكالمة من وكالة الاستخبارات طلبوا مني فيها أن أحضر مقابلة. أوقفني الحراس عند البوابة وأمضوا وقتا طويلا جدا للتحقق من كوني لدي موعد، فجعلوني بذلك أتأخر عن الموعد بنحو ساعة ونصف. لدى دخولي مبنى المقر الرئيسي الجديد شاهدت لوحة تحمل مقولة (وسوف تعرفون الحقيقة، والحقيقة ستحرركم.) جعلتني أشعر بأن هنا هو مكاني. كنت تواقا إلى الحصول على وظيفة لدى وكالة الاستخبارات المركزية.

كنت أتعرق بكثرة لدى جلوسي أمام أحد المدراء حيث سعيت إلى إظهار معرفتي وثقتي بنفسي. خرجت عائدا إلى البيت بعد سماعي عبارة (سوف نتصل بك). ثم ذهلت بعد مرور بضعة أسابيع بمكالمة طلبوا مني

فيها حضور مقابلة ثانية. ثم بعد تسعة أشهر من التحقق من خلفياتي وخضوعي إلى اختبارات كشف الكذب، حددوا لي موعدا للمباشرة في الثالث من شباط 1998. كان حلمي بالانتماء إلى الوكالة قد تحقق. لم يطلعني أحد على طبيعة عملي أو مسؤولياتي. كان علي فقط ألا أتأخر في أول يوم من دوامي!

قبل مباشرتي العمل ببضعة أيام بلغني أني سأكون أحد محللي القيادات ضمن مجموعة الشأن العراقي التابعة إلى مديرية الاستخبارات. كان من الأرجح أن تكليفي بهذا العمل يعود إلى انهماكي في دراسة صدام عن كثب لدى تحضيري رسالة الماجستير بجامعة جورجتاون. كان ذلك يعني أن وظيفتي الرئيسية ستتطلب مني تحليل شخصية صدام حسين وروابطه العائلية المساهمة في إبقائه في السلطة، وروابطه القبلية، وما يدفعه وأساليبه، وكل ما يؤثر فيه. كان الأمر يشبه تكوين صورة كبيرة من نبذ صغيرة ومهمة مستقاة من التقارير السرية والإنصات الإلكتروني. كان تحليل القيادة يركز على الشخص وطبيعة ومدى علاقته بالسياسات الآنية.

لقد أسعدتني هذه المهمة، وكنت محاطا بمجموعة مميزة من أصحاب المعرفة الواسعة المكتسبة من سنوات أمضوها في عمل مماثل في شأن قيادات أخرى. كما كان علي أن أتعلم لغة جديدة مليئة بالرموز والأسماء المختزلة، بالإضافة إلى أسماء كبار مسؤولي الوكالة في الطابق السابع من المبنى.

غير أن الوكالة – شأنها شأن غالبية المؤسسات البيروقراطية الكبيرة – كانت تتحكم فيها سلالم سلطة كثيرا ما كانت تزدحم بأشخاص يتسلقونها بالعمل المألوف الآمن، ويعتبرون الأفكار الجديدة مصدر خطر

على مراكزهم. حين التحقت بالوكالة كان أحد شعارات تأهيلي (تجرأ أن تكون مخطئا)، ولكنني اكتشفت إبان عهود كلنتون وبوش وأوباما أن مبدأ العمل الحقيقي هو (تجرأ أن تكون محقا).

المدراء وغالبية زملائي المحللين كانوا على طرفي نقيض، فكان المدراء مترفعين وبعيدي المنال وما كانوا يعرفون من أنا أو ما الذي أقوم به. لم يتم تعييني من قبلهم وما كانوا سيعينونني لو كان الأمر بأيديهم. كان ذلك يعود إلى التعديلات البيروقراطية التي أورثتهم محللي قيادات وهم لا يعرفون ما هو تحليل القيادات ولكنهم أصبحوا مسؤولين عن رعاية وإطعام هؤلاء المحللين. في أول أيام عملي ما كانوا قد جهزوا لي مكتبا، ثم حين وجدوا مكتبا كان في غرفة أخرى بعيدة عن باقي أفراد الطاقم.

كان المدراء قد تعودوا على الاستعانة بأشخاص معينين، فكان عليّ أن أثبت وجودي، أي إما أعوم وإما أغرق. وكنت أدرك أن السبيل الوحيد لكسب ثقتهم هو أن أتعرف إلى كل ما يتعلق بصدام وكيفية إدارته للعراق. كان ذلك مضنيا خلال السنة الأولى من عملي ولكني تمكنت تدريجيا من تطوير ملامح جديدة عن الزعيم العراقي.

لم تكن الوكالة مستعدة للتعامل مع المسألة العراقية، حتى وإن كان قد بات واضحا في أواخر 2001 أن الولايات المتحدة ستشن الحرب على صدام. وكانت أصوات الطبول الصادرة من البيت الأبيض تنذر بأن صدام كان يشكل تهديدا متزايدا على الديار الأميركية. وكان رد فعل وكالة الاستخبارات قد تمثل في تعزيز عدد العاملين في مديرية الاستخبارات، فلقد تزايد عدد العاملين في وحدة العراق تزايدا طرديا خلال السنتين التاليتين وكانت الذهنية السائدة تشبه ذهنية المهام الطارئة.

تقوم الوكالة إبان الأزمات بتشكيل وحدة مهام طارئة تقوم بتزويد صانعي السياسة في الإدارة بأحدث التحليلات التكتيكية الآنية. أما الذي لا تقوم به فهو التشجيع على التفكير الاستراتيجي.

كان المدراء يدّعون ترحيبهم بالتفكير (خارج العلبة) ولكنهم كانوا يسارعون إلى الأفراد أنفسهم - ممن كانوا يلتقون بهم في عطل نهاية الأسبوع - ليحصلوا بالتالي على الإجابات القديمة نفسها. لم يكن هذا النمط الكسول حكرا على مديري الوكالة، بل كان أفراد الوكالة الذين يعدون التقرير اليومي الملخص مذنبون أيضا، فكثيرا ما كانوا يحولون تحليلات القيادات إلى تقييمات سياسية من خلال تركيزهم على التيارات السياسية المحيطة بحدث مهم دون التركيز على دوافع وأهداف القائد في اتخاذ قرار ما أو تحرك ما. ولكن مع نشوب الأزمة كان لا بد من تضمين المذكرات المرسلة إلى الرئيس نبذة تتعلق بالقيادة. كان لا بد من إطلاع الرئيس على كل ما لدينا من معلومات عن القائد المقصود وعن نواياه المحتملة. في ما يتعلق بالعراق ومع حلول عام 1998 - وهي السنة التي باشرت خلالها عملي لدى الوكالة - كان السؤال قد تحول من (ما الذي تفعله بغداد؟) إلى (ما الذي يريده صدام؟ وما الذي يقوم به صدام؟).

كان العراق يشبه وحشا متعدد الرؤوس، فكان صدام منشغلا في مناوشاته مع المجتمع الدولي حول العقوبات وكان يخوض حربا كلامية (وبالرصاص أحيانا) مع الولايات المتحدة التي كانت قد فرضت حظرا جويا على جنوب العراق وشماله كما كانت أحيانا تشن غارات جوية على البلاد. وكانت لدى العراق علاقات مضطربة مع جميع دول جواره، وكان مبتلى بمفتشين دوليين يبحثون عن أسلحة دمار شامل، كما كان

عليه أن يتدبر أمر معارضين فاشلين كان معظمهم يقيمون في الغرب أو في بعض دول الشرق الأوسط المجاورة، كانوا يدّعون تمتعهم بمصادر داخلية وجيوش سرية متأهبة لإطاحة الدكتاتور. كما كان صدام قد نجا من عدد من محاولات الانقلاب كان بعضها أكثر خطورة من محاولة وكالة الاستخبارات المركزية الفاشلة في 1996. (كانت هذه المؤامرة الفاشلة من تدبير حركة الوفاق الوطني العراقي، وهي حزب سياسي مكون في معظمه من منشقين عسكريين وأمنيين. أما المؤتمر الوطني العراقي بزعامة أحمد الجلبي والمثير للجدل فلقد قدم الكثير من المعلومات التي استخدمت لتبرير الغزو في عام 2003. غير أن جهاز مخابرات صدام نجح بسهولة في كشف نوايا العديد ممن كانوا يتعاونون مع وكالة الاستخبارات، وكانت المخابرات العراقية على علم بكل تفاصيل مؤامرة 1996 فأفشلتها خلال شهري حزيران وتموز من تلك السنة).

كان مدراء الطاقم المختص بالشأن العراقي يطلبون من محلليهم التركيز على التساؤلات المكررة نفسها: ما هو مدى استقرار نظام صدام؟ هل سيتحرك صدام في اتجاه الشمال؟ هل سيتوجه نحو الجنوب؟ وأين هي أسلحة الدمار الشامل؟ كانت تلك التساؤلات تشغل جورج تنت وفريقه القيادي في الوكالة. ولم يكن تنت راضيا عن الناتج العملي الصادر عن طاقم القضية العراقية، فلجأ إلى استبدال مديره بمعاون يثق به اسمه فيل الذي كان سيتواصل مباشر مع رئيس الوكالة.

لا يوجد غير القليلين من أمثال فيل في مجال اللباقة والوصولية وكان يتفهم متطلبات مسؤولي الطابق السابع. كان يزودهم بناتج مبسط يمكنهم فهمه بسهولة وكان يقدمه بلمساته الوصولية المكتسبة من خبرته كلاعب

محترف في عالم البيروقراطية. كان ذلك النمط من الاعتماد على المقربين الوصوليين يعيق تبادل الآراء حول تلك المنطقة المعقدة من العالم حيث تتزاحم مفاهيم الدين والثقافة والتراث التاريخي. كانوا يسألون مرارا وتكرارا عن سبل اختراق نظام صدام وما الذي علينا أن نفعله من أجل زعزعته وأين سنجد من يحل محله. كانت هذه الأسئلة تُطرح كما لو كانت الإجابات الصائبة عبارة عن ثمار متدلية وسهلة القطف. أما الواقع فهو أن التعامل مع بلدان مثل العراق وإيران يتطلب مراجعة تلال مما كان يردنا من معلومات متراكمة خلال سنوات عديدة، كي يتكون لدينا تفهّم مقبول لما كان يجري وعما يمكن تغييره. غير أن فيل كان يعتبر أن خلفيات المعلومات ليست إلا تاريخا باليا لا فائدة فيها. وكانت النتيجة هي أننا لم نطرح تساؤلات لا بد من حصولنا على إجابات عنها. (أما فيل فلقد انتقل إلى مجلس الأمن القومي حيث اصطدم بزلماي خليلزاد الذي كان يعمل إبان عهد الرئيس جورج بوش الابن كنائب لمعاون شؤون التخطيط بوزارة الدفاع قبل أن يتولى ثلاثة مناصب متتالية كسفير لدى كل من أفغانستان والعراق والأمم المتحدة. لم يكن خليلزاد يثق بوكالة الاستخبارات وكثيرا ما كان يستبعد فيل عن اجتماعاته. ثم تولى فيل في وقت لاحق وظيفة وكيل رئيس مركز مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية حيث كان يعمل على محاربة تنظيم القاعدة).

تمثل المعلومات المستقاة من نشاط الاستخبارات الآنية شريان الحياة في عمل المحلل، فالمذكرات اليومية تتيح لصانعي السياسة ولغيرهم من كبار المسؤولين بعض الفهم لما يجري حول العالم وما الذي تستنتجه جهات الاستخبارات من الأحداث، كي يحصل صانع السياسة المنهمك

في عمله على ما يحتاجه لأداء عمله. ولكننا أصبحنا فجأة نعد تقارير مكررة حول إن كان صدام سيتجه إلى الشمال أو إلى الجنوب وحول أماكن وجود أسلحة الدمار الشامل. أما أنا فكنت المحلل الوحيد المتخصص بشأن القيادة العراقية ولكنهم، لكوني سلعة لم تُختبر بعد، كانوا لا يشجعونني على الكتابة عن صدام. فباشرت الكتابة عن ذريته. قمت ببلورة الفكرة القائلة إن صداما كان بصدد صقل نجله الأصغر قصي ليخلفه، متخطيا بذلك نجله الأكبر عدي. كانت مسألة تسلسل الخلافة تهم كلا من مجلس الأمن القومي والبيت الأبيض، فربما كانت إدارة كلنتون في 1998 تبحث عن بدائل لصدام لتتفادى شن الحرب على العراق.

كنا كما أتذكر الآن مقيدين جدا نتيجة افتقارنا للمصادر على الأرض. لم تكن لدينا سفارة ولا أعين ولا آذان تطلعنا عما يجري، فأصبحنا نعتمد بشكل شبه كامل عل مصادر المغتربين. وحين تم اغتيال محمد صادق الصدر من قبل أنصار صدام في شباط 1999 لم نكن نعرف أي شيء عن الصدريين ولا عن محمد صادق الصدر. كان مصدر شيعي سيطلعنا على الفور بأنه رجل دين شيعي بمرتبة آية الله، وهو من السادة وشخصية سياسية ودينية بارزة في النجف وكان يتحدى قمع صدام للشيعة، كما إنه كان والد مقتدى الصدر الذي ترأس في وقت لاحق جيش المهدي الشيعي، وكان عدوا صارما لسلطة التحالف المؤقتة. ما كنا قد سمعنا عن أي منهما من قبل.

ذهبت مع محلل آخر لنسأل فيل إن كان في وسعنا أن نكتب عن ديناميكية الدوامة في العالم الشيعي في أعقاب وفاة الصدر. قلت لمديرنا إن

القوى اللاعبة بين الشيعة ربما كانت ستساهم في تحديد طبيعة أي حكومة عراقية بعد زوال صدام. قال فيل إن صانعي السياسة كانوا في غنى عن معرفة هذه الأمور، إلا أنه شجعنا على المضي في التفكير بالموضوع. كان سيصعب علينا الاطلاع على المزيد حول هذا الهدف المعقد بمعزل عن تأييد مديرينا. كما سلط ذلك الضوء على مشكلة أخرى، إذ كان تركيزنا على صدام والمقربين منه قد بلغ حدا جعل ذكر أي موضوع لا يتناول النظام إلا بمساس عرضي يعتبر استخداما سيئا لمواردنا. يتبين بوضوح من خلال النظر إلى الوراء أننا تجاوزنا التهديد الشيعي لقبضة صدام على زمام السلطة قبل أحداث الحادي عشر من أيلول. ولقد نتج ذلك بسبب اعتمادنا على جماعات المغتربين والمعارضين الذين كان العديد منهم من السنة لا يكنون غير الازدراء تجاه إخوتهم الشيعة، فلقد أقنعنا أنفسنا بأن من سيخلف صداما سيكون رجلا قويا من السنة.

والأسوأ من ذلك هو أن الوكالة لم تنتبه إلى عدد من التطورات المهمة المتعلقة بقيادة صدام. قامت إحدى زميلاتي بإعداد ورقة حول رواية صدام (زبيبة والملك) استنتجت فيها أن الرواية لم تفدنا بالكثير لكون صدام كان يستخدم الكُتّاب البدائل. غير أن الخبراء في الشأن العراقي كانوا يعرفون أن صداما كان يكتب كل شيء بنفسه، بما في ذلك خطبه ومن ثم هذه الرواية. ولكن المحللة أكدت بأن هذا ليس صحيحا لأنها افترضت بأن زعيما دوليا لا يتمكن من إيجاد الوقت الكافي لكتابة رواية. ولكن هذا كان بيت القصيد، فكونه كان لديه الوقت للكتابة كان يشير إلى أنه ما كان يكرس طاقاته لإدارة الحكومة في وقت بدت فيه حتمية نشوب الحرب.

خلال سنواته الأخيرة كان صدام بالفعل قد بدأ في الابتعاد عن حكم البلاد وكان منشغلا بشكل خاص بمتابعة اهتماماته غير الحكومية، ومن أهمها كتاباته. كانت قد وردت تقارير تنوه بذلك ولكنها لم تنقل إلى صانعي السياسة ولم تظهر صحتها إلا بعد انتهاء الحرب. واكتشفنا لاحقا أنه في الوقت الذي كانت فيه القوات المسلحة الأميركية تستعد لشن الهجوم على العراق، كان صدام قد أرسل أحدث مسودة لرواية كان يكتبها إلى طارق عزيز ليبين رأيه عنها. لم يكن ذلك تصرف رجل يستعد لمواجهة هجوم عسكري مدمر.

بصراحة، لو كانت قد بلغتنا تلك المعلومات في وقتها وأبلغنا البيت الأبيض عنها لما كانت ستحول دون وقوع الحرب. كانت إدارة بوش مصممة على الحرب وعازمة على إزالة صدام. ولكننا، باعتبارنا أفراد استخبارات مهنيين، كانت مسؤوليتنا تحتم علينا نقل هذه المعلومات إلى صانعي السياسة. كان ذلك فشلا يوازي في عظمته الادعاءات بأن لدى العراق مخازن أسلحة دمار شامل.

كان بول ولفوفيتز، نائب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد قد أغرق الوكالة بطلباته للمعلومات، إذ كان يسعى إلى فهم جذور التهديد العراقي على الولايات المتحدة، ولكن جهوده كانت تقوضها سخافة أسئلته. فكان كثيرا ما يطالب المحللين بالتعليق على تقارير كانت تنشرها مجلة فانيتي فير أو على تقارير الأخبار المسائية. من بين الذي استهواني هو طلبه من زملائي لآرائهم حول مقابلة أجرتها المذيعة التلفزيونية من قناة أي بي سي كلير شيبمان مع امرأة كانت تدعي أنها إحدى عشيقات صدام، وكانت تزعم أنها حصلت على الكثير من الأسرار

المتعلقة بأسلحة صدام للدمار الشامل من خلال حوارات الفراش.

لم يتمكن أحد من التعرف إلى هويتها الحقيقية، و لم تكن لـــدينا أي معلومات عن امرأة بمواصفاتها كانت لديها ارتباطات بالنظام، ناهيك عن كونها عشيقة صدام. عار على أي بـــي سي لمجـــرد بـــث مثـــل هـــذه الموبقات، وعار أيضا على الإدارة لإضاعة الوقت في تقييمها. كانت مجرد شبح طاردته إدارة بوش ضمن جهودها الرامية إلى تعزيز حججها للنيـــل من صدام.

3

الوجهة: بغداد

لقد انتهى بي الأمر في العراق بطريقة شبه عرضية. كنت أحب العمل في الشأن العراقي في لانغلي، ولكن بعد قضائي ثلاث سنوات كمحلل قيادة وبدراسة صدام حسين أصبحت على يقين من أن آراء مديري وآرائي لن تتفق أبدا، فقررت حين تسلمت إدارة بوش مهام السلطة في كانون الثاني 2001 أنني كنت بحاجة إلى التغيير، فانتقلت إلى مكتب الشأن الإيراني. كان ذلك من حسن حظي فلقد انهالت على زملائي السابقين طلبات من إدارة لم تكن تريد غير معلومات تساند وجهات نظرها المسبقة عن العراق وعن صدام، فتحول عمل معظمهم في الشأن العراقي إلى كابوس.

في صيف عام 2003 صدر تعميم إلى مختلف مكاتب وكالة الاستخبارات يعلن حاجة الوكالة إلى محللين يعملون داخل العراق، إذ كانت الدفعة الأولى من كوادر المحللين - كان العديد ممن تم نشرهم في العراق يقضون فترة ثلاثة أشهر أو ستة في هذا العمل - كانت ستنتهي فترة نشرهم فكان على المقر الرئيسي أن يستبدلهم بآخرين، ولقد تكرر هذا النمط من العمل طوال السنوات السبع التالية. أما أنا فلقد تطوعت

للذهاب نتيجة توقعي بأن خبرتي في تحليل القيادة العراقية كانت ستفيد سير العمل. أبلغوني بأنها ستكون كذلك ولكنهم عينوني بصورة مؤقتة في مطار بغداد لمراجعة الوثائق العراقية المصادرة ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل، فأصبحت أفكر: هل إنهم يمزحون؟ كانت لدي معرفة جيدة عن ديناميكيات النظام وعن القضايا المتعلقة بالقيادة، فما الذي يجعلهم يرسلونني إلى المطار للعمل على شأن أسلحة الدمار الشامل؟

اتصلت بالمسؤولة عن توزيع الواجبات وذكّرها بخبراتي ثم سألتها إن كان هنالك خطأ. أخبرتني بأن كل شيء كان قد تم تمحيصه و لم يحدث أي خطأ. إلا أن تعييني تغير كليا نتيجة ظهور بعض الملابسات في الأفراد في بغداد، إذ علمت في أواخر شهر آب 2003 بأنه ترتب علي أن أحل محل صديقي وزميلي السابق، شان، كالمحلل المخصص لصدام حسين. لم يكن في وسع شان أن يمدد مكوثه في العراق بسبب عقد قرانه المرتقب في تشرين الثاني. زارتني ذات يوم رئيسة مكتب تحليلات الشرق الأدنى وجنوب آسيا وأطلعتني بأنها كانت قد اتصلت بجميع الآخرين ولكن ما كان أي منهم مستعدا للالتزام بالمهمة، فأكدت لها بأنني سألتحق بالعمل عند الحاجة. طلبوا مني أن أكون جاهزا في نهاية تشرين الأول. فباشرت بتحديث ما كنت أتذكره عن صدام وكل ما قد نسيته وكل ما تم منذ مغادرتي العراق قبل سنتين ونصف.

أعددت نفسي بقراءة برقيات قديمة وتقارير استخباراتية أكثر حداثة. كانت قد انتشرت أقاويل كثيرة عن رداءة الاستخبارات المتعلقة بأسلحة العراق للدمار الشامل خلال الفترة السابقة للغزو، ولكن التقارير المتعلقة بصدام كانت توازيها برداءتها، كان أسوأها يردنا من أحمد الجلبي

والمؤتمر الوطني العراقي. فتشت بين تحليلات القيادة المنجزة بعد أن تركت مكتب العراق فذهلت لدى اكتشافي أن المحللة الأقدم كانت ببساطة تضيف بعض التحديث إلى تقاريري القديمة أو تقوم بتوقيعها باسمها لتوزيعها كما لو كانت جديدة وحديثة. سألت نفسي: كيف يمكن للمرء فهم هذا الرجل المعقد من خلال مراجعة أعمال مضى على صدورها سنتان ونصف السنة؟

كنت خلال سني عملي لدى وكالة الاستخبارات أعيش وأستنشق صداما حين كنت أذهب إلى السينما ولم يكن الفلم جيدا، كنت أجد نفسي وأنا أعد مذكرات في ذهني، وكنت أحيانا غير قادر على الامتناع عن التفكير به. لم أنفرد في ذلك. كنت أعمل مع عدد من المهنيين الملتزمين في الوكالة ممن كانوا منشغلين بصدام كما كنت أنا. كنا قد كونا صورة جيدة للدكتاتور العراقي ولكننا لم ننجح كثيرا في تحديد مكانه في الصورة الجغرافية السياسية الأوسع. أعتقد أنه مع مرور الزمن على انتهاء حرب الخليج الأولى وضمور مصادر معلوماتنا، بدأ العديد من المحللين بتقبل الصورة الكاريكاتيرية الهزيلة التي تظهر صدام بأنه ذلك الجزار الشرير الذي لا بد من إيقافه عند حده مهما بلغ ثمن ذلك. فبات من الصعب أن ننظر إليه من خلال عدسة العطف التي كانت ستتيح لنا مشاهدته وهو يواجه ضغوطا مضادة كانت أحيانا تدفعه نحو مسارات كانت تعرضه إلى الخطر، مثل اضطهاد الشيعة العراقيين الذين كان يعتبرهم صدام أعوانا لإيران إبان حربها مع العراق. كان عليه أن يوازن بين التنديد الدولي بالطريقة التي كان يعامل بها شيعة جنوب العراق مقابل قناعته بأن الكثيرين من أهل الجنوب كانوا عملاء لإيران.

كان صدام قاتلا طغت أساليبه الوحشية على ارتقائه المذهل. كان قد ولد في عام 1937 بتكريت الفقيرة الواقعة إلى الشمال من بغـداد، إلا أن صداما قام في وقت لاحق بإنفاق الكثير من المال من أجل إعادة تعمير مسقط رأسه. كتب المؤلف سعيد أبو ريش سيرة صدام الذاتية قال فيهـا إن وصول تكريتيين إلى البلدات المجاورة كان يدفع أصـحاب المحـلات والحوانيت إلى إغلاق أبوابها وكان يعود ذلـك إلى سمعـة التكـريتيين كقاطعي طريق ومسيئين في سلوكهم. (كنت أشـعر دائمـا أن دوائـر الاستخبارات لم تعر ما يكفي من الأهمية لسنوات صدام الأولى وهي بمثابة المفتاح إلى تفهم صدام الرجل).

كان والد صدام قد توفي قبل ولادته بحوالى ثلاثة أشـهر، وكانـت والدته منجمة شبه روحانية غريبة الأطوار عادت لتتـزوج مـن شـقيق زوجها المتوفى بعد ولادة صدام بفترة قصيرة. وبالاستناد إلى العديد مـن سيره الشخصية كان زوج والدته يسيء معاملته (الأمر الذي نفاه صـدام بشدة خلال أحاديثنا). كما كان صبيان البلدة يستهزئون به لكون والده ميتا ولكون والدته غريبة الأطوار. يقول آماتزيا بارام، الأستاذ بجامعة حيفا الإسرائيلية والباحث الزائر لدى عدد من منتديات الفكر الأميركيـة، إن الفتى صداما كان يمتلك مسدسا كان يشهره لدى شعوره بأي تهديـد. هذه الرواية تحولت إلى حقيقة مجازية تفسر سعي صـدام وراء أسـلحة الدمار الشامل التي ما كان سيتخلى عن البحث عنها. خلال الأوقـات التي أمضيتها مع صدام سألته عن هذه القصة، فنظر لي وكأنني جننـت، وقال إن الجميع كانوا يمتلكون أسلحة، إذا شهر أحدهم سـلاحه فمـن الأرجح أن يقوم المقابل بالشيء ذاته. كان صدام سريع البديهة وذكيـا

بذكاء الشارع، برغم عدم كونه تلميذا جيدا. ترك عائلته في أيام شبابه وتوجه إلى بغداد ليبحث عن الشهرة والمال. كان زوج والدته قد شجعه على ذلك إذ كان يدرك بأن صدام لن يحقق ذاته في تكريت. في بغداد نزل صدام في بيت خاله خير الله طلفاح، أمين العاصمة بغداد. صدام وساجدة ابنة خير الله ما كانا يفترقان، ثم كان الجمع بينهما أمرا مجزيا لصدام، فلقد ثبّتت روابطه بعشيرة طلفاح وفتحت له بوابة الدخول إلى عالم السياسة التآمرية في العاصمة العراقية.

إن دور صدام في النشاط السياسي الثوري في العراق في أواخر عقد الخمسينيات مشوب بالغموض، وكان أبرزها مشاركته في العملية الفاشلة في 1959 لاغتيال عبد الكريم قاسم الذي تولى رئاسة الوزراء بعد أن تزعم الانقلاب العسكري الذي أطاح النظام الملكي في البلاد. يُقال إن صداما تهور وبادر إلى إطلاق النار قبل أوانه فأصيب بنيران الساعين إلى قتل عبد الكريم قاسم. وبرغم إصاباته تمكن صدام من عبور نهر دجلة عائما لينجح في مغادرة بغداد ويصبح هاربا مطاردا. واصل صدام دراسته في القاهرة بينما ظل رجلا مطلوبا في العراق، ثم عاد إلى البلاد ليساهم في تأسيس أول نظام بعثي في 1963، ويدعي بعض الخبراء في الشأن العراقي أن وكالة الاستخبارات المركزية ساهمت في تدبير الانقلاب البعثي، ولكني لم أعثر على أدلة تعزز تلك المزاعم.

في أية حال، تم إقصاء الحكومة البعثية الفتية عن السلطة في وقت لاحق من تلك السنة وأمضى صدام سنتين في السجن قبل أن تفرج عنه حكومة عبد السلام عارف الذي ترأس العراق بين عامي 1963 و1966. ثم عاد البعثيون إلى السلطة في 1968 في انقلاب أبيض ليصبح صدام نائبا

لرئيس مجلس قيادة الثورة، أحمد حسن البكر. تسلم صدام ملف الأمن الداخلي، وهي وظيفة كان العديد من العسكريين يعتبرونها ملوّثة لسمعتهم. غير أن صدام وجد فيها وسيلة لتعزيز قوته في الحكومة، والأهم من ذلك، لسحق منافسيه.

كانت تحليلات وكالة الاستخبارات تنصب لسنوات عديدة على أجهزة صدام الأمنية وحلقات معاونيه الذين كان يستخدمهم لحمايته. كان صدام يستخدم منظومة أمنية كبيرة (مكونة من 4500 فرد) وكان أعلاهم مرتبة هم (المرافقون) المسيطرون على مجمل العمليات الأمنية. كان معظمهم من تكريت وكان العديد منهم من أقرباء صدام. كانوا، بالإضافة إلى سكرتير الرئاسة عبد حامد محمود التكريتي، الوحيدين الذين يعرفون مكان وجود الدكتاتور المنزوي على مدار الساعة.

كانت الحلقة الثانية مكونة من (الحماية) المسؤولة عن اصطحاب صدام في زياراته العامة. كانت الحلقتان الثالثة والرابعة تعرفان باسمي الحماية الخاصة والحرس الخاص يوفران تأمين المحيط وكان معظم أفرادهما من صغار الضباط، وكانت غالبيتهم تُختار من أفراد جهاز الأمن الخاص والحرس الجمهوري الخاص.

كان المرشحون لحماية صدام يتم اختيارهم بعناية من العائلات ذات النفوذ في محافظة صلاح الدين التي تضم مدينة تكريت. كانت غالبية هؤلاء تُختار من عائلات بارزة تسكن تكريت وقرية العوجة المجاورة ممن تنتمي إلى عشيرة البيجات السنية ولها صلات قرابة مباشرة بصدام. كي تصبح حارسا شخصيا لصدام كان عليك أولا أن تترشح من قبل أحد أفراد العشيرة. وكان على المرشح أن يتمتع بسجل قضائي لا شائبة فيه

وأن يخضع إلى تدقيق مشدد في خلفياته وغربلة أمنية يقوم بها جهاز الأمن الخاص، وكان عليهم أن ينتموا إلى عائلات تدين بالولاء الموثق لصدام.

كان صدام يشجع التكريتيين على الزواج من التكريتيات وكان يمنعهم من السفر إلى الخارج ليحول دون اختطافهم أو تجنيدهم من قبل أجهزة الاستخبارات الأجنبية. كانوا يتلقون مكافآت سخية وسلعا استهلاكية لم يعرفها العراقيون إلا في أحلامهم. كان صدام خلال عهد رئاسته يقتصر في تواصله الشخصي على مجموعة صغيرة من المعاونين المتمتعين بثقته وكان يبتعد عن الأنظار العامة. كان يمارس عمله في مواقع آمنة ويحرص على التحقق من زواره. حين قام محللو الوكالة بدراسة صدام إبان توليه السلطة كنا دائما نراقب المقربين منه لنرى إن كان أحدهم قد يقود انقلابا على رجل العراق القوي، وكنا نتوصل في أغلب الأحيان إلى أن ما من أحد من مرافقيه سيعض اليد التي تطعمه بكل ذلك السخاء.

قبل توجهي إلى العراق ذهبت إلى كاليفورنيا لألتقي عائلتي، إذ كنت مشتاقا إلى رؤية والدتي التي كان قد تم تشخيص إصابتها بسرطان الثدي في أواخر عقد التسعينيات، وكانت تقترب من نهاية صراعها مع ذلك المرض. كنت أتمنى لها أن تتمكن من التمسك بالحياة إلى حين عودتي المقررة من العراق في شباط 2004. كانت حالتها الصحية جيدة يوم وصولي إلى كاليفورنيا، فتناولنا طعام الغداء معا. إلا أنها تعرضت بعد يوم أو يومين إلى آلام شديدة فأعطاها الأطباء بعض المسكنات وهو التدبير الوحيد الذي كان متاحا لهم. مرت فترة

أسبوعين عصيبة كانت خلالها تبدو مدركة بأنه لم يبقَ لديها الكثير من الوقت، فقالت لي إنها لو أصيبت بأي سوء عليّ أن أبقى في مكاني كي أكمل مهمتي. ثم أثناء استعدادي للعودة إلى واشنطن تحسنت أحوالها وبدت في وضع أفضل، إلا أنها توفيت في أواخر تشرين الثاني بينما كنت في العراق. لم تكن هناك وسيلة تمكنني من العودة إلى الولايات المتحدة قبل فوات الأوان، وسيظل إخفاقي في العودة إلى البيت قبل رحيلها يراودني إلى الأبد.

كما كنت مستاء من ترك باربارا، صديقتي الحميمة حينذاك التي أصبحت الآن زوجتي. كانت تتحمل فترات غيابي المتكررة عبر السنين ولم تبدُ منزعجة، إذ كانت تتفهم أنها من صميم عملي. ولكنني كنت في هذه المرة سأتوجه إلى ساحة حرب قد يحدث فيها أي شيء. أما أنا فكنت أفترض بأن كل شيء سيسير على ما يرام. في صيف 2001 كانت قد شُخصت إصابتها بمرض يؤثر في الجملة العصبية لا علاج له، إلا أنها لم تتذمر وكانت دائمة التفاؤل بشفائها. برغم ذلك كان من الصعب علي أن أودعها.

وصلت إلى بغداد في تشرين الأول وكنت مذهولا لكوني أصبحت أخيرا في العراق. في المطار استمعت مجموعتي من المحللين الجدد إلى نبذة مختصرة عن البلاد وعن طبيعة أعمالنا، قبل أن نستقل حافلات صغيرة كانت ستنقلنا إلى المنطقة الخضراء التي تضم القصر الجمهوري. سرعان ما التقيت شان الذي كان قد عمل لدى وكالة استخبارات الدفاع قبل أن نعمل كزملاء لدى وكالة الاستخبارات المركزية. عرفني إلى الزملاء ثم باشرنا عملنا. أطلعني شان على المرحلة التي بلغناها في البحث عن صدام

وزودني بقائمة من المصادر المهمة من التقارير الواردة التي كان عليّ أن أطلع عليها.

قمنا في يومي الثاني أو الثالث بالتوجه إلى القصر الجمهوري الذي كان مخصصا آنذاك لسلطة التحالف المؤقتة لنتناول طعام العشاء، فاقترح عليّ شان أن أسلم على جين، النائبة السابقة لمدير مكتب الشأن العراقي الذي تركته في 2001 حين لم تكن علاقتي بها جيدة. ولكني وجدت حين سلمت عليها في القصر أن خلافاتنا كانت قد تراجعت، الأمر الذي أراحني جدا. ثم شاءت الأقدار أن تصبح جين أحد أهم المساندين لي وكان العمل تحت إدارتها رائعا. كانت تتبنى المبدأ القائل: إذا كنت تريد أن تفهم العراق فسيترتب عليك أن تنغمس في البلاد بقدر الإمكان. وكان من حسن حظي أن تكون هي مديرتي.

قمت أيضا بتجديد معرفتي بعدد من زملائي السابقين في لانغلي، ومن بينهم صديقتي آمي التي كانت على الدوام مصدر إلهام لي. كانت فتاة ريفية من ولاية ألاباما تجيد اللغة العربية كما لو كانت من السكان المحليين. كما كانت تدرك أن تفهم العراق يتطلب دراسة تاريخه وثقافاته وسياساته ولغته، فكانت تدرسها جميعها.

كان الوقت يتخذ منحى غريبا في العراق. من الصعب أن أفسر ذلك، ولكنني كنت أحس بأن اليوم سيكون مطابقا ليوم أمس، وأن الغد سيكون مشابها تماما لهذا اليوم، وكانت هذه الظاهرة توتر الأعصاب وتقوض الطاقة. فكنت، بهدف التغلب على الرتابة، أذهب يوميا إلى قاعة الرياضة كما كنت أتوجه ماشيا إلى القصر الجمهوري حيث كان صدام

يستقبل كبار الشخصيات الأجانب. كان تغيير المشهد يفيدني، وإن كان لفترة وجيزة.

كان الوضع الأمني مستمرا في التدهور منذ أشهر، وكانت ترد يوميا تقارير عن اعتداءات على المدنيين والعسكريين. قبل وصولي كان آية الله محمد باقر الحكيم قد اغتيل في شهر آب، الأمر الذي ترك تأثيرا عميقا في نفسي. كان رجل الدين الشيعي قد عاد من منفاه في إيران قبل ذلك ببضعة أشهر، وكنت قد كتبت دراسة عنه للوكالة. كان قائدا يجتذب احترام الناس ومحبتهم وأسس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق في عقد الثمانينيات، وكان قد تتلمذ على محمد باقر الصدر الذي أعدمه صدام في 1980 (كما كان والد زوجة مقتدى الصدر). وكان التفجير الذي أودى بحياة الحكيم قد راح ضحيته ما لا يقل عن أربعة وثمانين شخصا، بمن فيهم خمسة عشر من حراسه الشخصيين. كان التفجير قد نسب إلى الزرقاوي، وبعد نحو أسبوعين قام أحد الانتحاريين من أتباع الزرقاوي بتفجير نفسه عند مقر الأمم المتحدة بفندق القناة في بغداد حيث سقط اثنان وعشرون قتيلا. لم تكن الحرب قد انتهت بل كانت تزداد سخونة.

بعد توجهي إلى اجتماع خلية الاندماج في الصباح، كنت أبقى خلف مكتبي حتى الساعة الثانية أو الثالثة ليلا طوال أيام الأسبوع. كنا نسكن في مقطورات سكنية وكثيرا ما كان أربعة أو خمسة منا ننحشر في مقطورة واحدة. كان الطعام شحيحا أحيانا كما كانت الطاقة الكهربائية تنقطع باستمرار، فلم يبقَ أمامي غير العمل. كانت تكسر بين حين وآخر هجمات بمدافع الهاون النمط الروتيني بشكل مخيف. وكان كل ذلك قبل

أن يظهر بائعو الوجبات السريعة وقبل أن تحصل جميع التنظيمات على حانات خاصة بها لتستضيف المحتفلين بقدوم ليلة الخميس. كنت أعيش على المشروبات الغازية والشطائر الصغيرة وما كان يتوفر في قاعة الطعام في الغالب غير الرز والبطاطس. عند توعكك لم يكن أمامك غير التوجه إلى مقطورتك، الأمر الذي يصيب المرء بالاكتئاب. فكان من الأفضل أن أتدبر أمري بالنشويات وأن أحافظ على صحتي إلى حين موعد عودتي إلى الديار.

التحدي الذي كنا نواجهه لم يتمثل بالمعلومات الشحيحة بل بكثرتها. كنا غارقين في بحر من التقارير المفصلة التي كان علينا أن ندقق فيها برغم معرفتنا بأن احتمال كونها مفيدة كان قريبا من الصفر. كانت المصادر تفيد بأن صداما موجود في البصرة، أو أنه قد فر إلى سورية (حيث زُعم بأنه كان قد أرسل أسلحته للدمار الشامل، أو أنه كان يرتدي ملابس نسائية وهو مختبئ في محطة للحافلات في بغداد. وكثيرا ما كنا نستقبل ضباطا يزودوننا بتفاصيل مغايرة لما كنا نعرفه عن صدام. في أحد الأيام قال لنا أحد مسؤولي سلطة التحالف إن أحد مترجميهم كان قد اتصل بطبيب صدام. كنا بالطبع نتطلع إلى معرفة المزيد فجمعنا مستلزماتنا وتوجهنا إلى القصر الجمهوري وباشرنا البحث عن المترجم. بعد بضع ساعات وعند تمكننا من رصده ظهرت على وجهه معالم الخوف نتيجة ظنه بأننا كنا سنقبض عليه. قلنا له إننا بُلغنا أنه ربما كان لديه معلومات عن أحد أطباء صدام، فضحك قائلا إنه حضر أحد الاجتماعات وذكر إننا ربما سنتمكن من تتبع أثر صدام لو عثرنا على مصدر أدويته، ولكن الفكرة لم يتحقق من خلالها أي

شيء. كانت مثل هذه الأمور تتكرر يوميا فكانت عائقا يضيع وقتنا ويستنزف طاقاتنا.

في تشرين الثاني 2003 التقينا عددا من حراس صدام السابقين فقمنا معهم بجولة في بغداد ليحددوا لنا البيوت الآمنة التي كان صدام يمضي بعض لياليه فيها. كما أطلعونا على المكان الذي بلغته فرقة المشاة الرابعة التي أوقفت تقدمها وهي على بعد شارع واحد عن مخبأ صدام.

ربما كان أكثر سؤال محيّر - بعد مسألة مكان اختباء صدام - هو إن كان لصدام صلة بالتمرد المتنامي. كانت هذه القضية في حينها مدعاة للجدل الساخن بين مختلف مصادر أجهزة الاستخبارات العسكرية في العراق، فكانت غالبية العسكريين وبعض مصادر الوكالة يعتقدون أنه في حال القبض على صدام فسوف يتم بذلك بتر رأس التمرد. كان محللو الوكالة يقللون من شأن هذه النظرية، لكوننا لم نعثر على أي شيء يدل على ارتباط صدام بالتمرد. بل على العكس، إذ كان الزرقاوي هو الذي يؤجج معظم تلك الفوضى وكان يتمتع بتعاطف العديد من السنة الغاضبين من برنامج اجتثاث البعث الذي كانت تنفذه سلطة التحالف، وهو البرنامج القاضي بفصل الحزبيين من القوات المسلحة والحكومة.

أمضيت وقتا طويلا في تفنيد ادعاءات بعض المصادر من أنها على اتصال بصدام وبأنه كان يوجه المتمردين. وبعد وصولي إلى بغداد بفترة قصيرة ادّعى أحد المصادر بأنه قد كشف عن مؤامرة كان صدام قد أمر بتنفيذها وتقتضي باغتيال ابنتي الرئيس بوش، جينا وباربارا، للانتقام من مقتل ولديه في تموز 2003. ما من شيء يدعو إلى السخرية أكثر

من ذلك، فكان صدام مختبئا و لم تكن لديه أي وسيلة لتنفيذ مقتل امرأتين في الولايات المتحدة. أبلغنا واشنطن بأن التقرير لا يمكن الاعتماد على مصدره، وبالتالي لا يمكن تصديقه. برغم ذلك تم نشر التقرير وتوزيعه لتندلع بذلك عاصفة نارية. أما نحن فلقد أمضينا أسابيع عديدة كي نحسم مصداقيته أو تفنيده. كان ضربا من الإشاعات المضحكة في نظر ذوي المعرفة في الشأن العراقي ولكن واشنطن صدقته، ربما لكونه كان ينسجم مع صورة صدام الكاريكاتيرية. لم نعثر على أي شيء يؤيد لا من قريب ولا من بعيد فكرة الاعتداء على ابني بوش.

عملت مع أحد المحققين، ويدعى ديف بي، كان لديه فهم حقيقي للنظام ويجيد اللغة العربية و كان قد تعرف إلى أحد مسؤولي النظام السابقين، ويدعى محمد، كنا نعتقد أنه قادر على مساعدتنا في العثور على صدام. التقينا محمدا مرات عدة خلال الفترة السابقة لتلك الليلة الحاسمة، أي ليلة 13 كانون الأول. قال محمد إن صداما كان مختبئا بالقرب من تكريت وكان يريد مبلغا من المال وسيارة مقابل مساعدتنا ثم قال إنه سيعاود الاتصال بنا. أهم ما قاله كان ما لم ينتبه إليه أحد، وهو أن الناس قد سئموا من إيواء صدام وإخفائه وكانوا يتطلعون إلى متابعة حياتهم. ما زلت مقتنعا إلى يومنا هذا بأن محمدا، لو أتيحت له مهلة قصيرة لقادنا إلى صدام. في غضون ذلك كانت قد تبلورت أدلة مهمة للكشف عن مخبأ صدام.

كان سائق صدام، سمير، قد تم القبض عليه وكان مسجونا لدى وصولي إلى العراق. قمت أنا وشان باستجوابه في أوائل تشرين الثاني بحثا

عما يدلنا إلى مكان اختباء صدام. قال سمير إنه ترك صداما بعد فرار الدكتاتور من بغداد بفترة قصيرة فانقطعت بالتالي أخباره. كان سمير شابا نحيفا و لم يوحِ بأنه أحد حراس صدام الشخصيين، ولكنه كان يتمتع بثقة صدام العالية و كان من أفراد الحماية المفضلين. رأيته للمرة الأولى عبر تلفزيون سي أن أن بعد سقوط النظام مباشرة، حين كان صدام يتجول في شوارع بغداد وهو يودع الناس من على سقف سيارة. و كان سمير هو الذي يقود السيارة.

خلال حوارنا مع سمير علمنا الكثير عن الأيام الأولى من فترة فراره، ففي إحدى الليالي الأولى التالية لخروجه من بغداد توقف سمير أمام أحد البيوت حيث أمره صدام بالاستفسار من أصحاب الدار إن كانوا سيسمحون له ولضيوفه بقضاء الليلة لديهم. غير أن المرأة المسنة التي فتحت الباب رفضت ذلك فأوضح لها سمير بأن الرئيس ما كان يبحث عن غير مكان للمبيت. لكن المرأة وبخت سمير لكونهم قدموا في ساعة لم تكن مناسبة لاستقبال الضيوف. فكان تمسك المرأة بالأصول قد أضحك صداما.

ثم توجه صدام إلى الرمادي بصحبة نجليه، عدي وقصي، وسكرتير الرئاسة عبد حامد محمود التكريتي. مضى بهم سمير إلى مجمع إحدى العائلات السنية البارزة والصديقة، فاحتمت لديهم المجموعة لبضعة أيام. غير أن صدام قرر الرحيل بعد أن سقط صاروخ كروز على مقربة من المبنى الذي كان يقيم فيه.

مضت المجموعة في اتجاه الشمال نحو تكريت، وبعد يوم أو يومين قرر صدام أن من الأفضل أن تتفرق المجموعة، فتوجه عدي وقصي وعبد نحو

الحدود مع سورية حيث كانوا سيطلبون اللجوء. كان ذلك ملفتا لأجهزة الاستخبارات التي كانت تعتقد أن عدي وقصي كانا يتبادلان الكراهية، إذ كان عدي، الذي كان يُعتقد أنه كان يحسد أخاه على ترقيته ولكونه ولي العهد المفترض، كما كان يظن أن قصيا كان يتجسس عليه ويشير به لصدام. بحلول عام 2003 كان عدي معاقا إثر إصابته في محاولة اغتيال فاشلة استهدفته في 1996، كما كان يعاني من الإدمان على العقاقير. كان في وسع قصي أن يترك أخاه كي ينجو بحياته وحياة ابنه مصطفى. إلا أن قصيا ظل ملازما لأخيه قبل أن يقتلا برصاص القوات الأميركية في دار أحد شيوخ الموصل. جاء قرار صدام بتفريق مجموعته تطورا مثيرا في رحلة فراره من بغداد، وأعطتنا فكرة مبكرة عن سلوكه المتوقع. فبدلا من المحافظة على التعاضد العائلي قرر صدام بأن يأتمن سكرتيره عبد على رعاية ولديه، وكان قد تم القبض على عبد وهو في طريقه ليخبر عديا بأن دمشق كانت ستسمح له بالمكوث في سورية لفترة قصيرة. بعد أسابيع عدة تم جلب عبد إلى المشرحة ليتعرف إلى جثماني عدي وقصي، وحين رأى جثمان نجل قصي المراهق بين القتلى تغلبت عليه عواطفه وتساءل مرارا عن سبب قتل الصبي.

كانت طبيعة الفرار تحير المحللين، إذ كانت تتسم بالعشوائية وبالافتقار إلى أي تخطيط مسبق. لم تكن هناك ممرات سرية تحت الأرض، ولا أية مطارات خاصة ولا طائرات مهيأة لنقل الزعيم العراقي إلى جهة آمنة، كما لو أن صداما كان مقتنعا بأن عدم وجود خطة سيحرم أعداءه من رصد مكانه، ولن يتمكن أصدقاؤه من الوشاية به. غير أن صداما رفض التعليق على الموضوع.

كانت وكالة الاستخبارات العسكرية تؤكد وجود متاهة من الأنفاق التي كانت تستخدمها نخبة النظام، مستندة بذلك إلى صور ملتقطة بالأقمار الاصطناعية. بينما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تؤكد عدم وجود أية ممرات تحت الأرض مصممة لتسهيل فرار قيادات النظام من العاصمة.

أخبرنا سمير بأنه كان قد ترك صداما بالقرب من تكريت ووعده بالعودة إليه. وقال إن صداما يحب المسطحات المائية، من أنهر وجداول وبحيرات. وكانت وجبة طعامه المفضلة هي السمك المسكوف، أي السمك المشوي أمام نار مكشوفة بالطريقة العراقية التقليدية. كما وصف لنا مدى قوة صدام وطاقته غير المحدودة حتى بعد إصابة جميع الآخرين بالإرهاق. كما قال لنا سمير إنه قد أطلعنا على كل شيء، وإنه لا يريد غير رؤية زوجته وأطفاله.

أما الواقع فهو أن سميرا كان يعرف تماما مكان وجود صدام. في المزرعة بتكريت التي فر إليها صدام كان يقيم حارسها وزوجته وشاب آخر كان – كما تبين لنا لاحقا – أفضل أصدقاء سمير. كان سمير يكذب علينا وما من شيء كان سيجعله يكشف عما كنا نريده من معلومات، ولا حتى الجائزة البالغة خمسة وعشرين مليون دولار، ولا الوعود بأن مساعدته لنا كانت ستكسبه عين الرضا. لم تنجح أي من هذه المغريات، فكان سمير يحب صداما ويخشاه، كما كان قلقا مما قد يصيبه ويصيب عائلته لو علِم صدام – الذي كان لم يزل حرا – بأنه قد بلّغ عن مكان اختبائه. خضع سمير إلى اختبار كشف الكذب واجتازه بنجاح كامل بحسب جيم الذي أجرى الاختبار. كثيرا ما كنت في داخلي أتساءل إن

كان قد أجرى الاختبار فعلا أم كان يدّعي بأنه قد فعل. كانت عناصر الإسناد عملة نادرة، فكنا نحن الباحثين عن صدام نجابه زملاء باحثين عن معلومات حول التمرد المتنامي ممن كانوا يبحثون عن العناصر ذاتها. لم تكن قضيتا البحث عن صدام ومحاربة التمرد مرادفتين، وهو وضع كان يحتم على المحللين والمحققين أن يقرروا أيهما هي الأهم لتحقيق غايات الأمن القومي الأميركي. وكثيرا ما كان البحث عن معلومات تخص التمرد هي المفضلة. كما كان البعض لا يمانعون في اللجوء إلى الكذب.

كان سمير مقنعا حول عدم معرفته بمكان وجود صدام، ولكني لم أتخلص من الإحساس بأنه كان يخفي بعض المعلومات. لقد وجدت في العراق مرارا بأن أي شخص عازم على عدم اطلاعك على الحقيقة سيكون من الصعب عليك أن تنتزعها منه. عليك أن تتبنى استراتيجيات للحصول على المعلومات، ما يتطلب موارد وأفرادا؛ سائقين وحراس أمن ومترجمين وخبراء كشف الكذب. أما أنا ففخور بأنني لم أتورط بأي من أساليب القسر التي كانت تقرها الوكالة، إذ لم أجد ما يدل على نجاح تلك الأساليب.

حين سألت صداما في وقت لاحق عن سبب امتناعه عن الإجابة على أسئلتنا حول ما حصل عليه من مساعدة بعد فراره من بغداد، أصر بأنه لم يفر. وقال إنه لم يقم بغير الانتقال إلى موقع آخر ليتمكن من الاستمرار في معارضة احتلال بلاده. وحين سألته عن رفضه التحدث عن الأشخاص الذين ساعدوه، أجابني مندهشا: هؤلاء هم أصدقائي، فما الذي يجعلني أخبركم وأعرض سلامتهم إلى الخطر؟ ثم من الممكن أن أحتاج مساعدتهم ثانية في يوم من الأيام.

أدهشتني قناعته بأنه سيجد وسيلة للخلاص من محنتـــه. صـــحيح أنه كان مهووسا ولكنه كان أيضا شديد الولاء لمن كان يكـــن لـــه الولاء.

4

على الطاير

كان استجواب صدام حسين بمثابة تحدٍّ خصوصا لأول فريق تولاه. وكان بطبيعة الحال لا يسره وضعه فكان دائما يحاول أن ينتزع منا السيطرة على مجرى الاستجواب. ولكن بعد مضي بضعة أسابيع كنا قد أقمنا مقدارا من التفاهم مع صدام وبدأ هو بتقبل وضع محيطه واحتجازه. فكنا بذلك قد مهدنا الطريق أمام فرق الاستجواب الآتية لاحقا. كان صدام قادرا على الصراحة الملفتة حينما كان ذلك يتلاءم مع غاياته. فحين لم يكن لديه ما يخفيه كان يتحدث بلا حرج. لقد زودنا بلمحات داخلية مشوقة عن حزب البعث، علي سبيل المثال. ولكننا كنا نقضي معظم وقتنا في تفتيت دفاعاته الرامية إلى عرقلتنا أو خداعنا، خصوصا حين يتعلق الأمر بتاريخ حياته وانتهاكات حقوق الإنسان وأسلحة الدمار الشامل، وما شابه ذلك.

كان صدام صلبا وحاد الذكاء ومناورا. كما كان حاد التقييم لمستجوبيه، ويبحث دائما عن نقاط ضعف قد تصب في صالحه. كان مهووسا بالسيطرة، ليس فقط في جلسات الاستجواب، بل في شأن حراسه ووجبات طعامه وفحوصاته الطبية وأوضاع احتجازه. ولكونه

كان يقاوم أية محاولة واضحة لإخضاعه أو لتحدي شعوره بالسيطرة، كنا نراعي كبرياءه بطرح بعض الأسئلة بأسلوب مراوغ.

كان صدام في أغلب الأحيان منتبها وقادرا على مناقشة جملة واسعة من المواضيع. وكان من الصعب أحيانا أن نسكته. كان يحب التحدث، خصوصا عن نفسه. ولكن حين كنا نجابهه بمسؤوليته عن مآسي العراق كان ينزعج ويوجه إلينا نظرات غضب. أما حول القضايا التي لا تجعله يدين نفسه وتلك التي لا تجعله يتحمل مسؤولية شخصية عنها فكانت ذاكرته حادة للغاية. كنت أحيانا أطرح عليه سؤالا غامضا أو أريه صورة ملتقطة قبل ربع قرن، فكانت إجاباته دقيقة ومفصلة. وبعكس غالبية السجناء، لم يبدُ منزعجا من احتجازه بحد ذاته وربما يعود ذلك إلى السنتين اللتين أمضاهما في السجن - بين 1964 و1966 - أو ربما لكون حياته كرئيس للعراق كانت محاطة بضوابط جعلته يعتبرها بمثابة سجن. لم تكن يبدو عليه ما يشير إلى التوتر أو الإرباك أو الاضطهاد أو الهوس. بل كان أحيانا يظهر روحا خجولة ومرحة. كان في أكثر الأحيان يترك لسائله تفسير إجابته بدلا من توضيحها بنفسه. **ولم يكن ضليعا في النهج العالمي وكانت تصريحاته وأسلوبه العام يعكسان خلفيته الفقيرة الريفية القبلية التكريتية.**

ولكن نقاط ضعفه المزعومة كانت مصدر تفهمه الغريزي للمجتمع العراقي وما يتطلبه من آليات السلطة للسيطرة عليه.

كان التقييم النفسي الأول لصدام قد أشار إلى كونه كذابا مزمنا. ولكن لم يكن كل ما قاله صدام كذبا - بل بالعكس تماما - فأنا أعتقد أن الذي قام بالتقييم كان مخطئا. كان كل من تعامل مع الدكتاتور

العراقي تقريبا لديه توجّه مسبق للاستخفاف بكل ما يقوله، إلا في حال اعترافه بمعجزة بامتلاك أسلحة دمار شامل أو بإصدار أوامر الإبادة الجماعية. كان صدام صريحا حين كان يختار ذلك، ولكن انطباعاتنا المسبقة عنه كانت تتغلب علينا أحيانا. كنا في بعض الحالات نركز بشدة على قضية ما لا نعتبر أنفسنا أننا حققنا ما نريد في شأنها، ولكن الحقيقة كانت بعكس ذلك. سألناه ذات مرة عن علاقاته مع قادة الدول المجاورة، فباشر صدام بطرح آرائه غير المنمقة - معظمها سلبية - عن العاهل الأردني الملك عبد الله والرئيس السوري بشار الأسد. ثم في اليوم التالي، ولدى استئنافنا الحديث، قال صدام: أعتقد أنني أكثرت الكلام بالأمس، واليوم لن أقول أي شيء. كنت أتأمل أحيانا إن كان صدام يدرك إمكانياته بإخفاء الأمور، أم إنه كان يستغل متعمدا الانطباع الغربي عنه بأنه يجسد الشيطان.

حين صرح دونالد رامسفيلد عبر شبكة سي أن أن بعد القبض على صدام ببضعة أيام بأن وكالة الاستخبارات المركزية ستكون الأولى في استجواب صدام، تسبب ذلك برجفة في صفوفنا. فكان مكان وجود صدام محاطا بالسرية، ولكن تخصيص وكالتنا كاد أن يكشف اللعبة. كنا قلقين من أن انتقالنا اليومي من وإلى المطار قد يجعل الأعين المراقبة تفترض بأن شيئا مهما كان يتم بجوار المطار. كان صدام محتجزا في وحدة الاستجواب الميداني، أي مقر الحرس الجمهوري الخاص السابق قرب المطار وأصبح معتقلا للأسرى المقبوض عليهم في ميدان القتال. في الوقت الذي ربما لم يكن ذلك سيقلق رامسفيلد، إلا أنه كان مصدر قلق كبير لنا وللأدميرال وليم ماكريفن، المسؤول عن العناية بصدام وعن أوضاعة

الصحية العامة. ما كان صدام سيتمكن أبدا من الهروب، ولكن الحفاظ على سلامته لم يكن أمرا مؤكدا، إذ كانت زنزانته قريبة من أحد الطرق الرئيسية وضمن مدى القذائف الصاروخية ومدافع الهاون.

بينما كنا نستعد لاستجواب صدام اتخذت الوكالة قرارا بإشراك خبير بكشف الكذب في جلسات الاستجواب، كان اسمه بروس، إلى جانبي وأحد مترجمي الجيش، النقيب أحمد وهو من أصل فلسطيني. فلقد ارتأت الوكالة أن أسلوب تحاوره المنمق سيؤدي إلى تجاوب صدام. كان بروس لا يعرف شيئا عن العراق فكان يطلب مني أن أقترح مواضيع ليتناقش مع صدام في شأنها. قلت له إن مواضيع الحديث كثيرة ولكن عدم حصولنا على معلومات دقيقة حول سيرة صدام كان سيقوض ثمار الجلسات.

حين شرحت ذلك لبروس خطر لي بأن حكومتنا لم تكن مستعدة أبدا لاحتمال القبض على صدام حيا، فكانت قناعة المسؤولين الحكوميين تشير إلى أن صداما كان سيفضل الانتحار على الأسر، أو أن يقتل أثناء محاولته الإفلات والهروب. أما القبض على صدام حيا فلقد ترك الجميع حائرين إزاء كيفية التعامل مع الوضع.

خلال الأسبوع الأول التالي لأسر صدام كنا ننتظر توجيهات صانعي السياسة الحائرين حول كيفية تعاملنا مع المحتجز الجديد، فهدرنا بذلك وقتا ثمينا في سعينا إلى الحصول على معلومات من الدكتاتور السابق. كل من لديه خبرة في استجواب السجناء سيخبرك بأن الساعات الأولى – بين 24 و48 ساعة – هي الفترة المهمة الحاسمة، حين تكون صدمة الوقوع في الأسر في أوجها، وحين يكون الأسير مصدوما بمحيطه غير المألوف ستجعله يكشف عن معلومات ثمينة. أما بعد زوال حالة الصدمة فيتحول

السجين إلى تقبل محيطه ويستعيد ثقته بنفسه، لتتزايد بذلك صعوبة مهمة المستجوب.

جلست في إحدى الأمسيات مع بروس لنتحدث عن العمل الذي كنت أقوم به باعتباري المحلل المكلف بالمساعدة في تتبع أثر صدام. كان أحدنا يواسي الآخر حول طبيعة ما كنا مقبلين عليه. كانت الوكالة قد أبلغتنا بالاستعداد لاستجواب أحد أشهر الدكتاتوريين في القرن العشرين، ولكننا لم نعرف مقدار الوقت المتاح لنا ولا موعد المباشرة بالاستجواب أو موعد انتهائه.

ذكرت لبروس أن ضابط الاستخبارات كيم فيلبي، حين انشق عن بريطانيا ولجأ إلى الاتحاد السوفيتي في 1963، ظلت الاستخبارات السوفيتية تستجوبه لمدة سنتين. وحين قام الموساد الإسرائيلي باختطاف مجرم الحرب النازي آدولف آيخمان في 1960 ونقلوه لمحاكمته في القدس، تمخضت عملية استجوابه عن وثائق مثبتة في 3500 صفحة بالإضافة إلى مذكرات آيخمان الشخصية المدونة في 127 صفحة. (كنت راغبا في طلب الشيء ذاته من صدام ولكن حراسه من أفراد الجيش رفضوا تزويده بمستلزمات الكتابة خشية قيامه باستخدامها لإيذاء نفسه).

تبادلت الحديث مع بروس لمدة ثلاث ساعات عن صدام وتاريخ حكمه وسيرته الذاتية وما كان يحفزه ومبادرتنا الكفيلة بجعله يتكلم. كنت قد علمت من الطريقة التي تصرف بها صدام ليلة التحقق من هويته، بأنه سيسعى إلى زرع الفتنة بين صفوفنا. والذي زاد من صعوبة مهمتنا بدرجة كبيرة جدا أننا ما كنا نمتلك لا عصا ولا جزرة لتساعدانا على جعله يتكلم. في بادئ الأمر كان رئيس فريقنا يريد تبني التوجه العدائي المتمثل

في تعريته وسكب الماء البارد عليه وهو أسلوب كان قد نجح نوعا ما مع السجناء في أفغانستان. كانت هذه فكرة سيئة. اعتبرتها مهينة لصدام وكانت ستزيد من عزيمته على عدم قول أي شيء مفيد. ولحسن الحظ أصدر الطابق السابع في لانغلي قرارا بمنعها. كان صدام، بعد فترة وجيزة من أسره، قد مُنح وضع أسير حرب، ما جعله محميا بموجب اتفاقات جنيف حول أسرى الحروب. كما وردنا من مقر قيادتنا أن الولايات المتحدة تريد معاملته بما يتخطى تلك الاتفاقات، ما كان يعني منع استخدام أي إجراء قسري خلال فترة استجوابه. وكانت الوكالة في الحقيقة لم تكن مرتاحة إزاء اعتباره استجوابا، ففضلت وصفه بعبارة مساءلة.

كان ما تلقيناه من لانغلي من توجيهات كاد لا يزيد عن إعلامنا بأن مكتب التحقيقات الفدرالي كان سيصل في يوم غير بعيد، فكان علينا أن نحصل على كل ما في وسعنا الحصول عليه من معلومات قبل تسليم عملية الاستجواب إلى أفراد المكتب. كان مقر قيادتنا قد زودنا بقائمة من الأسئلة لطرحها على الدكتاتور العراقي، كانت معظمها لا تتميز بأهميتها الآنية. كان الطابق السابع مهتما بالدرجة الأولى بالمكان الذي أخفى فيه صدام أسلحته للدمار الشامل، ليصبح الموضوع مصدر جدل حاد بيننا وبين صدام.

كان الموضوع الوحيد المحجوب هو موضوع الإرهاب، إذ كان مخصصا لمكتب التحقيقات الفدرالي الذي كان سيسعى إلى تكوين قضية جنائية بحق صدام تستند إلى ارتباطاته المزعومة بالإرهاب الدولي وإلى الجرائم المرتكبة ضد الولايات المتحدة. أما مكان إقامة الدعوى فكان

خاضعا للتخمين، وكانت المشاكل تحيط بالجهات الثلاث الممكنة. كان ممكنا أن تتم محاكمة صدام في محكمة الجنايات الدولية ولكن ذلك لم يكن محتملا لكون إدارة بوش لم تعترف بسلطتها القضائية. وكان ممكنا أن تتم محاكمته في محكمة عراقية، ولكنها لم تكن موجودة بعد، كما كانت القوانين النافذة الوحيدة في العراق قد شرّعت من قبل حزب صدام البعثي. أو كان من الممكن محاكمته في الولايات المتحدة وهو الخيار الذي رفضته واشنطن في نهاية المطاف. مهما يكن مكان المحاكمة، كانت هيئة الادعاء ستستخدم المعلومات المستقاة من الاستجواب كأدلة ضد صدام، وكانت الحكومة الأميركية تسعى إلى التأكد من أن أشخاصا من ذوي الإلمام بالعملية القانونية، أي مكتب التحقيقات الفدرالي، سيجمعون الأدلة الكفيلة بإقناع المحكمة.

بعد مباشرتنا التحقيق مع صدام ببضعة أيام أرسلت وكالة الاستخبارات أحد محاميها ليطلعنا على القواعد المتعلقة بكيفية التعامل مع صدام. لدى وصوله سألَنا المحامي عن كيفية سير الأمور، فقلت له إننا لم نعقد معه غير جلسة واحدة ولم يذكر خلالها أي شيء مفيد عن شأني انتهاكات حقوق الإنسان وأسلحة الدمار الشامل. فقال المحامي: هذا جيد، فكلما قل حديثه معكم، كان ذلك هو الأفضل. فإن قال شيئا ذا جدوى كان علينا أن نوثقه وسيترتب عليكم الظهور أمام المحكمة.

أصابني الإرباك، إذ كانوا قد أبلغونا أولا بضرورة جعل صدام يسترسل في الحديث، والآن أصبح المطلوب منا هو ضمان عدم تفوهه بأي شيء مفيد. قال محامي الوكالة إن آخر ما كنا نتطلع إليه هو الوقوف

أمام محكمة علنية. فأصبحت توجيهاتنا تتطلب ببساطة مواصلة التحاور مع صدام، آملين بأنه لن يقول ما قد يدينه، إلى حين استعداد مكتب التحقيقات لتولي الموضوع.

في العشرين من كانون الأول، بعد القبض على صدام بأسبوع واحد، توجه فريقنا إلى المطار لنرى المكان الذي سنقوم فيه باستجواب صدام. وصلنا إلى منشأة الحرس الجمهوري الخاص القديمة، القريبة من موقع الاستجواب الميداني. كنت أتأمل بأنهم لو قاموا بتصوير فلم من إنتاج هوليوود لكان الموقع سيظهر كمنشأة حديثة تحت الأرض مزودة بممرات ذاتية الحركة وبإنارة أرضية وأجهزة تسجيل متطورة للغاية. أما الواقع فكان أن الاستجواب تم في غرفة خالية مزودة بكراسٍ بلاستيكية في مبنى حراسة معتم، وكانت القوات المسلحة قد أتت بلاقطة أصوات وبكاميرا بالغة الصغر اجتذبت العديد من الفضوليين الراغبين بإلقاء نظرة على مجرى الحدث. بعد اطلاعنا على المكان طلب قائد فريقنا، تشارلي، هاتفي المحمول لكونه كان يريد الاتصال برئيس مكتب الوكالة في الفيلا. كان تشارلي مسؤولا عن الإشراف على مجمل عملية الاستجواب، إلا أنه لم يشارك في جلسات الاستجواب.

عاد بعد بضع دقائق وأخبرنا أن المقر العام يريد المباشرة بالاستجواب على الفور. لم تكن هناك فرصة للتحضير أو لمراجعة خطتنا أو لتحديد المواضيع التي كنا سنغطيها قبل غيرها. كنا ببساطة سننفذ المهمة (على الطاير). وكلما بكّرنا كان ذلك أفضل إذ كانت الغاية هي إجراء أكبر عدد ممكن من جلسات الاستجواب قبل أن يتم استبدالنا بعناصر مكتب التحقيقات الفدرالي.

قمنا بترتيب أنفسنا في الغرفة وأعددنا أنفسنا لدخول صدام. كان هناك كرسي واحد مخصص للدكتاتور المعزول. ثم انفتح الباب فجأة ودخل صدام وهو مغطّى الرأس فكان يمسك بذراع الجندي الذي كان يقوده. ثم رُفع الغطاء ليتمكن صدام من إلقاء نظره سريعة حول الغرفة. كان شكله لا يختلف عما كان عليه حين رأيته أول مرة ليلة القبض عليه. كان يرتدي سترة مبطنة زرقاء اللون ودشداشة. وكان شعره طويلا وبدا بحاجة إلى الحلاقة. تريث ليمعن النظر في كل منا ثم تقدم وارتسمت على وجهه ابتسامة دافئة. (بعد بضعة أعوام ذهبت لمشاهدة فيلم "آخر ملوك اسكتلندا" عن الدكتاتور الأوغندي عيدي أمين. في أول مشهد من الفيلم أصيب أمين في حادث سيارة فقام بمعالجته طبيب كان مارا بالصدفة. في البداية كان أمين حذرا لدى اقتراب الطبيب الغريب منه. ولكنه سرعان ما أظهر المجاملة والمودة في سعيه لكسب الطبيب، وكانت تلك هي الطريقة التي اتبعها صدام لدى تعرفه إلينا لأول مرة). مهما كانت فظائعه لا يُنكر أنه كان يتمتع بالجاذبية الشعبية. كان رجلا طويلا يبلغ طوله 185 سنتيمترا وكان مملوء البدن. أنا أطول منه بحوالى عشرة سنتيمترات ولكنه لم يتأثر بهذا الفرق. كان حتى وهو سجين، ومن المؤكد أنه سيتم إعدامه، يبث رونقا من الأهمية.

تولى بروس شكليات التعارف، وفاجأني بتعريف نفسه باسم (مستر جاك) وأسماني (مستر ستيف)، وحين سألته سبب ذلك قال لي إنه من أجل حمايتي. ومنذ تلك اللحظة كان صدام يعتبرني المستر ستيف. فسارت الأمور على ما يرام باستثناء اليوم الذي كانت فيه بطاقة هويتي الصادرة

من سلطة التحالف مدلاّة من عنقي فانتبهت إلى أن صداما كان يحاول قراءة تفاصيلها. تمكنت من نزعها ولكن صداما انفجر قائلا: من أنتم؟ ما هي أسماؤكم؟ أريد أن أعرف الآن!

لم نطلعه أبدا على حقيقة هوياتنا واكتفينا بالقول إننا نمثل حكومة الولايات المتحدة، وإننا على يقين من كونه يعرف الجهة التي ننتمي إليها، فتبسم صدام وقال: طيب. لقد فهمت.

كنت أتعثر بكلامي خلال الجلسات الأولى مع صدام، فبعد دراستي للتاريخ طوال كل تلك السنين وجدت نفسي وأنا أساهم فيه. حين تعمل محللا للقيادات في وكالة الاستخبارات المركزية يترتب عليك أن تقوم بعملك عن بعد. كان صدام رجلا عرفته من الصور ومن نبذ عن سيرته ومن البحث في روابطه العائلية ومن أوصاف المنشقين العراقيين ومن التقارير السرية عن نمط قيادته **واستبداده المفرط**. أما الآن فكان جالسا أمامي.

كنا نتطلع في الجلسة الأولى إلى جعل صدام يتكلم، فلم نوجه له أية أسئلة صعبة أو محرجة إذ كنا ما زلنا نجس نبضه. كان علينا أن نكسب ثقته أو تحمله لنا، فلم يكن لدينا ما نعرضه عليه مقابل تعاونه معنا. لم يكن في وسعنا أن نطمئنه بأننا سنتوسط لدى القاضي كي يخفف حكمه. لم تكن لدينا فكرة عن طبيعة مقاضاته أو عن الجهة التي كانت ستقاضيه.

أطلعناه بأننا نريد أن نناقش أحداث عهده معه، وشددنا على مدى اهتمام صانعي السياسة في الولايات المتحدة بما كان سيقوله. عرضت عليه عددا من الكتب التي كانت تحمل صورة صدام على أغلفتها، وقلت له إن

هنالك الكثير من المعلومات عنه في الغرب، من بينها الدقيقة وغير الدقيقة وتلك التي لم نتأكد من صحتها. قلت لصدام إن أمامه الفرصة الحاسمة لتصحيح سجله ولإطلاع العالم على حقيقة شخصيته. استمع صدام إلى كلامي ثم عبر عن موافقته.

كان مترجمنا أحمد عنصرا مفيدا للغاية، فلكونه المتحدث الوحيد باللغة العربية في موقع الاستجواب، كان أحمد يدردش مع صدام حتى قبل مباشرتنا بالاستجواب، وأطلعنا عما كان صدام يفعل خلال الفترة بين ليلة القبض عليه وأولى جلسات الاستجواب. أخبرنا بأن صداما كان قد تكيف بسرعة مع محيطه وبدا متواضعا نسبيا. كما طلب ذات مرة إبرة وخيطا ليتمكن من إصلاح ملابسه.

بعد أسره بيوم أو يومين قال أحمد إن صداما سأله: لماذا لا يأتي أحد للتحدث معي؟

كانت تلك أخبارا مشجعة إذ لم نكن نعرف إلى ذلك الحين إن كان صدام مستعدا للتحدث معنا، وبصراحة لم نكن نعرف ما علينا أن نتوقعه. كان ليلة القبض عليه قد أظهر شيئا من العدوانية فكان علينا أن نجهز أنفسنا لأي شيء. ثم بعد بدء جلسات الاستجواب كان أحمد يبقى مع صدام لدى مجيء الأطباء لإجراء الفحوص الروتينية. فكان أحمد يطلعنا على صحة صدام وعما كان يقوله حول الأمور التي تناولناها معه.

كان من الأفضل أن يستغرق استجوابنا لصدام مدة أشهر وليس أياما أو أسابيع. تحدثنا مع رئيس فريقنا حول ذلك بعد الجلسات القليلة الأولى، قائلين إن الاستجواب لا بد من إجرائه بشكل نمطي. كنا واثقين من

كسب ثقته ولكن ذلك ما كان سيتحقق إلا بمنحنا ما يكفي من الوقت. كان الرد على ذلك مقتضبا: هذه هي الخطة. سوف يصل مكتب التحقيقات الفدرالي في غضون بضعة أيام، فلدينا من الوقت إلى ذلك الحين. عليكم أن تكتشفوا ما يمكنكم اكتشافه.

لم يُذكر أي شيء عن متابعة الموضوع مع مقر قيادة الوكالة ولا عن وضع خطة تحدد غاياتنا. كان لا بد من القيام بكل شيء (على الطاير). لقد اطّلعنا على الكثير من صدام وكان في إمكاننا أن نطّلع على المزيد، ولكن كما كان سيقول صدام: روح التحاور لم تكن حاضرة.

لم يدخر زملاؤنا العسكريون جهدا لمساعدتنا. فكانوا بقيادة ماكريفن يتجاوزون حدودهم لمساعدتنا بكل ما كنا نحتاجه، فحين تردد طبيب الوحدة إزاء تزويدنا ببيانات صدام الطبية اليومية، طلبنا من ماكريفن أن يتدخل، فقام الطبيب في صباح اليوم التالي بتزويدنا بأحدث البيانات المتعلقة بأوضاع صدام الطبية. كان ماكريفن ضابطا متألقا وهو قائد بالفطرة، فلم أندهش حين بلغني أنه كان من نظم عملية الاقتحام التي أسفرت عن مقتل أسامة بن لادن.

خلال جلساتنا الأولى كان صدام يبدو مرتاحا معنا بل وكان يتمتع بحوارنا. في إحدى المرات قال للمترجم أحمد إنه يريد الذهاب إلى الحمام قبل الجلسة كي لا يقاطعنا خلالها. وفي مرة أخرى طلب دشداشة جديدة كي يصبح مظهره لائقا. وكثيرا ما كان يقول في نهاية الجلسات: (لقد قلت لكم أكثر مما كنت أتوقع) أو (أعتقد أننا كنا سنتبادل أحاديث شيقة لو كنا سنلتقي بعيدا عن هذه الظروف).

ولكنه كان في أحيان أخرى يلجأ إلى أسلوب المجابهة، فخلال جلستنا الثالثة قال ردا على أحد الأسئلة بقوله: أنا صدام حسين التكريتي، رئيس جمهورية العراق. فمن تكونون أنتم؟

وفي مناسبة أخرى غضب من أسئلتي إلى حد جعله يرفض مصافحتي، ثم وضع الغشاء على رأسه ومد ذراعه بغضب إلى الحارس كي يخرجه من الغرفة.

كان صدام يعتقد أن العالم لا بد له من الاطلاع على تاريخ العراق، بدءا بتاريخ بلاد ما بين النهرين، ليتفهم أن ما فعله كان محتما عليه نتيجة من يكون ومن أين أتى. كانت لدى صدام فكرة عظيمة عن مكانته في التاريخ العراقي، وكان يعتبر نفسه مجسِّدا لعظمة العراق ورمزا لتطور العراق ليصبح دولة عصرية. وكان يقول: المؤرخون يشبهون الأشخاص القادرين على اختراق الظلام بنظرهم.

قلت له إن من المهم أن نعرف ما جرى قبل قرن من الزمن، فصحح لي قصر نظري قائلا: قبل ألف سنة. ثم سألنا إن كنا قد سمعنا عن صلاح الدين، المحارب العراقي العظيم. فأجابه بروس، في محاولة لجعله يسترسل في الحديث، إنه لم يسمع عنه. فانطلق صدام في سرد مطول عن انتصارات صلاح الدين وعن أعدائه. وروى لنا كيف استعاد صلاح الدين مدينة القدس من الصليبيين. كان صدام يشعر برابطة قوية مع المحارب العظيم، كما كان فخورا لكون صلاح الدين من أبناء تكريت. أما الذي لم يذكره فكان أن صلاح الدين كان كرديا.

قال صدام إننا لو أردنا التباحث في شأن التاريخ لكان يسره التحدث معنا. وهنا طغت نبرة جدية على صوته ورفع إصبعه وقال بقدر كبير من

القناعة وبلهجة حادة إنه لن يخضع إلى الاستجواب. قلنا له إن تلك لم تكن غايتنا، ولكننا كنا بالطبع نخطط لإدخال المواضيع الملائمة له ضمن محاولاتنا لجعله يتكلم. كنا سندس ما يجتذب السمك في الماء، آملين أن يبتلع الطعم.

5

إحراج صدام

بدأنا جلستنا الرابعة بسؤال يتعلق بالتاريخ حين طلبنا منه أن يذكر من هم زعماء العالم المفضلين لديه. فكر طويلا وبتركيز ثم فاجأنا بإجابته حين قال إنه معجب بالدرجة الأولى بديغول ولينين وماو وجورج واشنطن. كانوا جميعهم قد أسسوا أنظمة سياسية وكان صدام يشعر بصلة قرابة معهم، ربما لكونه قد أسس العراق الحديث وما يصفه الباحثون بحزب البعثيين. كان من الملفت أنه لم يذكر أي زعيم عربي. وقال صدام إنه يحب الفرنسيين بشكل خاص: سافرت إلى هناك مرتين وتعرفت إلى عمدة باريس، جاك شيراك. كنت أنوي العودة إلى هناك ولكن الحروب اندلعت، فمن لديه الوقت للسفر وبلده يخوض الحرب؟ حين سألناه عن علاقته بشيراك قال صدام إنه لم يفهمه. كان يظن أنهما صديقين ولكن شيراك لم يأتِ لمساعدته. كان صدام يعتمد على فرنسا، العضو البارز في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، لدعم جهوده من أجل التخلص من العقوبات الدولية. إلا أن الفرنسيين لم يتمكنوا أبدا من دعم صدام إلى الحد الذي كان يستحقه صدام بحسب قناعته.

حين ذكرت اسم السفينة الحربية الأميركية، ستارك، صمت صدام بصورة مفاجئة، بعد أن كان حتى تلك اللحظة يبدو مستمتعا. ولكنه تبنى وضع عدم الاهتمام وفضل ألا يقول شيئا. مضيت في الضغط عليه: في أيار 1987 إبان الحرب العراقية - الإيرانية أطلق العراقيون بطريق الخطأ صواريخ أكسوسيت على ستارك التي كانت تجوب مياه الخليج لحماية الملاحة الدولية. قلت لصدام إن بعض المحللين الأميركيين كانوا يعتبرون الهجوم متعمدا، في محاولة من صدام للثأر من قضية إيران - كونترا التي قامت الولايات المتحدة خلالها وبصورة سرية ببيع أسلحة لإيران عبر إسرائيل، ألد عدوين لصدام في المنطقة إبان الحرب العراقية - الإيرانية. امتنع صدام من النظر إلى عيني وبدأ متوترا بثني وفرد قماش غشائه. ما كان تصرفا غير مألوف كنا سنراه يتكرر كلما كانت تثار مواضيع شائكة. وكما يقول أصحاب الخبرة من المستجوبين والأطباء النفسانيين، كان ذلك التصرف بمثابة دالة صامتة.

حاول صدام أن يتصرف كما لو كانت إيران - كونترا لم تؤثر عليه سلبيا تجاه الولايات المتحدة، إلا أنه كان واضحا أنه انزعج كثيرا إزاء قيام الولايات المتحدة بالكيل بمكيالين مع عدوه أثناء حرب دموية. بعد مرور سنوات عديدة وفي اجتماع بمقر لانغلي، حاول تشارلز دولفر، الباحث عن أسلحة الدمار الشامل، أن يحاججني بأن مسألة إيران - كونترا لم تكن حدثا مهما في سيرة صدام العملية. ثم أشار إلى جدول زمني يتضمن المراحل البارزة في علاقات صدام مع الولايات المتحدة. سألته لماذا لم يكن عام 1986، الذي تم خلاله الكشف عن ملابسات إيران - كونترا،

مدرجا في القائمة؟ ظهرت معالم الارتباك على دولفر حين تحدثنا عن الموضوع.

كان فتح الباب مع إيران قد حدث في أواسط عقد الثمانينيات إبان سنوات قيام الولايات المتحدة بشكل متواز بتطوير علاقات حسنة مع بغداد. كانت الولايات المتحدة قد منحت صداما تسهيلات ائتمانية وقروضا، وأشركت العراق في الاستخبارات المتعلقة بالتحركات العسكرية الإيرانية، وأعادت فتح سفارتها ببغداد في 1984. (كانت ذكريات أزمة الرهائن في 1979-1981 لم تزل عالقة في الأذهان. وكانت إيران تُعتبر متمسكة بالراديكالية، ولكونها لم تتمكن من الحصول على تسهيلات ائتمانية من الخارج، كان عليها أن تدفع نقديا مقابل شراء الأسلحة خلال الحرب العراقية - الإيرانية.) لدى نشر التقرير الخاص بإيران - كونترا في 1987 علِم صدام أن أحد شروط إيران التفاوضية كان يقتضي قيام واشنطن بالمساعدة على إطاحة نظام صدام. كان ذلك أول ذكر لتغيير النظام في العراق، قبل خمسة عشر عاما من قيام جورج بوش الابن بجعله رسميا جزءا من سياسة حكومة الولايات المتحدة. في 2011 ثبت صحة رأيي عن مدى أهمية إيران - كونترا لدى صدام حين تم نشر وثائق سرية كانت قد استولت عليها القوات الأميركية عن اجتماعات مجلس قيادة الثورة التي تحدث خلالها صدام عن إيران - كونترا. وكما أورد مايكل غوردون في صحيفة نيويورك تايمز: قضية إيران - كونترا قد ثبتت مرارها لدى السيد حسين ومعاونيه، فلقد حاولوا جاهدين طيلة عدد من الأسابيع لتفهمها. بين أمور أخرى لم يتمكنوا من فهم ما جعل إدارة ريغان تتخذ تدابير عسكرية ضد ليبيا في

1986 بينما كانت تمد يدها إلى إيران، فإيران بحسب قول السيد حسين تلعب دورا أكبر في مجال الإرهاب.

تحدثنا لمدة ساعتين ونصف قبل أن نسمع طرقا على الباب، فكان قد حان موعد طعام عشاء صدام. نهضنا كلنا وقلنا إننا سنعود قريبا للتحدث معه. استدار ليخرج ثم استدار ثانية ليواجهنا. وضع يده على قلبه وقال: أريدكم أن تعرفوا أنني استمتعت بهذا الحوار، فلقد مرت أشهر لم أتحدث خلالها مع أي أحد. لقد مضى وقت طويل لم أجرِ خلاله حوارا ذا معنى، وأتطلع بشوق إلى لقائنا القادم.

ثم ابتسم وأدار ظهره إلينا ثم اقتيد إلى زنزانته. كنا سنسقط على الأرض فكنا قد تشجعنا كثيرا إزاء إقرار صدام بجهودنا فكنا نأمل أن يسفر ذلك عن عملية استجواب مجدية. أبلغنا لانغلي على الفور بأن صداما بدا مستعدا لتوسيع نطاق حواراتنا.

عدنا إلى مقطورتنا وباشرنا بتدوين ملاحظاتنا. بعد قليل زارنا رئيس مكتب الوكالة، كان يُدعى بوب وكان يعمل ضمن جناح العمليات بالوكالة. لم تكن لديه أية خبرة في شؤون الشرق الأوسط بل تم تنسيبه ليقوم بضبط أحوال العملية. كان كغالبية زملائه المحققين لا يقر بأهمية المحللين ويدّعي أنه لا يعرف شيئا عن طبيعة عملنا. كما كانوا يعتقدون أن المحللين هم الذين يسربون المعلومات إلى وسائل الإعلام. ولقد أخبرني بوب بأني لو همست كلمة واحدة مما يقوله صدام، سيتم سحبي من فريق الاستجواب. كان واضحا أن بوب لم ترضه فكرة ضم محلل إلى الطاقم. فقال لي في تلك الليلة إني لن أكون في الغرفة مع صدام وأن تشارلي، رئيس الفريق، سيتولى إجراء الاستجواب. بعد الانتهاء من

الجلسة بات عليّ أن أعد التقرير اليومي المستند إلى ما كانوا يخبروني عما قاله صدام. خرجت من الغرفة وأبلغت بروس بأني سوف أستقل أول طائرة عائدة إلى الولايات المتحدة ما لم تتم إعادتي إلى حضور الجلسات. تمكن من تهدئتي ووعد بالتحدث مع بوب، وتمكنت لاحقا من إقناع بوب بأن خبرتي كانت عنصرا حيويا في إنجاح الاستجواب.

ثم أُجري بعد ذلك بفترة قصيرة تغيير كبير على فريقنا، فبعد لقائنا مع بوب ببضعة أيام علمنا أن تشارلي سيتم استبداله. كان هذا إجراء غير مألوف وكان بمثابة دليل آخر على المتاعب القائمة على بعد آلاف الأميال في لانغلي، حيث كان المسؤولون في مقر قيادة الوكالة غير مرتاحين من الطريقة المتبعة في جلسات الاستجواب. سمع تشارلي أن بديلا سيأتي، فاستقل أول طيارة تغادر بغداد. ربما كانوا يشعرون بأننا لم نحصل على المعلومات التي يحتاجونها لإرضاء البيت الأبيض بما يكفي من السرعة. كان ذلك ينسجم مع نمط إدارة جورج تينت للأمور، فلو لم يكن مرتاحا تجاه الشخص المسؤول، كان يطالب حلقة المقربين منه بالبحث عن بديل. كما كان دليلا مشؤوما يشير إلى أن لانغلي كانت تتوقع إجابات فورية تؤيد تأكيد تينت للرئيس بأن العثور على أسلحة الدمار الشامل سيتم بمنتهى السهولة.

كانت واشنطن على الدوام لا تقدر صعوبة العثور على هذه الأسلحة أو جعل صدام أو أحد أعوانه يطلعوننا على مكان إخفائها. وكان ذلك ينطبق أيضا على مسألة الحصول على معلومات استخبار دقيقة فيما يتعلق بشؤون أخرى. خلال الفترة السابقة للحرب كانت وكالة الاستخبارات قد حصلت على معلومات مفادها أن صداما كان سيجتمع بكبار معاونيه

في منشأة قيادية تدعى مزارع الدورة في ضواحي بغداد. تلقت الوكالة هذه المعلومة من مصدر مقرب مزعوم فتم تحويلها إلى لانغلي مع الموعد الذي كان سيتم فيه اللقاء المزعوم بين صدام وكبار مسئوليه. يبدو أن تينت هرع إلى البيت الأبيض حاملا هذا الخبر، ما دفع الرئيس بوش إلى شن الهجوم قبل يوم من موعده المقرر. قامت مقاتلتان من طراز أف 117 بإلقاء أربعة قنابل شديدة الانفجار على المجمع. لم تصب أي منها المبنى الذي كان يفترض وجود صدام فيه مع أعوانه. أما الحقيقة فكانت أنه لم يكن في المكان، ولم يكن حتى قريبا منه.

علمنا من خلال جلسات الاستجواب أن صداما كان مهووسا بالمال، الذي كان يعني كل شيء له. فشأنه شأن العديد من الذين نشأوا فقراء ومحرومين وجائعين، كان صدام يعتبر المال معيارا لمكانته كما كان مصدر قوته. كان المال يفوق في أهميته مسألة عقد اجتماع مع مسؤولين حكوميين في مزارع الدورة. كان المصدر قد روى قصة كانت تتلاءم مع ما كنا نتوقعه، أي أن صداما ما كان سيهتم بشؤون إدارة الدولة، كما كان سيفعل أي قائد عشية أزمة كانت تهدد نظامه. فإن كان بالمال أو بالكتابة، كان صدام مهتما بأمور غير العمل على إدارة الحكم الممل. ومع تأهب التحالف لمطاردته كان صدام قد فوّض كبار معاونيه بإدارة الحكومة.

كما كان المال مصدر إزعاج لصدام فيما يخص علاقاته بالآخرين، وسخر في عدد من المناسبات ممن كان يسرق منه، ومنهم صهره حسين كامل الذي ذاع صيته حول العالم إثر فراره إلى الأردن في 1994 مع شقيقه صدام كامل - الذي كان صهره أيضا - مع عائلتيهما. ثم في

وقت لاحق سئم الشقيقان من العيش في عمان فتم إيهامهما بأنهما سينالان الغفران في حال عودتهما إلى العراق. فعلا ذلك في 1996 إلا أنهما اتّهما بالخيانة وأجبرا على الطلاق من زوجتيهما، قبل أن يُقتلا في معركة بالأسلحة النارية مع قوات صدام الأمنية. روى لنا صدام كيف كان حسين كامل يعقد ويتلاعب بالصفقات وكثيرا ما كان يؤسس شركات لغسل الأموال عبر الأردن وكيف كان - إبان توليه وزارة الدفاع العراقية - يطالب مجهزي المستلزمات العسكرية بالرشى. قال بروس لصدام إن حسين كامل كان شخصا لا يمكن الوثوق به، فأجابه صدام: والآن عرفتم سبب وجوده حيث هو الآن.

سألت صدام عن النقود التي وجدت معه عند القبض عليه. ابتسم صدام ساخرا وقال: أتقصد مبلغ 750 ألف دولار؟ بل كان مليونا وربع المليون، فذلك هو المبلغ الذي كان معي عند وصول القوات الأميركية. قام بعض أفرادكم بسرقتي. كان صدام جادا في كلامه وبدت عليه معالم الغضب إزاء تعرضه إلى السرقة وطالبنا بإعادة ماله المفقود. قلت له إنه ليس من المحتمل أن يسرق الجنود أي شيء، خصوصا في ضوء أهمية العملية وما تبعها من عاصفة إعلامية، ناهيك عن أن القوات الخاصة لا تقوم بذلك. أشار لي صدام بإعطائه قلمي ودفتري قائلا: هل تسمح لي؟

أعطيته الدفتر والقلم فكتب وثيقة يبين فيها توثيق اختفاء نصف مليون دولار من نقوده، ووقعها، ثم أعاد لي دفتري وقلمي. ظلت الوثيقة في دفتري نحو يوم واحد ولكني أدركت بأني لا يمكنني الاحتفاظ بها، فكان المحامون قد أكدوا بأن أي شيء يقوله أو يكتبه لا بد من تسليمه إلى هيئة الادعاء العام المفترضة. وأنا نادم الآن لكوني لم أحتفظ بها كتذكار

بالأوقات التي قضيناها معه. إلا أني سلمتها إلى أحد زملائي ووضعناها في ظرف قبل أن نودعها في إحدى الخزائن، وأنا على يقين من أن تلك الورقة لم تزل موجودة في ملف داخل صندوق في مكان ما.

كنا أثناء جلسات الاستجواب المبكرة مقيدين بافتقارنا إلى الوثائق، وما كنا نعرف أي شيء عن الكنز الهائل من السجلات والوثائق العراقية التي باتت بحوزة الجيش الأميركي. ففي مهمة مثل عملية تحرير العراق ثبتت استحالة التنسيق والتواصل العملي بين العناصر المتباينة المكونة للقوة الغازية. كانت تلك الوثائق ستمكننا من إبلاغ صدام بما لدينا من المعلومات الدامغة عنه لنتمكن بذلك من هدم جداره من الثقة بنفسه. وكان ذلك دليلا آخر على عدم استعداد أجهزة الاستخبارات لاحتمال القبض على صدام.

كانت الحكومة العراقية تحتفظ بأرشيف لجلسات مجلس قيادة الثورة الذي كان أعلى سلطة لاتخاذ القرارات في الدولة وكان رئيسه صدام حسين. كانت محاضر الجلسات تلك ستفيدنا جدا في جلسات الاستجواب، فالمعرفة مرادفة للقوة. لست مضطرا إلى تعذيب الأشخاص أو إلى تهديدهم بالأذى الجسدي، فإن أظهرت للمحتجز بأن الحقائق موثقة لديك فسوف تقوض قدرته على حجب ما لديه من معلومات. معظم المحتجزين يدعون بأنهم أبرياء، ولكن فور قيامك بطرح أسئلة تستند إلى معلومات موثقة، يصاب المحتجز بالارتباك والحيرة، وستتمكن بذلك من معرفة المزيد بعد حرمانه من قدرته على الإدلاء بإجابات كاذبة أو مضلّلة. سيبادر المحتجز فجأة إلى الإدلاء بالمعلومات، آملا بأن تعاونه سيساهم في تخفيف عقوبته.

كثيرا ما كان صدام يقول إنه يترقب لقاءاتنا ولكن ذلك لم يعن أنه كان كثير التعاون معنا، فكان يعتبرها وسيلة لقضاء الوقت. في بعض الأحيان، حين كنا نحاول أن نجعله يوضح لنا بعض الأمور كان صدام يخطئ في فهم أسئلتنا كي يوحي لنا بأننا جهلة وكان في أحيان أخرى يخوض في مسارات فكرية متباعدة في إجابته على سؤال واضح، فكان يقول مثلا: سأوضح لكم وجهة نظري ولكنني أريد أولا أن أخبركم عن (شيء ما). وكان ذلك يؤدي إلى خوضه في محاضرة طويلة عن موضوع لم يبد ذا علاقة، قبل أن يعود إلى السؤال ويربط بينه وبين موضوع المحاضرة.

كان صدام شكوكا بدرجة لم أرها من قبل، وكان دائما يجيب على الأسئلة بطرح أسئلة مقابلة، وكثيرا ما كان يطالب بمعرفة ما جعلنا نسأل عن موضوع ما، قبل أن يجيب على السؤال. كنا نسأله عن حدث معين تم خلال ولايته، فكان يبادر إلى الإجابة بالعودة إلى حكم صلاح الدين. بعد استماعنا إلى عدد من هذه الإجابات المطولة، قاطعه بروس وقال له: يا صدام، أعتقد أن عليك أن تركز على السؤال المطروح دون أن تتوغل في هذا القدر من التفاصيل التاريخية. كان يبدو صدام محتارا قبل أن يجيب: ولكن ما أقوله بالغ الأهمية وعليكم أن تستمعوا إلى كل ما أقوله.

لم تكن شخصية صدام تفتقر إلى جانبها المرح، وكان يظهره حين كان يرغب بتجنب أسئلتنا. كان صدام بين حين وآخر يحكي لنا نبذا مقتبسة من تجاربه في قيادة العراق. روى لنا ذات مرة أنه قام خلال عقد التسعينيات بالذهاب إلى بحيرة الحبانية لعقد اجتماع لم تصطحبه إليه مجموعاته الأمنية المألوفة واكتفى بعدد قليل من حراسه الشخصيين.

فسرعان ما أحاطت به جمهرة من المحبين وهم يهتفون باسمه. ثم زاد حجم الحشود مع انتشار خبر حضور صدام. ثم قام أحد حراسه بإسقاط صبي على الأرض أثناء توجه صدام نحو إحدى السيارات المنتظرة. شاهد صدام ما حدث ورأى الصبي يرفع عصا فغمز له صدام قبل أن ينادي الحارس باسمه.

وحين توقف الحارس أمام صدام تلقى ضربة من الصبي على رأسه لينتقم منه على ما فعل به. فانطلق صدام ضاحكا واشتركنا معه في الضحك، وقلت له: يا صدام، كانت تلك قصة مسلية ومضحكة.

فأجاب قائلا: لدي غيرها. وباشر في رواية نبذة مماثلة، كانت جميعها تتضمن معاقبة جسدية تلقاها أحد بتحريض من صدام.

كانت أسئلتنا التي تمس جوانب حساسة مثل تصرفاته الشخصية تثير أعصاب صدام. قمنا في أحد الأيام بمناقشة العلاقات العراقية – السورية، وهو موضوع يزعجه، فباشر متوترا بتنظيف أظفار يديه، وهي علامة كانت تشير إلى أننا قد أصبنا عصبا من أعصابه. كنت في تلك الأحوال أزيد من ضغطي عليه كي يجيب عن السؤال. وفور إدراكه ما كنت أرمي إليه بأسئلتي، كان يعقد حاجبيه ويرفع يديه أمام الجميع ويبدأ بتنظيف أظفاره، وإن زدنا من إصرارنا كان يباشر بتنظيف أسنانه.

حين سألته عن التجارة بين سورية والعراق، انفجر صدام قائلا: تجارة؟ من يهتم بالتجارة؟ هل تعتقدون أن صدام حسين تاجر بالمفرق. هؤلاء هم حثالة التاريخ.

كانت هنالك بعض الأمور التي رفض التحدث عنها، ومنها أمنه الشخصي، وعلاقاته مع غيره من القادة العرب، وعلاقاته مع من يعتبرهم

موالين له، وشؤون الاستخبارات. كما قال لنا صدام إنه ليس لديه غير صديقين اثنين في العام، ولكنه لم يقل لنا من هما.

الذي جعل الجلسات مثيرة هو الفرصة التي أُتيحت لنا لطرح أسئلة لم يطرحها عليه أحد قبلنا. كانت هذه الأسئلة تهز توازن صدام وتجعله يسترسل في الحديث. كان يتطلع إلى تقديم إجابات تدوّن في سجل التاريخ وأن يقوم بذلك بشكل مقنع. كان أحيانا يبدو مستغربا من أسئلتنا، كما حصل حين سألناه عن زوجتيه (كان متزوجا من اثنتين: ساجدة وسميرة الشهبندر، المضيفة في الخطوط الجوية العراقية، وبدا غير مرتاح لدى تحدثه عنهما). كان أحيانا يشعر بأنه قد كشف عن أكثر مما يريد فحاول أن يتراجع عن بعض ما قاله. كنا قد خصصنا وقتا لبناء تفاهم ودي، ولكننا كنا مقيدين لأننا لم نعرف الفترة المتاحة لنا مع صدام، وكانت هنالك الكثير من المواضيع، كان صانعو السياسة في واشنطن يريدون تغطيتها. كان فريقنا من وكالة الاستخبارات يعرف أكثر عن صدام والعراق من مستجوبي مكتب التحقيقات الفدرالي الذين تبعونا في المهمة، ولكن الوقت الذي أتيح لنا لاستجوابه كان أقل بكثير. كان جورج تينت، ورفاقه في الطابق السابع من مقر الوكالة في واشنطن لا يتفهمون أبدا ما الذي تتكون منه عملية استجواب ناجحة.

وكان صدام متمسكا بشدة بالفكرة القائلة إنه لم يزل رئيس الدولة وكان يشير إلى نفسه بأنه الرئيس. لذا ما كنا نخاطبه السيد الرئيس أو السيد صدام، بل اكتفينا بمخاطبته باسمه الأول فقط. بدا عليه الانزعاج في البداية ولكنه سرعان ما تعوّد على الأمر.

في أحد الأيام طلب من أحد الحراس شيئا يقرأه. وجد الحارس عددا من الكتب باللغة العربية وأعطاها له، فأتى عليها. كان أحدها مخصصا لخطاباته، فحمله معه في اليوم التالي إلى غرفة الاستجواب وقال إنه يريد أن يقرأ شيئا لنا. كان خطابا ألقاه في العشرين من أيلول 1980. قال لي: قلتَ بالأمس إنني من بدأ الحرب مع إيران. لدي ما أريد أن أقوله لك.

باشر بقراءة الخطاب الذي كان قد ألقاه ليبرر غزو إيران.

تحملنا ذلك لفترة قصيرة. شكرناه على محاولته لتعريفنا إلى أصول الحرب العراقية - الإيرانية وقلنا إننا سنعود إلى الموضوع في وقت لاحق، ولكن كانت لدينا مواضيع أخرى لمناقشتها. أما أنا فلقد أصابتني في داخلي خيبة أمل إذ كنت مستعدا للاستماع إليه لمدة ساعات وهو يتحدث عن الحرب. كان الأمر مثيرا وكنت على يقين من أن قليلين هم الذين ستتاح لهم مثل هذه الفرصة. كان صدام فخورا جدا بقيادته للعراق خلال الحرب. وكان أمرا ساحرا أن تسمعه وهو يستذكر المعارك القديمة، طبعا مع تحويرها قليلا بهدف تعزيز دوره والانتقاص من دور مرؤوسيه.

6

الخطر الفارسي

سألت صداما عن طبيعة النشأة في تكريت وكيف تمكن شاب من بيئة متخلفة كهذه أن يصبح رئيسا للعراق، فأجاب بأن الحياة كانت صعبة وكانت عائلته فقيرة. سألته عن علاقته بوالدته وزوجها، وأنني طوال السنوات التي أمضيتها في دراسته باعتباري محللا للقيادات لم يكن لدي ما يجعلني أشكك بأن زوج والدته - الذي كان شقيق والده وبالتالي كان عمه أيضا - كان قاسيا عليه وكان يضربه وهو في سن الشباب. من المفترض أن صدام ترك البيت ليخلص نفسه من ذلك الإرهاب، وكان العديد من المحللين النفسانيين البارزين الذين حللوه لاحقا عن بعد قالوا إن ذلك ما جعله بهذه الدرجة من القسوة والعداء، كما جعله يرغب في الحصول على أسلحة نووية، وهو نمط من المنطق المبالغ فيه برغم كونه محتملا. كانت تلك الآراء سائدة في الوسطين الأكاديمي والاستخباراتي إلى درجة جعلتني أجد نفسي وأنا أقتبس منها في تقاريري لكبار صناع السياسة.

ما قاله لي صدام قلب فرضياتنا رأسا على عقب. قال إنه كان يحب زوج والدته واصفا إياه بأنه من أطيب الناس الذين كان يعرفهم. كما قال

صدام إن زوج والدته هو الذي شجعه على الرحيل من البيت، فتكريت لم يكن فيها ما يتيح فرصا لشاب مثل صدام، وظل صدام ممتنا جدا إزاء تلك النصيحة. حين سألته عن التقارير القائلة إن زوج أمه كان يعتدي عليه، أجاب صدام: ليس صحيحا. كان إبراهيم حسن - رحمه الله - يأتمنني على أسراره، وكان يعزني أكثر من ابنه أدهم.

ظننت أني كنت أعرف مداخل ومخارج حياة الدكتاتور العراقي، ولكن ما سمعته كان كشفا يثير الدهشة وجعلني أشكك بصحة تشخيصات الأطباء والنفسانيين الذين عملت معهم في وكالة الاستخبارات المركزية. كنا قد سمعنا منذ سنين أن صداما كان يعاني من آلام شديدة في ظهره. صحيح أنه كان يصاب بتشنجات في ظهره كتلك التي تصيب أي رجل في الستينات من عمره، ولكن أوضاعه العامة كانت أفضل بكثير مما كان يظنه الأطباء الخبراء. أتذكر أن سائقه سمير كان يقول إن مقدرة صدام على التحمل كانت هائلة إلى درجة كانت تجعل مرافقيه يبدون كمجموعة من الأطفال المتباكين إبان مطاردهم.

أخبرنا الشؤون الطبية في الوكالة أيضا أن صداما كان قد ترك تناول اللحوم الحمراء وتدخين السيجار. أما صدام فلقد ضحك حين سألته إن كان قد ترك السيجار وقال إنه لا يعرف من أين أتيت بهذه المعلومات الخاطئة كليا. ومضى قائلا إن كل من يقضي معه فترة من الزمن كان يعرف أنه يعشق السيجار وكان يدخن أربعة منها كل يوم. ثم سألني مداعبا إن كان معي سيجار. قلت له إني مع الأسف لا أدخنها، فخاب أمله. وقال أيضا إنه يأكل اللحوم الحمراء، فتساءلت مجددا حول فائدة قيام الأطباء بتشخيص أمراض أناس لم يلتقوا بهم مطلقا.

في بعض جوانبها كانت ظروف صدام في الأسر تشبه تلك التي مـر بها خلال عهده كرئيس. لم يكن في وسعه أن يذهب حيثما يريد ولا متى يشاء. كما كان محاطا بالحراس على مدار الساعة وطوال أيام الأسبوع. متى أراد شيئا كان يطلبه، ولكن في ظروفه الحالية كانت تُرفض معظم طلباته. كان صدام أحيانا يطلب جهاز راديو ليستمع إليه أو ما يمكنه قراءته. كان يسأل حراسه عن الساعة ليتمكن من متابعة مواعيد الصلاة. كان العديد منا يعتبرون ذلك مسعى يتيح له بسط بعض السيطرة على روتين يومه، و لم يكن ذلك صحيحا. فمن الأمور الملفتة التي علمتها عن صدام هو أنه بات في المراحل المتأخرة من حياته متدينا. لم يكن سلفيا أو جهاديا، و لم تكن دوافع تدينه تعود إلى نمط من التحالف السري مع تنظيم القاعدة. أعتقد أن الدين اكتسب مقدارا أكبر من الأهمية لديه في المراحل الأخيرة من حياته، وكان ذلك قرارا خصوصيا قد اتخذه. ولكنه لم يثنِ صداما عن محاولة اللجوء إلى الدين حين أراد عرقلة استجوابنا. في أحيان كثيرة – حين كنا نمس مواضيع لا يريد التحدث عنها – كان يتلفت ويسأل: أين هو الحارس؟ أعتقد أن موعد صلاتي قد حان.

حدث في أحد الأيام شيء طريف لدى محاولة صدام اللجوء إلى هذا الأسلوب بهدف صدنا، إذ كنا نتحدث عن أسلحة الدمار الشامل ففاجأنا بسؤال عن الوقت وقال: أعتقد أن موعد الصلاة قد حان.

وفعلا لم تمر غير عشر دقائق حتى طرق الحارس الباب وقال إن ذلك الوقت قد حان. كنا راغبين بالاستجابة لرغبة صدام ولكننا لم نرد أن نجعله يشعر بأنه في وسعه التحكم في توقيت أو وتيرة جلسات الاستجواب، فقلنا له إننا سنكمل ما كنا نغطيه ثم نسمح له بالذهاب.

وكما اعتدنا حاولنا أن نختم الجلسة بتناول موضوع مسالم، فقال له بروس إنه يشترك في صفاته مع رئيسنا السادس عشر أبراهام لنكولن. سألنا كيف ذلك، فقال له بروس: كلاكما كان رئيسا في زمن الحرب، وكنتما من أصول متواضعة، وكان كل منكما ليس لديه غير خلفية عسكرية محدودة قبل أن يجد نفسه وهو يقود جيوشا في صراع من أجل الحياة أو الموت. وجد صدام ذلك مثيرا، وحين جاء الحارس ليذكره بموعد الصلاة أشار إليه بالخروج لكونه كان يفضل الاستماع إلى ما كان يقوله بروس. كان صدام يشعر أن خبير الكشف عن الكذب استعاد صوابه وكان يتفهم القيمة الحقيقية لمن هو جالس أمامه.

خلال بعض جلساتنا الأولى مع صدام بالكاد كان قادرا على إبقاء عينيه مفتوحتين. كان يشكو من عدم تمكنه من النوم نتيجة قرب زنزانته من الباب، فكان وصول السجناء الجدد - ما كان يحدث كل ليلة - يوقظه، وكان منظره وهو يسعى إلى البقاء صاحيا يشبه منظر طفل فات وقت نومه. كان يخطر لي أحيانا أن الجيش كان يتعمد حرمانه من النوم. كما كان صدام يشتكي من سماعه أصوات الموسيقى العالية، فبعد مرور بضعة جلسات مماثلة طالبنا بنقله إلى زنزانة أخرى. استجاب الجيش، ليتمكن صدام بالتالي من نيل ثماني ساعات من النوم كل ليلة، وحين كان يقظا ومرتاحا بدا جاهزا لخوض المعركة مع مستجوبيه. كما كان صدام محبطا نتيجة امتناع الجيش عن تزويده بالورق وبقلم، فقال لنا بسخط: أنا كاتب وأحتاج هذه الأشياء كي أدون خواطري! حين جاء الجيش وقبض عليّ كنت أكتب كتابا لم أتمكن من إكماله. لماذا تمنعوني من ذلك الآن؟ كيف سأتمكن من إيذاء نفسي؟

كنت أدرك أن ما قاله كان منطقيا، ولكن القرار كان بيد الجيش الذي ما كان سيجازف بلجوء صدام إلى الانتحار، برغم صعوبة ذلك وقلة احتمال وقوعه.

خلال محاكمته ادّعى صدام بأنه قد تعرض إلى التعذيب خلال فترة احتجازه. ربما كان يشير إلى حرمانه من النوم أو إلى الخشونة التي صاحبت عملية القبض عليه، أو إلى حرمانه من الكتابة بقدر ما يرضيه، ولكن في وسعي أن أؤكد جازما أن صدام لم يُعذب مطلقا، بل كان يعامل بطريقة مثالية، **أي أفضل بكثير من معاملته لأعدائه القدامى.**

كانت تُقدم له ثلاث وجبات طعام يوميا، كما أعطي نسخة من القرآن الكريم وترجمة عربية لاتفاقيات جنيف. كان يُسمح له بأن يصلي خمس مرات في اليوم وفق تعاليم عقيدته الإسلامية. بالمقارنة، حين قبضت مخابرات صدام في 1999 على خلية من الشيعة المنشقين المرتبطين بإيران، تم نقل المجموعة إلى سجن أبو غريب حيث احتجزوا لمدة ثلاثة أيام قبل تعرضهم إلى التعذيب، وليست هذه الصفحات المكان اللائق لرواية ما تعرضوا إليه. **لن أنسى أبدا أولئك المساكين الذين تعرضوا إلى رعب وآلام لا يمكن وصفها قبل موقم بأيدي سفاحي صدام.**

حين سألناه عن القيادة الإيرانية حاول صدام أن يتصرف كرجل دولة شهم مع شيء من الاستعلاء، ولكنه لم يتمكن من إخفاء كراهيته للإيرانيين، وكان أحيانا يفقد صوابه لمجرد تحدثه عنهم. ذكرت له أثناء الحديث أن الولايات المتحدة وإيران تربطهما أمور مشتركة، فسألته إن كان يعلم أن بعض الناس يطلقون على مدينة لوس أنجلس لقب (طهرانجلس) لكونها تضم جالية إيرانية كبيرة. ضحك صدام فمضيت إلى

أن الشعب الإيراني أقام اعتصاما مضاء بالشموع من أجل ضحايا الحادي عشر من أيلول. ارتسمت على وجه صدام معالم الألم وقال: ها هما الوجهان يتكلمان. اذهبوا مسرعين إلى أصدقائكم الإيرانيين. نعم، كونوا أصدقاءهم لتروا كم من الوقت سيدوم ذلك؟

ثم قال صدام إن حكومته عبرت عن مواساتها من خلال رسالة مفتوحة حملها طارق عزيز إلى رامزي كلارك، وزير العدل السابق. سألنا صدام بشدة بالغة وبارتباك: ألم تقرأ رسالة طارق عزيز إلى رامزي كلارك؟ من هو الأهم، طارق عزيز أم عمدة طهران؟

كان صدام بالفعل يعتبر نفسه حاميا للعرب في وجه التهديد الفارسي، وقال إن هذا ما يجعل كل العالم يعتبر العراقيين أنبل الناس. ثم استأنف صدام هجمه على إيران: الإيرانيون ليسوا صادقين، فهم يعتبرون كل الناس كذابين. سيعلنون شيئا ما ثم يفعلون العكس، تلك هي الذهنية الإيرانية. ثم أضاف في وقت لاحق من الجلسة ذاتها: إيران لم تزل تطمح إلى التوسع في العالم العربي باسم الإسلام. يعتقدون أنهم في الوقت المناسب سيتولون دورا قياديا في تحرير القدس ليقوموا بعد ذلك بتأسيس المملكة الإسلامية. ولأن إسرائيل تمتلك أسلحة نووية، لن تتمكن إيران من أداء ذلك الدور. لذا في وسع كل من يمتلك هذه الأسلحة أن يقول إن في مقدوره تحرير القدس. تعتقد إيران أنها قادرة على قيادة الأمة العربية. كما نسب صدام إلى إيران مسؤوليتها عن المحاولة الفاشلة لاغتيال نجله عدي في 1996.

الجلسة التالية تضمنت المزيد مما سلف، فلقد دخل صدام فسلم علينا ثم جلس وانطلق في منولوج مطول عن الحرب العراقية – الإيرانية: تعرض

العراق إلى 548 عدوانا قبل الحرب. ثم باشر بسردها كلها. طلبنا منه أن يتناول نقاطا محددة، بما فيها إغراق عدد من السفن العراقية والأجنبية عند مدخل شط العرب وهو المنفذ العراقي الوحيد إلى مياه الخليج كما كان الفتيل الذي أشعل النزاع. فقال صدام: لقد أرسلنا 290 مذكرة إلى الأمم المتحدة، وأجابت إيران بواحدة... قال وزير الدفاع الإيراني في الثاني والعشرين من أيلول إنه في حال شن القوات الإيرانية هجوما على العراق فهي لن تتوقف إلا عند بلوغها بغداد. وفي 1988 كان تحرير شبه جزيرة الفاو على مدخل ممر شط العرب بمثابة نقطة تحول لصالح العراق في الحرب لكونه طرد القوات الإيرانية من الأراضي العراقية بشكل حاسم.

استمر صدام لمدة ساعات في حديثه عن إيران بحماس فما كانت تثيره مواضيع أخرى. كان يشعر أن بلاده تصرفت ببسالة خلال الحرب وكان الاختبار المسلح بين البلدين قد أثبت أن القوات العراقية مكونة من أنبل المقاتلين. حين سألناه عما جعله يبادر إلى شن الحرب اعترض صدام على صيغة السؤال، برغم اتفاق المحللين العسكريين بشكل عام على أن العراق سدّد الضربة الأولى بمائة ألف مقاتل ونحو مائتي طائرة حربية.

أكد صدام بإصرار أن إيران هي المسؤولية عن اندلاع الحرب لكونها لم تحترم اتفاقا كان يحتم عليها إعادة مستوطنتين إلى العراق، وأضرمت النار في آبار نفط عراقية، ونشرت مدافع ميدانية أميركية الصنع على مقربة من الحدود العراقية. وقال صدام إن العراق تصدى للمدفعية الإيرانية وبعث ثلاث رسائل إلى القيادة الإيرانية يحذر فيها من تصعيد الموقف. وادّعى صدام قائلا: استمروا بقصف البصرة والبنية النفطية التحتية. وفي ديالى شنوا هجمات من المستوطنة الثانية (سيف سعد) وقبضنا على عدد

من الأسرى، واحتفظنا بأحدهم لمدة عشر سنوات كي نظهر بأن الحرب لم تندلع في الثاني والعشرين من أيلول - أي يوم شن العراق غزوه - إذ كنا نعتبر تاريخ بدء الحرب في الرابع من أيلول. حاول الإيرانيون اغتيال بعض أعضاء القيادة، منهم طارق عزيز ولطيف نصيف جاسم ومظفر بدر الدين. مع ذلك لم نكن في حالة حرب. كما نفذوا 240 اختراقا وضربات جوية.

حين سألناه عن الدعوة التي وجهها آية الله الخميني إلى الشيعة العراقيين بإطاحة الحكومة قال صدام: التدخل في الشؤون الداخلية يعتبر عدوانا.

حاول صدام ألا يعلق يشكل مباشر على قيام جيشه باستخدام أسلحة كيماوية في الحرب العراقية - الإيرانية، ولكن تبنيه الصمت ازداد صعوبة لأنه كان يريد أن يعلمنا بأن إيران كانت قد استخدمت الأسلحة ذاتها، مدعيا بأن العراق استخدمها لأغراض دفاعية فقط. ونبه إلى أن إيران كانت الأولى باستخدام الأسلحة الكيماوية في معركة خرمشهر في أيلول 1981 وهي أبعد ما توغلت القوات العراقية في العمق الإيراني قبل أن يتم إيقاف تقدمها بشكل نهائي.

حين سألناه عن مناورات العراق القتالية خلال الحرب قال صدام باقتضاب: اذهبوا واسألوا وزارة الدفاع. كان واضحا أن صدام لم يرد التحدث في موضوع استخدامه للصواريخ ضد إيران، فكما تعود، قام بتحويل حرب الصواريخ بين العراق وإيران إلى خطوة إيرانية استفزازية. وقال إن ليبيا زودت إيران بالصواريخ لضرب العراق وقال: خاطبت الإيرانيين عبر الراديو وقلت إن هذا أسلوب فاشل، وعلينا أن نتجنب هذا

النمط الحربي. حتى ذلك الوقت كنت أمتنع عن استخدام هذه الأساليب - أي شن ضربات بالصواريخ على الأراضي الإيرانية - لجعلها ضمن مرمانا، إذ كنت أعرف أن ذلك ستسفر عنه مشاكل أخرى. لدى امتناع إيران عن التوقف، طُرح اقتراح استخدام صواريخ سكود، ولدى مباشرتنا بضرب إيران رد علينا الإيرانيون. لم نتخذ أي إجراء ضد إيران إلا في حال مبادرتهم بشيء ما، فكنا نرد عليهم بالمقدار نفسه.

ثم انتقلت إلى موضوع آخر فسألته عن عزل الرئيس أحمد حسن البكر، سلفه في رئاسة الدولة العراقية. قلت لصدام إن العديد من المحللين في الولايات المتحدة كانوا يعتقدون أنه أرغم البكر على التخلي عن السلطة كي يتولى هو رئاسة البلاد، كما أطلعته على قناعتي بأنه كان قلقا بشأن مستقبل العراق بسبب نهوض الأصولية الشيعية تحت راية الخميني، التي كانت تهدد باجتياح الأغلبية الشيعية المستضعفة في العراق، فربما كان يعتقد أنه كان سيمنح العراق قيادة شابة وحيوية لمعالجة موضوع إيران. كما كانت هنالك شكوك بأنه دبّر مقتل أحمد حسن البكر بعد سنوات عدة حين ساء موقف العراق إبان الحرب العراقية الإيرانية، وبأنه كان قلقا إزاء احتمال وقوع انقلاب عليه. كنت أرى بوادر الغضب على وجهه وهو يستمع، فخففت من حدة تعبيري ووصفت ما رويته بأنه كان في أغلبه مبنيا على الشائعات. لست أدري إن كان توضيحي الأخير قد تمت ترجمته بدقة، إذ قال صدام إنه لم يسمع مثل ذلك الهراء.

أكد صدام بإصرار أن فكرة توليه السلطة كانت تعود إلى البكر نفسه، موضحا أن البكر كان قد تقدم في السن وأن صحته لم تعد كما كانت وأنه لم يعد راغبا برئاسة البلاد. وبالاستناد إلى أقوال صدام كان

أحمد حسن البكر قد وصف صداما بأنه الشخص الوحيد المطلع على آليات الحكومة والقادر على ضمان تماسكها. وقال صدام إنه تمنّع في بادئ الأمر لكونه لا يحب التسلط، بل زعم إنه كان يتطلع إلى العودة إلى تكريت وإلى ممارسة الزراعة، ولكنه كان يرى تراكم التهديدات وراجع الوضع في ذهنه قبل أن يوافق على اقتراح أحمد حسن البكر.

عندئذٍ سألت صداما إن كان ذلك ما جعله يعقد ذلك المؤتمر سيئ الصيت لحزب البعث في 1979 حين تم تطهير صفوفه من عدد كبير من أعضائه قبل أن يتم إعدامهم في وقت لاحق. شاهدت علامات غضبه حين قال إن أحد الأسباب لعقد المؤتمر كان للكشف عن مؤامرة ضد حزب البعث العراقي من تدبير البعثيين السوريين. وقال إنه تبين أنه حتى سكرتيره كان من بين المتآمرين. كانت تلك أفعال خيانة فتحرك الحزب بدافع الحفاظ على نفسه.

كنا نريد كما اعتدنا أن نختم الجلسة بسؤال تلطيفي فسألت صداما عما يحب قراءته فقال إنه يحب قراءة التاريخ والقصص العربية. سألته عن كتابه المفضل فقال: العجوز والبحر، لأرنست همنغواي. فكر في ذلك، رجل وزورق وخيط لاصطياد السمك، فتلك هي مكونات الكتاب الوحيدة ولكنها تروي لنا الكثير عن وضع الإنسان. إنها قصة رائعة.

توقّفنا عند هذا الحد ولكني كنت أدرك أن صدام كان منزعجا مني بسبب تعليقاتي حول أحمد حسن البكر.

ثبتت ظنوني في الجلسة التالية. بادرت بتوجيه سؤال إلى صدام ولكنه رفع يده وقال إن لديه ما يقوله: أريد أن أحدثك عن التفوه بأشياء مؤلمة. قلت بالأمس أنني كنت مسؤولا عن وفاة أحمد حسن البكر. هل كنت

تعرف أنه من أقربائي؟ هل كنت تعرف أنني أحبه كما لو كان أبي؟ هل كنت تعرف أننا كنا صديقين؟

شاهدت أثناء حديثه أنه كان متجها نحو حالة عاطفية شديدة، وما كنت أريد أن يستخدم الوضع كذريعة للامتناع عن محاورتنا. فقلت له إني اعتبرت نقاشنا مثمرا للغاية، إذ كان قد روى لي أشياء لم أعرفها من قبل. تظاهرت بالاهتمام بالتهديد السوري على حزب البعث وأني سألته عن أحمد حسن البكر لإطلاعه فقط على الشائعات التي كنت قد سمعتها، فبدا صدام راضيا وقال: طيب.

كانت هنالك لحظة طريفة في نقاشنا حول إيران، حين تعمدت ذكر معلومة خاطئة عن أحد وزرائه آملا أن أستفز صداما كي يصحح ما قلته ويطلعنا على المزيد عن ذلك الرجل. اعتبر صدام مناورتي الخادعة نابعة من جهل حقيقي وعلق بأني قليل الذكاء. تدخل بروس وقال: إذا تعتقد أن صديقي غبي؟ هل تقصد الغباء المشابه لقيامك بإرسال قوتك الجوية بأكملها لتأمينها لدى ألد أعدائك، إيران؟

بدا صدام مذهولا وكأنه لا يصدق تجرؤ أحد على التشكيك بحكمته بهذه الطريقة المشينة. فكان صدام إبان حرب الخليج في 1991 قد أرسل طائرات وسفن بحرية إلى إيران ليجنبها التدمير. كان يعتقد بسذاجة أن إيران ستعيدها إلى العراق، ولكن إلى يومنا هذا لم تعد تلك الطائرات، أو ما تبقى منها، إلى بغداد. كان البعض قد تكهنوا بأنه قام بذلك من أجل جر إيران إلى حربه مع الولايات المتحدة. تبسم صدام فجأة ثم انطلق ضاحكا قبل أن يرفع إصبعه ويقول: لقد أصبت. فامتدت حالة الضحك إلينا جميعنا.

كجزء من مساعيه إلى تضخيم أهميته التاريخية كان صدام يضع نفسه في أكثر الأوضاع إيجابية، آملا بأننا لم نكن نعرف ما يكفي لنناقضه. قال لنا صدام إنه لم ينظر إلى آية الله الخميني بقلة احترام، بل وادّعى بأنه بذل أكثر مما لديه من جهود للحد من الاحتفال المفرط في العراق في أعقاب وفاة الخميني في 1989، وقال إنه تلقى مكالمة من أحد معاونيه الذي كان مبتهجا بوفاة الخميني فطلب منه أن يظهر الاحترام لرجل الدين الراحل، معرضا بذلك مصداقيته إلى حد التلاشي. كان صدام يكره الخميني بصورة خاصة، معتبرا إياه عدوا لدودا. سألت صداما، إن كان يحترم الخميني إلى هذا الحد، فما الذي جعله يشير إليه بعبارات مشينة في خطاباته الإذاعية خلال الحرب. فطالبني صدام بتواريخ وساعات محددة ونصوص العبارات. قلت له أني سأجلبها إلى اجتماعنا التالي إن كان يريد الاطلاع على ما كنت أتحدث عنه.

سألته بعد ذلك عن منفى الخميني في العراق بين عامي 1964 و1979. لدى قيام العراق وإيران بتوقيع اتفاقية شط العرب في 1975 لإنهاء الخلافات الحدودية بينهما، قال صدام إن البلدين قد اتفقا على عدم تدخل أي منهما في الشؤون الداخلية للطرف الآخر. قال صدام: كان الخميني ضيفا لدى العراق. وحين تستضيف أحدا لديه مشاكل سياسية في بلدك، فذلك لا يعني أن علاقتك سيئة مع ذلك البلد. لذا باعتباره ضيفا كنا نحترم أمنه. في أعقاب الاتفاق تحدث مع الصحافيين وقدم بعض الأشرطة. بعثنا إليه عضوا من مجلس قيادة الثورة ليشرح له مضمون الاتفاقية بيننا وبين الشاه. قلنا لممثلنا بأن في حال احترام آية الله تلك الاتفاقية فسوف تستمر الأمور كما هي عليه، وإن رفض الالتزام بها

سننهي بقاءه. لدى اطلاعه على الاتفاقية قال الخميني إنه يتحتم عليه الاستمرار في العمل ضد الشاه.

عندئذٍ أطلع الخميني النظام على أنه سيغادر العراق. حاول أولا أن يذهب إلى الكويت فلم يُسمح له بالدخول. ادعى صدام أن الشاه حاول الضغط على صدام لإبقاء الخميني في العراق، ولكنه قرر السماح له بالتوجه إلى باريس بناء على طلبه.

لم يُرد صدام أن يظن أحد أنه سيفعل أي شيء بتحريض من الشاه، إلا أن ذلك لا ينسجم مع السجل التاريخي. أعتقد أن صداما ما كان يريد أن يبدو مطيعا للشاه لكونه أبعد من العراق وحتى لدى تحدثه حول التفاوض على معاهدة شط العرب، كان صدام يصر بأنه كان صاحب اليد العليا في تعامله مع الشاه وكان الشاه هو المتضرع في شأن أي تحرك نحو السلام. قال صدام إنه بعث برسالة إلى الشاه مفادها أن في حال بقاء الخميني في العراق ليستمر في عمله ضد الشاه، لكان الإيرانيون والعراقيون سيظنون أن حكومة صدام قد تراجعت عن كلمتها.

كما قال صدام: كان الأمر يمثل أحد الأسباب التي جعلت حكومة الخميني تكن كل ذلك العداء للعراق. أعتقد أن أي شخص يبلغ السلطة في إيران لن يكون صديقا للعراق.

واصل صدام حديثه المطول عن أصدقائه وخصومه داخل العراق. وبرغم صعوبة تصديق ذلك قال لنا صدام إنه يحب الأكراد: لا أدري ما الذي أحترمه فيهم، ربما لكونهم أناسا بسطاء. أحب البسطاء الريفيين، أتلاءم معهم بشكل أفضل، أهل الأرياف أكثر استقامة. الأكراد قبل 1961 كانوا شعبا بسيطا، أية أشياء ثمينة في بغداد يمكن تأمينها لدى

شخص كردي بثقة مطلقة. أما بعد 1961 فلقد استؤنفت الأعمال العدائية القديمة في الشمال، فكان على الحكومة أن ترد. قبل ذلك كانوا صدوقين، ولكن بعد حلبجة ساءت سمعتنا لدى الأكراد، فلقد فقد الأكراد إيمانهم وثقتهم بنا.

الذي زاد هذا الحديث غرابة هو أن صداما قاله بأسى وحزن كما لو كان لا يفهم ما الذي أثار غضب الأكراد تجاهه. كانت قوات صدام قد هاجمت بلدة حلبجة بأسلحة كيماوية قبيل انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية. أسفر ذلك عن سقوط آلاف القتلى وآلاف الجرحى، غالبيتهم من المدنيين، في ما وصِف رسميا بأنه إبادة بحق الأكراد العراقيين للانتقام منهم على تأييدهم لإيران. أما المفارقة فكانت أننا علمنا بعد سقوط صدام أنه لم يأمر باستخدام الأسلحة الكيماوية في حلبجة، إنما اكتشف الأمر فيما بعد. كان الفريق نزار الخزرجي هو الذي شن الهجوم. (كان الخزرجي رئيسا سابقا لأركان الجيش وقد قاد، بحسب أقوال صدام، الهجوم على حلبجة في 1988 وأمر باستخدام الأسلحة الكيماوية). أما صدام فلدى سماعه بالهجوم، ثار غاضبا، ليس لكون مهاجمة المدنيين العزل يشكل انتهاكا لحقوق الإنسان، وإنما لكونه تم في منطقة عراقية متعاطفة مع إيران. كان صدام يخشى، وكان محقا بذلك، من أن الإيرانيين كانوا سيطبلون ويزمرون لأخبار استخدام الأسلحة الكيماوية من أجل تركيز السخط الدولي على بغداد.

تعبير صدام عن حبه للشعب الكردي لم يمتد إلى قيادته. فكان ينظر إلى مسعود البرزاني - الرئيس الحالي لكردستان العراق - وجلال طالباني الذي كان سيتولى رئاسة العراق بين عامي 2005 و2014 باعتبارهما

كذابين وسياسيين لا يمكن الوثوق بهما، وقاما بدس السم في أذهان شعبهما ضد صدام، وقال: من الصعب جدا أن تثق بما يقوله جلال طالباني. وهو يعرف رأيي بذلك إذ كنت قد عبرت له عنه وجها لوجه حين قلت له: أنت تتخذ موقفا في الليل ثم تتخذ موقفا آخر في الصباح.

7

العمائم في السياسة

كان صدام ينظر إلى الدين في السياسة باستخفاف، خصوصا في حال عدم انسجامه مع رغباته، وكان حذرا بصورة خاصة من السلفية، ذلك النمط المتقشف من الإسلام الأصولي. وكان صدام يعتبر الأصولية السنية مصدر تهديد لنظامه يفوق تهديد الغالبية الشيعية في العراق، وحتى التهديد الإيراني. كان صدام، كغيره من زعماء المنطقة، قد تسلم السلطة في فترة نهوض القومية العربية، ولكنها باتت تتراجع الآن لتحل محلها الأصولية الإسلامية كالمحفز السائد في المنطقة، وهو وضع كان يعتبر صدام بأنه لن يجلب غير المتاعب، إذ قال: لقد أقنعتني كل تلك السنوات منذ عام 1977 - ولقد كتبت عن ذلك - بأن أي محاولة لإدخال الدين في الحكم والسياسة سيسفر عن إساءة للدين وسيلحق الضرر بالسياسة، فمضى حزب البعث إلى الأمام على ذلك الأساس.

كان صدام يعتقد أن السلفية ستتخطى توقعات الناس في سرعة انتشارها، لكونها تؤجج الناس المخذولين نتيجة فشل القادة السياسيين العرب طوال العقود الخمسة المنصرمة. وأضاف صدام أن العراق المحاط بالأردن والكويت وتركيا والسعودية وإيران ما جعله قاعدة خصبة

للأصولية. وقال: الشعب العراقي كان يعيش حياة متوازنة، فلو حقنته بأي تيار أجنبي سيتزعزع توازنه. لذا، ففي حال دخول السلفية، سيقوض ذلك توازن العراق.

كان صدام قد استخدم نظام الغنائم، حين كان يوزع السيارات والنقود على شيوخ العشائر من أجل الحفاظ على ولاء القبائل السنية. وما زاد من خطورة التهديد السلفي هو أنه نابع من قاعدة تأييده السنية، وكان اجتثاث السلفية صعبا دون تنفير القبائل العراقية، وكان السلفيون سيعتمدون على دعم مالي مستمر. لو سُمِح للسلفيين بنشر فكرهم فستتقوّض قاعدة سلطته من الداخل.

في مقطورتي السكنية كنت أفكر بما قاله صدام عن الأصولية. كنت في العديد من الليالي أضع السماعات على رأسي لأخلد إلى النوم وأنا أستمع إلى الموسيقى، ولكن في ليال أخرى كان يؤرقني بعض ما قاله صدام، وكانت هذه الليلة إحداها. طوال السنوات التي أمضيتها في تحليل صدام لم يخطر لي للحظة أن صداما كان يخشى السلفيين، وهم من المسلمين السنة المتشددين بتمسكهم بتعاليم الرسول محمد وبالقرآن الكريم وبالحديث النبوي.

صحيح أنه كانت هنالك لحظات توتر مع الأصوليين، خصوصا في 1996 حين أعدم صدام أحد شيوخ قبيلة الدليم - إحدى أكبر العشائر السنية في العراق - بتهمة الخيانة. ولكنني وغيري من المحللين اعتبرنا ذلك استعراضا للقوة من قبل صدام وشبكته القبلية. لم نرصد أي مؤثر ديني على عملية الإعدام. كنا نعرف عن تنامي الحركة الأصولية في العراق التي كانت تختبئ من المخابرات وتنظر بريبة تجاه الولايات المتحدة، ولكن

الأمر لم يتجاوز ذلك. كمحللين كنا نعتبر أن هذه مجرد فئة أخرى كان سيسحقها صدام لو تحولت إلى مصدر تهديد جدي. أثناء تقلبي في سريري في تلك الليلة كنت أتأمل ما الذي جعل المحللين يخطئون في تحليلهم. ما الذي كان يجعل **جزار بغداد** يخشى السنة الذين يشكلون العمود الفقري لمؤيديه؟ كان صدام يقدم لنا دلائل عن الرجل الكامن وراء الأسطورة، وكان بعض ما قاله يمثل ما لم يرد البيت الأبيض سماعه. كان صدام يطلعنا على وجود ضغوط لا بد له من تدبر أمرها في حكمه للبلاد، أي أنه كان عليه أن يلتزم الحذر في تعامله مع السياسة العشائرية في قلب الأراضي السنية.

كان صدام قد أخضع الغالبية الشيعية، وبالقوة في الكثير من الأحيان، إلا أنه لم يتمكن من القضاء الكامل على التهديد الشيعي لنظامه. كما كان حكيما في تحويل ضعفه إلى قوة، من خلال استخدامه للشبح الشيعي كوسيلة للاحتفاظ بولاء السنة الذين كانوا بمعزل عن ذلك ربما يتطلعون إلى إطاحته. قلد وضع صدام نفسه حاميا للأقلية السنية.

غير أنه كان على يقين من أنه لن يكسب أبدا ثقة السنة الأصوليين. كانت القوى السلفية، بحسب صدام، تسعى إلى التسلل داخل النظام لتهدد بذلك قوة قبضته على السلطة. أوضح صدام صورة لهذا التهديد حين روى لنا عن كامل ساجت الجنابي الضابط العراقي الواعد الذي كان بطلا في الحرب العراقية - الإيرانية وكان قد خدم كعضو في هيئة الأركان العامة. وفي أعقاب احتلال الكويت تم إرساله إلى الكويت للمساعدة في أعمال الاحتلال. ومن ذلك الموقع القريب كان شاهدا على تدمير الجيش العراقي في حرب الخليج لعام 1991. كان الجيش أعز

المؤسسات لديه، فكان إذلاله ما جعل أمله بالنظام يخيب. قال لنا صدام إنه كان يعز كامل ساجت، وأعفاه من الخدمة الفاعلة ليضمه إلى (مديرية المحاربين) وهم ضباط كانوا يرتدون ملابسهم العسكرية ويتسلمون رواتبهم العسكرية رغم كونهم قد تقاعدوا رسميا. خلال عقد التسعينيات بدأ كامل ساجت بقضاء أوقات طويلة في العمل الديني، فنصحه صدام على انفراد بأن الدين يتميز بالنبل ولكن عليه أن يحذَر أصدقاءه الجدد. إلا أن صدام علم أن كامل ساجت كان يتواصل مع السلفيين.

في أواخر 1998 وجه صدام ضربته الأولى قبل أن يتم تنفيذ انقلاب مزعوم، وأمر باعتقال كامل ساجت ومن ثم بإعدامه لتآمره ضد النظام. أما المؤامرة، إن كان لها وجود في الأساس، فكانت لا تزال في مراحلها الأولى. كانت معالم الألم واضحة على وجه صدام وهو يروي لنا قصة كامل ساجت، ولكن الولاء كان فوق جميع الاعتبارات. قرأت بعد سنوات عديدة كتابا ملفتا بعنوان (مثقال حبة الخردل) للكاتب ونديل ستيفنسون، كشف فيه عن قصة كامل ساجت ومقتله من قبل المخابرات. كان كامل ساجت ضابطا عراقيا وفيا قبل أن يخيب أمله بقيادة صدام في أعقاب غزو الكويت. ثم انجذب إلى جماعة من السنة المتحمسين للدين اتّهموا لاحقا بمحاولة قلب نظام صدام وتم إعدامهم. ولكن الذي لم يكشف عنه ستيفنسون هو أن ارتباط كامل ساجت بالسلفيين هو الذي قضى عليه. ثم بعد بضع سنوات انتمى أولاد كامل ساجت إلى تمرد تنظيم القاعدة في العراق ضد الأميركيين.

نفى صدام وجود أية صلة له بتنظيم القاعدة، مصرا بأنه كان من ألد أعدائه. سألناه عن اعتداءات الحادي عشر من أيلول فسارع إلى تفنيد

الحجج القائلة إنه متورط فيها وسأل: ما الذي يجعلكم تعتقدون بأني فعلت ذلك؟ من أي بلد أتى هؤلاء؟. وذلك المدعو محمد عطا؟ هل كان عراقيا؟ كلا، بل كان مصريا. لِمَ لا تذهبون لتسألوا حسني مبارك عمن هم المسؤولين عن تلك الهجمات؟ لماذا تعتبروني متورطا في الهجمات؟

ذكرت له أن الأميركيين المتابعين لأخبار العراق أغضبتهم افتتاحية عدي في صحيفته (بابل) التي أظهرت عدي شامتا حيال الهجمات، ولكن صدام قال: ما هو تأثير ما يقوله ابني؟ هل كان عضوا في الحكومة؟ كلا.

أوضحت لصدام بأن افتتاحيات بابل كان لها وزنها لكونها صادرة عن شخص كان يبدو ذات يوم ولي العهد المفترض، ولكون بعض أعضاء حكومتنا ما زالوا يعتقدون أنه يتحدث بالنيابة عنه. أما صدام فلم يصدر عنه غير الضحك لدى سماعه ذلك.

أما في ما يتعلق بفهم الشارع العراقي فلم يكن لصدام مثيل. ما من أحد غيره كان يعرف أحلام العراقيين وتطلعاتهم وقدرتهم على الخيانة. ولكن حين كان الأمر يتعلق بتعامل الأمم بعضها مع بعض، أو ما يحرك دولة بعيدة مثل الولايات المتحدة، فكان الموضوع يفوق قدرات صدام على فهمها. لم يتفهم مدى تأثير اعتداءات أيلول التي اعتبر أنها ربما تحقق التقارب بين العراق والولايات المتحدة. فبما أن الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن نفذها متطرفون إسلاميون، تصور صدام أن الولايات المتحدة ستكون بحاجة إلى حكومته العلمانية لمساعدتها على مكافحة وباء التطرف السلفي. كان صدام محقا في تشخيص الداء ولكنه أخطأ كليا في تقييم الخطة التالية من العلاج. فكانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرارا بأن أيام التسامح مع صدام قد انتهت وأن الوقت قد حان لإطاحته.

صدام لم يقر بذنبه في أي جريمة من الجرائم المنسوبة إليه، وكثيرا ما كان يجيب عن أسئلتنا حول انتهاكات حقوق الإنسان بقوله إن علينا أن نتحدث مع القائد الميداني. والمرة الوحيدة التي اقترب فيها من الاعتراف بالخطأ جاءت لدى تناولنا موضوع غزو الكويت في 1990. كان مبرر العراق المعلن للغزو هو أن الكويت كانت تسرق النفط العراقي باللجوء إلى ما يسمى بالحفر المائل، وهي الوسيلة التي تلجأ إليها دولة ما لاستخراج النفط من آبار تقع خارج حدودها. ومن بين العوامل الأخرى كان عجز العراق عن تسديد قيمة قرض بخمسين مليار دولار كان العراق قد حصل عليه من الكويت إبان الحرب العراقية - الإيرانية، وقيام الكويت (ودولة الإمارات العربية المتحدة) بزيادة إنتاجهما من النفط مخفّضة بذلك سعر النفط الخام الذي كانت قد حددته منظمة أوبك والبالغ 18 دولارا للبرميل الواحد، ما أدى إلى انخفاض واردات العراق النفطية. (وكانت الكويت قد عادت والتزمت بسقف إنتاجها المحدد من قبل أوبك، وذلك قبل الغزو بأيام عدة). أما الغزو واحتلال العراق للكويت لمدة سبعة أشهر فلقد اجتذب تنديدا دوليا وأدى بالتالي إلى نشوب حرب الخليج. دفع الغزو نحو أربعمئة ألف كويتي - أي نصف عدد سكانها تقريبا - إلى الهروب من بلدهم. وقام العراقيون بنهب الكويت، ولدى تراجع القوات العراقية قاموا بإشعال النار في 600 من أصل 700 بئر نفطي كويتي، ملحقين بذلك أضرارا بالبيئة ومشاكل صحية لدى الكويتيين.

في أول لقاء لنا مع صدام بدا وكأنه يجفل من ذكر الكويت، ولدى عودتي إلى ذكر الموضوع بدت على وجهه علامات ألم شديد قبل أن

يحاول تغيير الموضوع. ارتأيت أن أترك الموضوع لكوننا كنا نريد أن نجعله يتكلم و لم أرد أن أدفعه إلى السكوت قبل تمكننا من إقامة حوار معه. ثم في الاجتماع التالي عدت وأثرت موضوع الكويت، فوضع صدام يديه على رأسه وقال: آخ، يصيبني ذلك بصداع شديد!

كان ذلك أقرب ما بلغه من الإقرار بأن الغزو كان خطأً لن ينساه أحد.

في 1990 أرسل التحالف المكون من أربع وثلاثين دولة 700 ألف عنصر من قواها المسلحة، من بينها 540 ألفا من الأميركيين، انتشرت غالبيتها في المملكة العربية السعودية (وكانت السعودية قد ساهمت بستة وثلاثين مليار دولار من إجمالي تكاليف الحرب التي بلغت 60 مليار دولار). سألنا صداما إن كان قد فكر في استخدام أسلحة الدمار الشامل بشكل استباقي ضد القوات الأميركية في السعودية، فقال: لو كانت قواتكم قد احتشدت في أي بلد آخر غير السعودية، لكنا هاجمناها. نحن نعتبر أراضي السعودي مقدسة، وكان وجودكم فيها بمثابة خطيئة، فما كنا نريد ارتكاب خطيئة بضربكم هناك. كلا، لم نفكر أبدا في استخدام أسلحة دمار شامل. لم نتباحث بذلك... أن نستخدم أسلحة كيماوية ضد العالم؟ هل سيفعل ذلك أحد بكامل قواه العقلية. أن نستخدم هذه الأسلحة وهي لم تستخدم ضدنا؟

سألنا صداما عن نواياه في تشرين الأول 1994 حين حرك العراق عشرة آلاف من قواته، بما فيها عناصر من فرقتين من فرق النخبة التابعة للحرس الجمهوري، في اتجاه الحدود الكويتية. قال إن التحركات كانت مجرد تمارين مصممة لإرباك الولايات المتحدة والكويت حول نوايا صدام

ومن أجل تعريف قواته على ساحات القتال المحتملة في جنوب العراق. وقال صدام: تعرفون أننا كنا لم نزل في حالة حرب منذ عام 1991، لذا فكان إبقاء القوات في مواقعها يعتبر من الأخطاء لكونه سيعرّف العدو على مكان وجود قواتنا، فجعلها تتحرك وتناور سيربك العدو وهو يسعى إلى التعرف على ما يجري. كنا نتطلع إلى إخافة الكويتيين كي يوقفوا المناوشات الحدودية. كان الخوف هو الذي جعل بعض الكويتيين يغادرون إلى الخارج، وهي نتيجة جيدة ولكنها لم تكن من ضمن نوايانا.

أما الرئيس كلنتون فلقد صرح بأن صداما سيكون مخطئا جدا لو كان يظن أن الولايات المتحدة قد ضعفت عزيمتها منذ حرب الخليج، وأمر بإبحار قطع حربية أميركية إلى مياه الخليج وأعد العدة لنشر أربعة وثلاثين ألفا من قوات المشاة إلى المنطقة. كما عبر مجلس الأمن الدولي عن قلقه الشديد حيال تحركات القوات العراقية، التي سارعت بالانسحاب.

كتب المؤرخ والدبلوماسي البريطاني، السير برنارد بارس أن الثورة الروسية كانت بداياتها في حضانة القيصر نيكولاس، مشيرا إلى ولده المصاب بمرض النزيف المزمن والدور الذي لعبه وضعه الصحي في سقوط عائلة رومانوف. أما في ما يتعلق بصدام فكان الضغط الكبير على حكمه مصدره غرفتا النوم والمعيشة لعائلته. كان هذا موضوعا يتجنبه صدام في حديثه، إلا أنه كان يبذل الكثير لضمان تفهمنا بأنه كان رئيس عشيرته بلا منازع. حين سألته عن زوجته، ساجدة، قال صدام إن ما بينهما كان الحب من أول نظرة. كان صدام قد نشأ وترعرع مع عائلتها برعاية والدها – الذي كان في الوقت ذاته خاله – خير الله طلفاح الذي كان

سياسيا في بغداد ولديه روابط بشخصيات عسكرية، كما كان البريطانيون قد سجنوه إبان الحرب العالمية الثانية لتعاطفه مع النازيين. أعرب صدام عن احترامه العظيم لخير الله، وكان يعرف أن زواجه من ابنته كان سيخدم مسار حياته السياسية. ولقد امتنع صدام عن ذكر بعض مميزات خير الله الرديئة، فخلال المراحل الأولى من حكم صدام، حين كان يشغل خير الله منصب أمين العاصمة بغداد، كان جشعه الفاسد قد بلغ حدا دفع صدام في نهاية الأمر إلى عزله. ثم مضى خير الله إلى تأليف كتاب قصير بعنوان (الفرس والذباب واليهود: ثلاثة ما كان على الله أن يخلقهم).

كان صدام يمتنع عن التحدث عن زوجته بما يتجاوز الإعراب عن تعلقه بها. سألته عن مكان وجودها ولكنه قال: لن أطلعكم على ذلك.

ثم حين سألته عن زوجته الثانية، سميرة الشهبندر بدت عليه معالم الانزعاج. كان صدام قد أوجد شرخا خطيرا في عائلته لدى ارتباطه بزوجة ثانية، الأمر الذي يقره الدين الإسلامي. كان صدام يفضل صحبة سميرة على صحبة زوجته (الرسمية) ساجدة، السيدة الأولى في جمهورية العراق. شعرت ساجدة بألم عميق، **بعد أن كانت تغض النظر عن غرامياته المتكررة.** وأسفر الأمر عن التنافر بين صدام وأقربائه من آل طلفاح الذين مكنوه من تسلق السلم السياسي. قال صدام: لن أتحدث عنهم. لدينا مقولة مفادها أن النساء منعزلات. لا تحدث عنهن ولا علاقة لهن بالشؤون السياسية. كما كان الموضوع قد أثار غضب عدي الذي كان مقربا جدا من والدته، وكان يشمئز من أي شخص أو أي شيء يؤذيها. وقام عدي بقتل خادم صدام الشخصي، كامل حنا، في أواخر

الثمانينيات، وكان البعض قد تكهن بأن عدي قد أزعجه قيام حنا بجلب النساء ليعاشرهن صدام.

قلنا لصدام إننا نتعاطف معه ولكننا كنا ملزمين بطرح هذه الأسئلة. ذكّرته بأن نجل سميرة من زوجها الأول كان يتدرب على الطيران في الولايات المتحدة في التسعينيات. وحين اكتشفت وسائل الإعلام هذه الصلة، بادر الصحافيون على الفور إلى التكهن باحتمال الأمر حلقة مفقودة في اعتداءات الحادي عشر من أيلول. أوضحت له بأننا على علم بأن سميرة كانت مضيفة وأن زوجها السابق كان رئيسا للخطوط الجوية العراقية، وكان من الطبيعي لدى العائلات العربية أن يتبع الابن الأكبر مهنة والده، فقال صدام إن هذه هي الحقيقة. ثم سألته عن الشائعات القائلة إنه قد أنجب ولدا من سميرة اسمه علي. عندئذٍ كانت ملامح صدام تشير إلى شعوره بالألم الشديد كما بدا أكثر انزعاجا من ذي قبل، ثم قال: إن أقريت بذلك فهل ستقتلونه كما قتلتم عديا وقصيا؟

نظرت إلى الدكتاتور العراقي وأخبرته بأنني لم أقتل أحدا. ثم عدت بإصرار إلى سؤالي، فقال صدام أخيرا: لدينا مقولة عربية مفادها أن الذين ينجبون أطفالا نعتبرهم متزوجين، سواء تم عقد القران أو لم يتم. والذين لا أطفال لديهم نعتبرهم غير متزوجين. هذا كل ما سأقوله.

فسرنا ذلك على أنه تأكيد بأنه وسميرة لديهما بالفعل ولد اسمه علي. قد لا يبدو ذلك ملفتا في الوقت الحاضر، ولكن كوني قد تابعت شأن صدام لسنوات عديدة، سررت إزاء تأكدي من أن الشائعات كانت صائبة. يبدو أن سميرة الشهبندر فعلت كل ما في وسعها لحماية ابنها من التقلبات السياسية في العراق، ولا بد وأنها كانت تدرك بأن هنالك

احتمال لجوء من تبقى من حزب البعث إلى الاتصال بعلي كي يواصل عمل والده. كما كان ممكنا وجود عدد من الجماعات الشيعية الراغبة بالقضاء على آخر وريث ذكر لصدام. ولكن عليا، كما فعلت والدته، يبدو أنه تمكن من الإفلات من قبضة التاريخ، لحسن حظهما.

قال لي صدام إنه كان فخورا بعدي وقصي مع كونه واقعيا حيال جوانبهما السلبية، وكان أحيانا يجد نفسه مضطرا لمعاقبتهما. وكان عدي بشكل خاص مصدرا للمشاكل، وروى كيف ثار غاضبا حين علم بأن عديا كان يحتفظ بسرب من سيارات بنتلي ومرسيدس وجاغوار في مرأب ببغداد كان محاطا بحماية عناصر من الحرس الجمهوري، ومضى صدام معلقا: ما هي هذه الرسالة التي أرسلناها إلى الشعب العراقي الذي كان يعاني من العوز في ظل العقوبات؟

أمر صدام بحرق السيارات، وذلك قبل فترة قصيرة من قيام عدي باستفزاز صهر والده حسين كامل إلى حد جعله ينشق ويفر إلى الأردن في 1995، وقد كان وزيرا للصناعة والتصنيع العسكري. كان عدي ثملا وفاقدا السيطرة على نفسه حين ذهب لحضور حفلة في منزل حسين كامل، حيث تشاجر مع صدام كامل، شقيق حسين كامل. تغلب صدام كامل على عدي في الشجار، ما دفع عدي إلى الإمساك بسلاح أطلق به النار في أرجاء المنزل، فأصاب الأخ غير الشقيق لأبيه، وطبان. ثم في أعقاب ذلك الحدث توجه الشقيقان مع زوجتيهما – وهما ابنتا صدام – إلى الأردن. انشقاق الأخوين كامل وبصحبتهما ابنتا صدام وأحفاده، هز كيان النظام وأحدث شرخا في دائرة المقربين من صدام، وأمام أنظار العالم.

المرة الوحيدة التي أظهر فيها صدام مشاعره العاطفية طوال فترات حواري معه كانت نتيجة تحدثنا عن ابنتيه، رنا ورغد. مرت لحظة تجمعت خلالها الدموع في عينيه وارتجف صوته، و لم يقل غير: أفتقدهما كثيرا. كنت أتمتع بعلاقة رائعة بهما. كانتا تحبانني جدا كما كنت أنا أحبهما كثيرا.

أما في ما يتعلق بزوجيهما فكانت نظرته معتمة تجاه من كان يشك بولائه أو من كان يسرق المال منه، وكان يعتبر الأخوين حسين وصدام مذنبين في كلتا الحالتين. بعد فرارهما قال صدام إنه لا يريد غير استعادتهما وأحفاده. كان يخشى ما كان قد يصيبهما في بلد أجنبي بعيدا عن حمايته. وقال صدام إنه لم يوعز بقتل الشقيقين لدى عودتهما إلى العراق في 1996 و لم يسمع عن مقتلهما إلا في وقت لاحق. وقال إنه كان لتوه قد وقع وثيقة تخول عودتهما حين بلغته أخبار تبادل إطلاق النار الذي أدى إلى قتلهما، فأضاف إلى الوثيقة (سيف العدالة قد عاقب الأشرار).

سألت صداما عن كيفية سماعه خبر مقتل عدي وقصي، فقال إنه سمع النبأ بالراديو من هيئة الإذاعة البريطانية. كيف كان شعوره إزاء مقتلهما؟ فقال صدام: لقد توفيا وهما يقاتلان من أجل تحرير بلدهما، وتلك كانت أنبل نهاية يمكن للمرء أن يتمناها.

قال صدام إنهما قُتلا ليس لكونهما ولدي، بل لكونهما عراقيين. وقال إن القائد الذي يهتم بأبنائه بدرجة تفوق اهتمامه بشعبه لا يمكن احترامه. كان صدام يعرف أنهما كانا معا لدى وفاتهما، ولكنه أنكر بأنه أوعز لهما بذلك. قال إنهما تعرضا إلى الخيانة، كما تعرض هو، ووصفهما بأنهما شهيدان. سألته إن كانا بصحبته لدى فراره من بغداد، فأجاب صدام: ربما.

عدي وقصي كانا قد توجها إلى الموصل واختبأا في قصر أحد الشيوخ، وهو أحد أقربائهما وكان ملزما بشرفه بتوفير الملاذ لهما. بعد مرور بضعة أسابيع أصيب الشيخ بالتوتر حين باشرت فرقة المشاة الرابعة الأميركية بتسيير دوريات في منطقة القصر، فسأل نجلي صدام عن نواياهما في ما يتعلق بمغادرتها. ويبدو أن قصيا قال له إنهما أصحاب القرار في ذلك وعليه أن يصمت، فلقد قدما له مبلغا كبيرا من المال مقابل مكوثهما لديه. عندئذٍ ترك الشيخ ضيفيه في المنزل حيث كانا قد أمضيا أسابيع وهما يلعبان ألعاب الفيديو، وتوجه إلى نقطة تفتيش تابعة للجيش الأميركي، فسأل إن كانت هناك جائزة لمن يقدم معلومات عن ابني صدام، فأخبروه بوجود جائزة. شرح الشيخ للجنود هوية المقيمين لديه وطلب من قوات الجيش أن تأتي لتأخذهما. قامت القوات الأميركية بتطويق المبنى واندلع إطلاق نار قُتل فيه كل من عدي وقصي ومصطفى نجل قصي وأحد الحراس الشخصيين.

كانت علاقات صدام بإخوته غير الأشقاء - وطبان وسبعاوي وبرزان - مضحكة أحيانا. فلقد روى لنا صدام أنه بلغه ذات يوم أن موكب وطبان كان مارا في بغداد حين فقد وطبان صبره من إشارة المرور، فترجل من السيارة الحكومية وسحب مسدسه وأطلق النار على الإشارة، ثم مضى في طريقه. قام صدام باستدعاء وطبان إلى اجتماع في القصر الجمهوري، حيث قال لوطبان إنه قد بلغه وقوع حادث وسأله إن كان ذلك صحيحا. بدا لنا صدام مستمتعا لدى وصفه لتوتر وارتباك وطبان لدى قيامه بوصف التفاصيل. كما اعترف وطبان بأن سيارته ضربت أحد المارة الراجلين. أكد له صدام بأنه لا يقبل مثل هذا التصرف

في بلده، فهي جمهورية يحكمها الشعب. ثم حكم على وطبان بتسيير حركة المرور لمدة شهرين في الساحة نفسها التي وقع فيها الحادث. كان صدام يعتبر أقرباءه مصدر إزعاج أحيانا، وعليه أن يتحملهم مع تذكيرهم على الدوام بوضعهم الثانوي.

كان صهره عدنان خير الله، وزير الدفاع السابق، قد قتل في حادث مروحية غامض في 1989، وكان العديد من الخبراء في الشأن العراقي يخمنون بأن صدام أمر بقتله لكونه كانت لديه شعبية واسعة بين صفوف القوات المسلحة قد تجعله يتحدى صدام على الرئاسة بعد انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية. غير أن صدام ظل يصر بأنه كان يحب عدنان خير الله وكانت مودته تبدو حقيقية لدى تحدثه عنه. كان صدام قد زار الخطوط الأمامية بصحبة عدنان خير الله حيث بدا متقبلا جدا لنصائحه، ووصف فقدان نسيبه قائلا بحزن عميق: شعرت كما لو كان مسمارا قد اخترق قلبي. كانت تلك هي بداية المتاعب. فسّرت إشارة صدام إلى المتاعب بأنه كان يشير إلى نقطة تحول في ذهنه، حين تجاوز باعه مقدار تفهمه للسياسة الإقليمية، وتناقص عدد من يثق بهم من الرجال القادرين على مساعدته في تحديد خط مسار العراق في هذه المنطقة الإقليمية المليئة بالمخاطر. أدركت بأن عدنان خير الله كان من بين القليلين الذين كان يثق بهم، إذ كان قادرا على قراءة مزاجه وعلى تقديم نصحه دون أن يجعله يشعر بالإساءة. وقال صدام إن عدد الرجال الجديرين بنيل ثقة القائد قليلون بدرجة تجعل اتخاذ القرارات الفردية صعبا إن أراد تنفيذها بأمانة من قبل شعبه. وكان صدام يرى نموذجا لذلك الرجل في عدنان خير الله.

قال لنا صدام إن نقطة التحول في حياته جاءت حين كان صغيرا

جدا: كنت الثاني من بين أبناء العائلة، وكان أكبرنا، أنور قد رحل وهو في شهره الرابع أو السادس. ثم وِلِدت أنا وتوفي أبي قبل ولادتي ببضعة أشهر. لدى وفاة أبي انتقلت أمي إلى بيت والدها، طلفاح مسلط، وكان خالي هو خير الله طلفاح، وكان يعمل مزارعا في أرض يمتلكها في الجانب الآخر من نهر دجلة. كان يسكن في تكريت وكان لديه اثنين أو ثلاثة من الفلاحين. كانت التقاليد تقضي بتولي الأعمام شؤون العائلة لدى وفاة الرجل، وكان لدي ثلاثة أعمام. كانوا لطيفين جدا و لم يأخذوني من جدي. ثم توفي جدي وقرر عمي نقل العائلة إلى بغداد. كنت قد بلغت الثانية من عمري. بعد فترة قصيرة جاء أحد أعمامي ليطلب الزواج من أمي، وهو إبراهيم حسن، فانتقلنا إلى تكريت ومنها إلى العوجة. ولقد التحقت بالمدرسة بقرار مني وليس من عمي!

سألت صدام إن كان عدنان خير الله ضليعا في ذلك القرار فقال صدام: كلا. كان عدنان أصغر سنا مني، ولكن ابن عم والدتي (عمر مسلط) كان سنه يقارب سني، وحين كنت في التاسعة أو العاشرة كنا أنا وهو نسبح في النهر وكان الجو باردا فاستلقينا على الرمل الدافئ. بدأ في كتابة بعض الأرقام والأحرف، فسألته عنها، فأجابني بأنها الأبجدية. سألته كيف تعلم ذلك فقال، في المدرسة. فسألته إن كان عليه أن يدفع نقودا، فقال لي إن الدراسة مجانية، وسألته إن كانوا سيقبلونني، قال نعم. أخبرت عمي ووالدتي، فطلب مني عمي أن أنسى الموضوع إذ لدينا الكثير من العمل. ولكني قررت برغم ذلك أن ألتحق بالمدرسة، وأخذني ابن عم والدتي إلى تكريت لتسجيلي في المدرسة. أعمامي وخوالي كانوا يحبونني جدا وكانوا يعاملونني كما لو كنت أكبر سنا.

8

الموت للشيعة وللصهاينة

خلال الأسبوع الثاني من استجوابنا باشرنا تناول السياسات الإقليمية، وبرغم محاولة صدام الترفع وعدم مساس القادة الآخرين بالسوء، كان في بعض الأحيان لا يحسن السيطرة على نفسه. كان يعتبر نفسه أعظم العظماء وأرقى بمراحل من أقرانه في المنطقة. كان يفتخر بكونه قائدا عربيا، ولكنه لم يتطلع بالضرورة إلى قيادة جميع العرب: لا أريد غير قيادة العراقيين، فهم أنبل الناس.

كان يرتاب من الاعتماد على العاهل الأردني الراحل الملك حسين، كما كان يعتبره خادما لإسرائيل وللولايات المتحدة. لم يتحدث بغير الازدراء عن جيل القادة الشباب، خصوصا عن بشار الأسد في سورية والملك عبد الله في الأردن. وسألناه عن الزعيم القومي المصري جمال عبد الناصر فتبسم وقال: كان رجلا جيدا ولكنه توفي قبل أن يتمكن من تنفيذ خطته بشكل كامل، كما كان سريع الدخول في صفقات مع أعداء ما كانوا سيلتزمون بكلمتهم. ولم يذكر أي زعيم عربي آخر بالمديح المطلق، فكان يعتبرهم أقل منه سواء بالذكاء أو بحسن التدبير.

من المواضيع المتكررة خلال جلسات الاستجواب كان تذمره من احتجازه وطلباته للكماليات، كما كان كثير الانتقاد لحرمانه من مستلزمات الكتابة، ويقول: يجب أن تفهموا. أنا كاتب، وما تفعلوه بحرماني من قلم وورق يعتبر انتهاكا لحقوق الإنسان!

كما كان صدام يطلب باستمرار تزويده بمواد يقرأها لقضاء الوقت. قال لنا إن أحد حراسه كان قد أعطاه نسخة عربية من كتاب فيودور دستويفسكي (الجريمة والعقاب)، وقال: هذا الرجل دستويفسكي لديه نظرة ملفتة تجاه وضع الإنسان. وكان معجبا بالروائي المصري نجيب محفوظ وطلب منا أن نشتري له النص العربي من (ثلاثية القاهرة).

برغم محاولاتنا لعزل صدام عن الاطلاع على مجرى الأحداث، لم ننجح في ذلك بشكل كامل. كثيرا ما كنا نسمع دوي الانفجار البعيد لقنابل المتمردين، فكان واضحا لديه أن الأوضاع لم تكن لصالح التحالف بقيادة الولايات المتحدة، وكانت تسره معاناتنا في بسط الاستقرار في بلاده. كان قد أمضى سنين طويلة لتحقيق ذلك المستوى من السيطرة التي كان يتمتع بها، وكانت الولايات المتحدة مغفلة في توقعاتها بأنها ستتمكن بكل بساطة من الدخول لتحل محله. كانت الفكرة القائلة إن غزو العراق سيتم بمنتهى السهولة قد تمخضت عن حالة مذهلة من الغباء والغرور. لم تتمكن وكالة الاستخبارات المركزية ولا غيرها من الوكالات الحكومية من إقناع صانعي السياسة بأن صدام كانت لديه نظرة ثاقبة، بل كان بعض محللي الاستخبارات قد أطلقوا على العراق اسم (جمهورية الخوف) اقتداء بعنوان كتاب أصدره في 1989 كنعان مكية - وهو أستاذ عراقي المولد بجامعة برانديس كان من مؤيدي الغزو الأميركي، كما أسس

(مؤسسة الذاكرة العراقية)، وهي مؤسسة غير حكومية تكرس عملها لتوثيق جرائم صدام حسين.

الحقيقة هي أن حكم صدام لم يرتكز كليا على الخوف، فكان لديه العديد من المعجبين وكان قد تمكن من كسب تأييد أصحاب النفوذ من السنة، وحتى بعض الشيعة والأكراد. كان يعرف مواطنيه معرفة لم ولن نبلغها. ومع مطالبات إدارة بوش بالمزيد من الاستخبارات عن العراق، كانت تتفاقم صعوبة إيصال تفهم واقعي عن صدام ونواياه. وتزايدت مطالبات إدارة بوش بالمزيد من المعلومات بدرجة كادت تغرق الوكالة. لم يمر الكثير من الوقت قبل لجوء أجهزة الاستخبارات إلى تقديم تقارير تتلاءم مع مستوى تفهم مسؤولي الإدارة الذين لم يكونوا يعرفون الكثير عن المنطقة. وكانت النتيجة الحتمية أن يعاني مستوى التحليلات تحت وطأة تلك الضغوط، وكان قد ذهل صدام حيال جهل الولايات المتحدة - بكل ما لديها من قوة وثروات مالية - لشؤون العالم العربي.

قال صدام: سوف تفشلون، وتجدون أن حكم العراق ليس بتلك الدرجة من السهولة. ستفشلون في العراق لأنكم لا تعرفون اللغة ولا التاريخ، كما إنكم لا تفهمون الذهنية العربية.

قال صدام إنك لن تفهم العراق بدون فهم جغرافيته ومناخه. قال إن الربيع هو موسمه المفضل رغم قصره. وقال إن البغداديين بشكل عام يفضلون الخريف الذي يدوم نحو شهرين، ولكن الربيع في بغداد لا يدوم غير حوالى عشرين يوما. وتابع صدام قائلا: من الصعب أن تعرف الشعب العراقي ما لم تكن تعرف مناخ البلد وتاريخه. الفرق هو بين النهار والليل، وبين الصيف والشتاء. وهذا ما يجعلهم يقولون إن العراقيين

(رأسهم حار) – بسبب حرارة الصيف. وحين تزداد الحرارة في الصيف القادم، ربما يثورون عليكم. كان صيف 1958 حارا، كما حصل في الستينيات فوقعت الثورة. ربما عليكم أن تبلغوا الرئيس بوش بذلك على هامش تقريركم!

التهديد الشيعي الداخلي كان الشغل الشاغل لصدام خلال التسعينيات. قال لنا ذات مرة: إن أعطيتهم الفرصة سيتآمرون عليك ليلا ونهارا، فعليك بالتالي أن تراقبهم بعين الحذر.

كان ذلك صحيحا بشكل خاص في أعقاب اغتيال رجل الدين الشيعي البارز محمد صادق الصدر في 1999 بينما كان عائدا إلى بيته بسيارته مع نجليه بعد أدائهم صلاة الجمعة، ليواجه النظام بالتالي أقسى اختبار له منذ حركة التمرد التي اجتاحت جنوب العراق في أعقاب حرب الخليج، حين نفذ صدام خطته سيئة الصيت (خطة أمن بغداد) للمرة الأولى والوحيدة، التي كانت بغداد بموجبها تحاط بعدد من الدوائر الأمنية مع نشر قوات من الحرس الجمهوري الخاص المؤتمنين بالسيطرة على النقاط الحساسة في العاصمة.

الانتفاضة التي اندلعت إثر اغتيال محمد صادق الصدر اشتعلت لفترة قصيرة قبل أن يتم إخمادها بوحشية خلال بضعة أسابيع. أما إدراك طبيعة الحدث بعد وقوعه فيبين أن مقتل الصدر كان يمثل نقطة لبداية لنهاية نظام صدام. كان الشيعة قد اضطروا إلى مشاهدة إعدام محمد باقر الصدر في 1980 حين كانوا عاجزين عن التحرك ضد النظام. أما في 1999 فكان نظام صدام القمعي لم يزل مخيفا، ولكن مجموعات شيعية عادت فجأة إلى استهداف مسؤولي النظام وإلى إطلاق النار على مكاتب حزب البعث

خلال ساعات الليل، إلى غير ذلك من أساليب إثارة الفوضى. حين تحدثت مع أحد الصدريين في 2008 حول الفترة التالية لاغتيال محمد صادق الصدر، قال لي: لم يعد في وسعنا أن نتقبل مصيرا يفرض علينا الوقوف مكتوفي الأيدي أمام أفعال النظام، فكان علينا أن نقوم بشيء ما.

ما الذي زرع هذا الشعور لدى الشيعة؟ كان محمد صادق الصدر أول رجل دين شيعي مرموق يبدو مهتما بالفقراء والمعدومين في العراق، فبعكس ما كان عليه رجال الدين الهادئين – أي الداعين إلى فصل الدين عن السياسة – بزعامة آية الله العظمى علي السيستاني، كان الصدر يريد من الشيعة أن يطالبوا بحقوقهم وأن يتبنوا الحراك السياسي ضد نظام صدام. كان الصدر يدعو إلى (حوزة يسمع صوتها) – في إشارة إلى الكلية الدينية الشيعية في النجف، التي تعتبر أهم مؤسسة دينية شيعية في العالم – وكان الصدر يعتبر أن تطلعات الناس يمكن تحقيقها من خلال النشاط السياسي، كي يتمكن الشيعة من إقناع النظام بأن أعدادهم لا يمكن تجاهلها – ليتم في نهاية المطاف إقامة جمهورية إسلامية في العراق. كان الصدر ينفق أموال التبرعات على إقامة شبكات إسناد لأتباعه. وكان في كثير من الأحيان يستخدم اللهجة المحلية في مخاطبة جمهوره، مبتعدا عن أسلوب الفصحى المزينة المعتمدة من قبلَ غيره من كبار رجال الدين الشيعة، ما زاده معزة الملايين من أتباعه الذين كانوا يرون فيه رجل دين مهتم بالحياة الدنيا وليس فقط بحياة الآخرة في الجنة.

القمع الذي تعرض له الشيعة كان وحشيا، تم خلاله اعتقال أعداد كبيرة من الشيعة وتعذيبهم وسجنهم. واضطر مقتدى، أكبر أولاد محمد صادق المتبقين، أن يختبئ **كي يتحاشى سفاحي صدام المسلحين.** وحين

سألناه عن محمد صادق أجابنا صدام بحدة: متى ما تخبروني عن من قتل محمد باقر الحكيم - رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والذي قتل في آب 2003 - سأقول لكم من قتل الصدر.

ثم حين سألته في الجلسة ذاتها عن محمد صادق الصدر، تظاهر صدام بالجهل وقال: من؟

كما لو كان لا يتذكر الاسم، فكررت سؤالي وقال صدام: لا أعرف هذا الاسم. هل إنه عراقي. لما لا تحكي لي المزيد عنه فربما سأتذكر.

كان يعرف تماما عمن كنت أتحدث ولكنه لم يرد أن يقول شيئا إلا بعد اطلاعه على ما أعرفه أنا. كان صدام كثيرا ما يلعب هذه اللعبة خلال حواراتنا، فيتظاهر بالجهل ويطلب مني أن أذكره كي يكتشف ما كنا نعرفه. سألني صدام إن كان الرجل مسنا أم شابا، فقلت له إننا نتحدث عن رجل كبير في السن، فظهر فجأة نور الإدراك في عينيه وقال: آه نعم. تذكرت الآن عمن تتحدث. أجل، لقد تحدث بعض أعضاء حكومتي مع هذا الرجل وطلبوا منه الكف عن إثارة الناس. لم أسمع شيئا حتى بلغني أنه قد قتل. أمرت بإجراء تحقيق خاص حول الحادث وتلقيت تقريرا من المخابرات مفاده أن مقتله تم نتيجة خلاف داخلي بين كبار قادة الحوزة. وأصر صدام بأنه لم يكن لديه أي دور في اغتياله.

كان مغزى ما قاله صدام هو أن محمد صادق الصدر قتله أحد أقرانه الشيعة، أي آية الله العظمى علي السيستاني، وهو ادعاء اعتبرته في حينه غير واقعي إطلاقا. وقال صدام: الشيعة هم الذين قاتلوا إيران، فكانوا جزءا من الانتصار. لم نكن بحاجة إلى إرسال السنة للقتال، فالشيعة هم الذين

قاتلوا. الحكومة لا تدعم الدين. جاء الصدر ليجتمع بـي في أعقاب تمرد وخيانة 1991، حين لم يكن بعد على رأس هرم الشيعة. جميعهم كانوا يتطلعون إلى تطبيع العلاقات مع النظام، قائلين إنهم لا يسعون إلى تأجيج الأوضاع. منذ عهد والد الشاه كانت إيران تظن أنها لو تمكنت من التأثير على رجال الدين فسوف تتمكن من التأثير على السياسة في العراق. جاءني الصدر ليبحث معي موضوع ابنه (كان صدام في الأرجح يشير إلى أحد أشقاء مقتدى الصدر الأكبر منه). كانت معلوماتنا تشير إلى أنه ساند المتمردين الإيرانيين في النجف في أعقاب مقتل الحكيم. أما صادق الصدر فقال إن ذلك لم يحدث وتوسل إليّ بالغفران، فوافقت. ولقد تم تحذيرهم بعدم استخدام سلطتهم الدينية لأغراض سياسية. لا يمكنهم ارتداء العمامة لدى دخولهم ميدان السياسة.

كان صادق الصدر قد تواطأ مع النظام في 1991 حين أدان الانتفاضة الشيعية وتلقى مكافآت كبيرة من صدام لقاء ما بذل من جهود، ثم عينه صدام رئيسا للأوقاف الدينية. إلا أن الصدر استغل منصبه الرفيع وما جمعه من أموال وفيرة في توسيع رعايته للفقراء وفي تأييد حقوق الشيعة، ما جعله في نهاية الأمر يرفع صوته للتنديد بمعاملة الشيعة من قبل النظام. حين سألت صدام عن موت الصدر قال إن مبعوثين حكوميين قاما بزيارته عدة مرات ليطالبوه بالكف عن الإساءة للنظام، وكانت آخر هذه الزيارات قد قام بها أحد أعضاء جهاز الأمن الخاص الذي أبلغ الصدر بأنه سوف يقتل في غضون شهر واحد إن لم يكف عن نشاطه. كان طارق عزيز، أحد أقرب المستشارين لصدام، هو المسؤول عن تلك العملية، ربما لكونه مسيحيا. بدأ صادق الصدر بارتداء

كفن ليرمز إلى أتباعه بأنه كان يعد نفسه للاستشهاد. ثم تم الإيعاز لأحد المنفذين في المخابرات، طاهر جليل حبوش، بتنفيذ الاغتيال، الأمر الذي تولاه بفاعلية مميزة. وكان نجاح حبوش في إسكات الصدر قد اعتبر سبب قيام صدام بتعيينه رئيسا لجهاز المخابرات العراقية، وكان من بين أهم المطاردين المطلوبين بعد انتهاء الحرب، وهو لم يزل حرا طليقا إلى يومنا هذا.

حين سألت صداما عن سبب قتله محمد باقر الصدر في 1980، وهو ابن عم صادق ووالد زوجة مقتدى، كان صدام يعرف تماما من كنت أتحدث عنه، ولكن السؤال أزعجه، كعادته عند تلقيه أسئلة حول انتهاكات حقوق الإنسان. فقال صدام: ستكتشفون أنتم الأميركيين أن حكم العراق ليس سهلا.

ثم انطلق في حديث مطول حول ضرورة الفصل بين الدين والدولة. قال إن محمد باقر الصدر قد أجرى اتصالات سرية مع الخميني، وأن المخابرات قامت بالتقاط تلك المكالمات، وأنهما كانا يخططان لثورة إسلامية في العراق. وقال صدام إنه أبلغ الصدر بأنه حر في ممارسة ديانته ولكنه كان عليه أن يبتعد عن السياسة. ثم لدى رفضه الانصياع إلى ذلك الأمر تم اعتقاله وإعدامه مع شقيقته بنت الهدى بتهمة الخيانة.

موضوع أسلحة صدام للدمار الشامل كان قد هبط من تصدر قائمة أهم التهديدات للأمن الوطني الأميركي لدى اعتباره وعلى نطاق واسع بأنه بمثابة مطاردة للأشباح. كان يُطلب من وكالة الاستخبارات، لسنوات عديدة قبل الحرب، تقييم برامج صدام في مجال أسلحة الدمار الشامل، وكانت أعداد ساعات العمل والمؤتمرات والاجتماعات والتقارير

حول هذا الشأن تفوق ما كان قد خصص لأي موضوع آخر في تاريخ الاستخبارات الأميركية.

حاولنا فتح حوار مع صدام حول أسلحة الدمار الشامل من خلال أحاديثنا عن الحرب العراقية - الإيرانية، إلا أن صداما أدرك بوضوح ما كنا نرمي إليه فأوقف الحوار وقال: ها نحن نعود إلى موضوع سبق لي وأن أجبت عليه. لا تضيعوا وقتكم، فهنالك أمور تزيد خطورتها عما تبحثون عنه.

كنت أعرف أن صداما كان يعجبه التحدث عن إسرائيل، فلقد علق على ضربات صواريخ الحسين ضد إسرائيل في حرب الخليج لعام 1991، موضحا الخلفية السياسية لتلك الضربات بقوله: نعتقد - ليس العراقيين فقط وإنما جميع العرب - بأن منبع الأذى والمساوئ الآتية إلينا من أميركا - لا يعود إلى المجابهة بين العقل العربي والعقل الأميركي، بل يعود إلى الضغوط الإسرائيلية واللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة وعلى انتخابات الرئاسة ومن خلال دعمها لبرامج معينة في أميركا. لذا نعتقد أن السبب يعود إلى النشاط الصهيوني واللوبي في أميركا، وأن هذا ما يغذي عدوانية أميركا تجاهنا... فارتأينا أننا لو هاجمنا إسرائيل، قد يؤدي ذلك إلى فرض ضغوط على أميركا تجعلها تكف عن مهاجمتنا. لقد اتخذت قرار إطلاق صواريخ سكود لضرب إسرائيل دون أن أستشير القيادة. قلنا قبل الحرب لو هاجمتنا أميركا فسوف نهاجم إسرائيل. أمرت قادتي العسكريين بضرب أهداف عسكرية إسرائيلية.

ولكن العراقيين لم يكونوا يعرفون مواقع المنشآت العسكرية الإسرائيلية المهمة، أو - وهذا هو الأرجح - قاموا بإطلاق الصواريخ

بطريقة عمياء في اتجاه إسرائيل، آملين بإصابة بعض الأهداف.

استهواني كثيرا إدراكي بأن كثيرا مما كان يفعله صدام كان ارتجاليا، وكان ذلك مغايرا لما كان يظنه المحللون في واشنطن عن نظام صدام. في الكثير من الأحيان لم يتم في العراق ما يكفي من المناقشات حول السلبية والإيجابية من هذا التحرك أو ذاك، أو جمع وتحليل معلومات الاستخبارات، أو مداولات في مجالس سرية رفيعة المستوى. وحين آلت الأمور إلى الخراب لم تكن هناك خطط لإصلاح ما يمكن إصلاحه. لدى مراجعة أحداث الماضي بالنظرة الخلفية، ربما كان علينا أن نحسن تقييمنا لقابلية صدام على الارتجال. فلقد علمنا خلال الحرب، مثلا، أن صدام كان يتنقل يوميا لبيات في منزل مختلف، معظمها منازل يملكها أشخاص من عامة الناس. كان يصل إلى باب المنزل بلا سابق إنذار ويطلب من صاحبه أن يمضي الليلة ضيفا عليهم.

لدى استفسارنا عن سبب عدم التزامه الكامل بقرارات مجلس الأمن في أعقاب غزو الكويت، أجاب صدام: أين إختلف العراق مع قرارات الأمم المتحدة؟ القرار الوحيد الذي لم نوافق عليه فورا كان القرار رقم 661 (الذي فرض عقوبات على العراق). أما كل القرارات الأخرى فلقد وافقنا عليها.

ولكن العراق كان لديه رأيه إزاء كيفية تطبيق القرارات. ما هو عدد القرارات حول إسرائيل؟ ما هو عدد القرارات التي نفذها؟ ولكن لم يشن أحد حربا ضدها. ما هي الدولة التي لم تنفذ قرارات مجلس الأمن وتمت مهاجمتها؟ لا يخطر ببالي غير دولة واحدة، وهي العراق. لذا فلا بد للأميركيين من معرفة ما جعل أميركا تهاجم العراق. العراق ليس بلدا

إرهابيا، ولم تكن لديه علاقة ببن لادن، ولم تكن لديه أسلحة دمار شامل... ولم يشكل تهديدا لجيرانه. ولكن الرئيس الأميركي (جورج بوش الابن قال إن العراق كان يريد مهاجمة والده (جورج بوش الأب) والحصول على أسلحة دمار شامل. (لم ينفرد بوش الابن في ظنه بأن العراق كان يخطط لقتل والده، فلقد أطلق الرئيس كلنتون ثلاثة وعشرين صاروخ كروز على مقر جهاز المخابرات العراقي بعد تلقيه أدلة مقنعة على وجود خطة لاغتيال الرئيس السابق). أما صدام فلقد نفى بشكل قطعي وجود أي خطة لاغتيال جورج بوش الأب بعد هزيمته في انتخابات 1992 وسفره إلى الكويت في أوائل 1993. كما قال صدام إنه - بعد استبعاد بوش الأب عن الرئاسة - لم يعد يعتبره خصما. ولم يتفهم صدام أبدا كون الخطة المزعومة كانت أحد الأسباب الرئيسية وراء رغبة جورج بوش الابن في إطاحته.

تبنى صدام نمطا من الفلسفة حين سألناه عما جعل أميركا تقع في كل ذلك الخطأ في ما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل، وقال: لم تكن روح الإصغاء والتفهم حاضرة... ولا أستثني نفسي من اللوم.

كان ذلك إقرارا نادرا من صدام بأنه كان يترتب عليه أن يزيد من سعيه نحو تكوين صورة أكثر وضوحا فيما يتعلق بنوايا العراق في مجال أسلحة الدمار الشامل.

قال صدام إنه لم يتابع أعمال فرق التفتيش بشكل تفصيلي، بل كلف طارق عزيز بتولي هذه الأمور. وفي 1991 - وتنفيذا لما طالب به قرار مجلس الأمن رقم 687 - قال العراق إنه قام من جانب واحد بإتلاف أسلحته الكيماوية. ولكن برغم إصدار الحكومة العراقية أمرا بالتعاون مع

مفتشي الأمم المتحدة، كان المسؤولون المحليون غير معتادين على تدخل الغرباء في شؤونهم و لم يكونوا بالتالي راغبين في كشف ملفاقم لمفتشي الأمم المتحدة. وقال صدام: خلال الحرب كان يتم نقل الملفات – من جميع المستويات – من أجل حمايتها من الضربات الجوية وما شابه ذلك، ولكن جميع هذه الخطوات أسيء فهما واعتُبرت مسعى لإخفائها أو دليلا على سوء النية.

ونقل صدام عن رولف إيكيوس، الدبلوماسي السويدي الذي ترأس جهود الأمم المتحدة في العراق لنزع سلاحه في أعقاب حرب الخليج، قوله إن في عام 1995 كان قد تم تدمير 95% من أسلحة العراق. فمنذ 1995 وحتى الآن لم يتم العثور على 5% حتى مع وجود الجيش الأميركي في البلاد الآن.

أشرنا إلى أن المسؤولين العراقيين يؤكدون منذ سنوات عديدة بأنه ليس لديهم سجلات تتعلق ببرامج أسلحتهم، ولكنهم قاموا في 1995 بتسليم 120 صندوقا تحتوي على وثائق متعلقة بترسانتهم من الأسلحة البيولوجية، كانت قد ظهرت بعد هروب حسين كامل، صهر صدام، إلى الأردن، فاقتاد مسؤولون عراقيون مفتشي الأمم المتحدة إلى حقل للدواجن حيث كانت الوثائق مخزونة. قال صدام: لو كانت نوايانا سيئة لكنا أحرقناها أو تركناها مخبأة. لم تكن لدينا أي نية لاستئناف برامجنا، حتى بعدما أخبرني طارق عزيز بأن تلك الوثائق لم تكن بالغة الأهمية. و لم يعرف طارق عزيز سبب وجود هذه الوثائق بحوزة حسين كامل. (كان العراقيون كثيرا ما يخزنون الأشياء الحساسة في مساكن كبار المسؤولين لإبعادها عن أيدي السلطات الدولية).

بعد فترة لم تكن طويلة، وبعد إصراره لسنوات عديدة بأنه لم يكن لديه غير برنامج دفاعي صغير، اعترف العراق بامتلاك ترسانة ضخمة من الأسلحة البيولوجية. قال صدام إن تلك البرامج كانت مدرجة ضمن الكشف الذي سلمه العراق إلى الأمم المتحدة عن الأسلحة في العراق. بعد انتهاء حرب الخليج فقد صدام بصورة مؤقتة سيطرته على 14 محافظة من أصل 18 محافظة في العراق إبان الانتفاضة الشيعية، حين تمت مهاجمة فروع ومكاتب حزب البعث وإحراق مستندات، فبحسب صدام: لم تبقَ وثيقة واحدة فلقد أُحرقت جميعها، حتى مستندات الممتلكات والعقارات... وكان أمرا عظيما حين عثرنا على بعض المستندات (عن أسلحة الدمار الشامل) التي أطلعناكم عليها، وكما قال طارق عزيز إن نسبة 95% في أي امتحان تعتبر درجة جيدة جدا.

ثم بدلا من رفع العقوبات، قال صدام إن المفتشين استمروا في بحثهم عن الـ 5% المتبقية، وتابع قائلا: لقد أساءوا بنا الظن بأسلوب اضطهادي. لا أعتقد أن هناك أي دولة أخرى قد اضطهدت وأسيئ الظن بها كما حصل للعراق.

خلال سنواته الأخيرة بدا صدام وكأن لا فكرة لديه عما كان يجري داخل العراق، بالمقارنة مع أعدائه البريطانيين والأميركيين. وكان انعزاله عن شؤون الحكم قد قاده إلى فخ لم يكن قادرا على الإفلات منه مع اقتراب ساعة الغزو. كان لا ينتبه لما كانت تفعله حكومته ولم تكن لديه خطة حقيقية للاستعداد للدفاع عن العراق. وكان يظن أن الأمور سوف تنفرج بشكل ما، كما كان المعتاد في الماضي. الأميركيون كانوا سيدخلون ويدمرون أجزاء من بلده، أو يتعثر تقدمهم فيتم إقناعهم من

قبل المجتمع الدولي بالتوقف ليكفوا بالتالي عن العنف وسفك الدماء. أو ربما كانوا سيتعثرون ويغادرون، أو أن تتدخل الأمم المتحدة لتفرض وقفا لإطلاق النار. لم يكن يتلقى مذكرات استخبارات مفصلة يومية، ولم يتفهم ضراوة العاصفة القادمة، وكان ولداه، عدي وقصي، قد فوجئا بالهجوم الذي قادته الولايات المتحدة. جميع وزرائه كانوا يتطلعون إليه باحثين عن الإجابة، فكان الجميع يعتقدون أن صدام كانت لديه خطة لتدبر أمر التحالف فور وصوله إلى العراق. ولكن سرعان ما أدرك الجميع أن مثل هذه الخطة لا وجود لها.

وكان ذلك هو بيت القصيد: كانت خطة صدام هي عدم وجود خطة دفاعية لمواجهة قوات التحالف، وقال: ما هي الخيارات التي كانت متاحة لنا؟ كانت هنالك نتيجتان. إما أن يتعرض الجيش الأميركي إلى مقاومة وإما أن لا يتعرض. لا بد للرجال أن يقاتلوا، من أجل شرف الرجال – أي الشرف العسكري – والشرف الوطني ومن أجل المبادئ. عليهم أن يقاتلوا من أجل مبادئهم، ولله الحمد لقد قاتلنا ولم نستسلم. كان ذلك مشرفا... حين ينتشر خبر التهديد ويصبح معروفا، تكون الخطة بسيطة جدا. كان بالطبع واضحا تماما أننا لن نتمكن من الدفاع في جميع المواقع بالضراوة نفسها، فالمواطن يعتبر كل سنتمتر عزيزا. ولكن المسؤول الحكومي لديه أولويات وعليه أن يوزع موارده بموجب هذه الأولويات. كنتم تعتقدون أن تكريت – لكونها ديار صدام حسين – ستخصص لها موارد كبيرة، ولكنكم أخطأتم، فلقد تم إرسالها إلى الموصل وكركوك والبصرة، وغيرها.

لم يكن ذلك ضربا من الجهل أو الجنون، أو نمطا من الاستسلام

للمكتوب المحتوم الذي خيم على الزعيم العراقي.

برغم أهمية بغداد كانت خطط الدفاع عنها عشوائية. كان احترام صدام لقواته العسكرية عميقا ولكنه كان فهمه للشؤون العسكرية بدائيا. وكان يبدو أنه لم يتعلم غير القليل من السنوات الثماني التي خاض العراق خلالها حربه مع إيران. وبالاستناد إلى وصفه كانت فرق الحرس الجمهوري متخندقة فكان عليها أن تنسحب إلى مواقع جديدة كي تدافع عن بغداد، ولكن الوقت لم يكن كافيا لإعادة انتشارها. كما كان عليه أن يواجه التفوق الجوي لدى التحالف، وقال: الغاية من القوات البرية هي أنها تستكمل النصر الذي تهيئه القوة الجوية. لو كنا حاربنا بجيش مقابل جيش آخر لكنا انتصرنا، ليس لكوننا أفضل من الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا، فمن قوانين الطبيعة أن الشخص الذي يقاتل من أجل بيته سيقاتل بشكل أفضل.

حتى وإن كانت اتصالاته محدودة، قال صدام إنه كان يُحاط علما بالهجوم من ثلاثة اتجاهات. فلقد تقدمت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة من الكويت في الجنوب، ومن السعودية والأردن من الجبهة الغربية، ومن الأراضي الكردية في الشمال. عندما سألناه عن قادته قال صدام: كانوا كلهم جيدين. حتى رومل كان قائدا ولكنه خسر إحدى المعارك. أعتقد أنهم أجادوا القتال، وتمكن بعضهم من تنفيذ خططهم بينما لم يتمكن آخرون من ذلك. الجميع أدوا واجبهم بأفضل ما لديهم، ولكن هذه ليست طبيعة الحروب.

حين سألناه إن كانت لدى العراق خطط لتدمير السدود المقامة على نهري دجلة والفرات، تبسم صدام وقال: هل تعتقدون أن الناس سيدمرون

ممتلكاهم؟ هذا أمر خرافي وليس عمليا. كما لم توضع خطط لتدمير الجسور فلو قمنا بذلك نكون قد جزأنا البلاد. كانت تجربتنا في 1991 تجربة سيئة.

إبان حرب الخليج أسفر القصف الجوي الأميركي عن تدمير أو تخريب العديد من الجسور والطرق القريبة من بغداد، ما أدى بالتالي إلى تفاقم الصعوبات التي كانت تواجه صدام في السيطرة على المحافظات ذات الأغلبية الكردية أو الشيعية.

لدى تناولنا موضوع حرب 2003 بدا صدام غير ملم بالواقع العسكري، فكادت تعليقاته أن تكون غريبة وغير واقعية. كما بدا غير ملم بتفاصيل هجوم قوات التحالف أو جهود القوات العراقية المدافعة. وما قاله عن استخدام القوات الأميركية لقوهّا الجوية تدل على نقص في فهمه للأسلوب الحربي الأميركي في تنسيق مهام وحداها الجوية والبرية، وأوحى لنا بأنه كان يعتبر هذه الأساليب بأهما لم تكن عادلة أو منصفة أو شريفة.

عرضنا على صدام خارطة للعراق لتساعدنا في مراجعة مواقع المواجهات العسكرية، ولكنه لم يتذكر تحركات القوات ولا ما نفذته قواته البرية من عمليات مهمة. ثم في وقت لاحق أجرى صدام مقارنة بين حرب العراق والحرب الأهلية الأميركية، موضحا أن الذي أدى إلى خسارة الجنوب أمام الشمال يعود إلى أن القوات المنشقة كان عليها أن تقاتل وهي تتسلق أراضي مائلة. لم أفهم ما كان يقصده فطلبت منه توضيح ما قاله. أشار إلى الخارطة وقال إن الجنوب يقع أسفل الشمال فكان على الجنوبيين أن يقاتلوا عدوا كان على الدوام فوقهم.

سألنا صداما عن قراره في 1995 بقبول برنامج الأمم المتحدة المسمى (برنامج النفط مقابل الغذاء) بعد تمسكه برفضه طوال ست سنوات. كان البرنامج يتيح للعراق بيع نفطه مقابل حصوله على الدواء والغذاء وغيرهما من اللوازم الإنسانية، وكان صدام يشكو من أن البرنامج كان بمثابة إهانة علنية ليس له فقط بل لكل فرد عراقي. وقال: من نكون نحن؟ هل إننا مجرد دواجن داخل قفص؟ ولو مرضنا فسوف تعطوننا الدواء؟

ثم أثيرت حفيظته الوطنية فقال: نحن دولة لديها جيش ومدارس وجامعات وكليات. كما نفهم أن أكثر النفط يذهب إلى أميركا وأن معظم المصافي الأميركية مصممة لتكرير النفط العراقي. هكذا حصلت أميركا على النفط ومن ثم تم عرض برنامج النفط مقابل الغذاء. هل إن الشعب العراقي كالديدان التي تأكل وتنام؟ إن كانوا مهتمين بالشعب العراقي لكانوا رفعوا الحصار.

ثم سألنا صداما عن عملية ثعلب الصحراء في كانون الأول 1998، تلك العملية العسكرية التي أمرت بتنفيذها إدارة كلنتون لمعاقبة العراق إثر قرار صدام بطرد مفتشي الأسلحة الدوليين، فقال صدام: لا أتذكر التفاصيل ولكني أتذكر جوهرها. كان يبدو أن هنالك تفهما معينا للقوة في القيادة الأميركية مفاده أن عدم قيامهم بمهاجمة العراق يشير إلى أن رئيسهم ضعيف. فكنت أمزح وأقول إن هذا حظنا، فكل رئيس جديد يترتب عليه توجيه ضربة إلينا. لذا فإن الرئيس القديم كان أنسب لنا من الرئيس الجديد. فقلت لمجلس قيادة الثورة: الحمد لله فلقد أقتصر الأمر على أربعة أيام من الضربات لم تلحق ضررا يذكر بصناعتنا.

وحين سألناه عن تأثير القصف في عملية ثعلب الصحراء أنكر صدام حصول أي تأثير، وقال: من الأمور الغريبة أن تحتج أميركا على تعرض طائراتها إلى قيام دفاعاتنا الجوية بإطلاق النار عليها. كنا نتحدث فيما بيننا بألم وحيرة، فهم لم ينتهكوا الأجواء العراقية فحسب، بل كانوا أيضا يعتدون على سيادة العراق وينتهكون مبادئ مجلس الأمن الداعية إلى احترام السيادة العراقية.

ثم لجأ صدام إلى إحدى حججه المغايرة للحقائق، وقال: لا وجود لأية أسلحة للدمار الشامل في العراق ولم توعز القيادة باقتنائها. لقد عثرتم على خائن قادكم إلى مكان وجود صدام حسين، أفلا يوجد خائن واحد يدلكم إلى مكان وجود هذه الأسلحة؟

ثم انطلق في تأنيبنا حيال المعاناة الجسيمة التي سببها الحصار الذي فرضه مجلس الأمن في أعقاب غزوه للكويت في 1990 وظل نافذا حتى إجباره على التنحي عن السلطة في 2003.

ظل صدام حائرا إلى الأبد في ما يتعلق بعلاقات بلاده مع الولايات المتحدة، فلدى تحدثنا عن هذه العلاقات كانت ترتسم ملامح الحيرة على وجهه، كما لو كان لم يزل يسعى إلى اكتشاف أسباب انهيارها، وقال: كان الغرب في الماضي لا يقول غير الخير عن صدام، ولكن كل ذلك تغير بعد 1990. (والملفت هو أن هذا التعليق كان له صدى لدى مسؤولين في إدارة جورج بوش الأب في لقاء جمعهم وبثته شبكة أن بي سي التلفزيونية في الذكرى السنوية العشرين لحرب الخليج. قال برنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومي آنذاك إن صداما قد تغير بعد عام 1990 وأيده بذلك وزير الخارجية جيمس بيكر، ولكنهما لم تكن لديهما

فكرة عن السبب. كانت الأمور تسير بشكل مرضٍ خلال عقد الثمانينيات ولكن صداما تغير بعد ذلك، بعد أن كان ملتزما بالوتيرة المألوفة في الحكم وفي سلوكه. كانت إدارة بوش الأب قد فاجأها عدوان صدام على الكويت. ولو كانت واشنطن قد أوضحت لصدام مدى استعدادها للرد على أي تحرك عدائي ضد الكويت، لا أظن أبدا أن صدام كان سيجتاز ذلك الخط الأحمر). أشار صدام إلى أن أميركا ساندت العراق خلال الحرب العراقية - الإيرانية، وقال: إن كنت مخطئا فما الذي جعل الولايات المتحدة تساندني؟ وإن كنت على حق فما الذي جعلهم يتغيرون؟

كان صدام مقتنعا بأن الولايات المتحدة هي التي قامت فجأة وبصورة لا يمكن تفسيرها بتغيير مسارها، وقال: كانت علاقات العراق مع الولايات المتحدة علاقات طيبة إبان عهد الرئيس ريغان، ولكنها انحرفت خلال عهدي بوش، الأب والابن.

لدى تناولنا موضوع العلاقات الأميركية - العراقية كان صدام كثيرا ما يعود إلى ما كان يعتبرها مؤامرة صهيونية وسيطرة يهودية على المؤسسات الأميركية، وبشكل خاص على الكونغرس وعلى وسائل الإعلام. وقال صدام إن الإعلام الغربي كان يظهره بأسلوب جيد، ملمحا بأن الإعلام كان بمثابة معيار يشير إلى توجهات الحكومة. ولكن كل ذلك تغير بعد 1990 في أعقاب غزو الكويت، ومضى قائلا: ثم تدخل الصهاينة وأثروا على هذه العلاقات. فقام الكونغرس بتعليق صادرات الحبوب الأميركية إلى العراق، فعزونا ذلك إلى النفوذ اليهودي وإلى موقفنا حيال فلسطين.

تعتبر غالبية المحللين أن الحرب العراقية - الإيرانية انتهت عند مأزق مسدود، ولكن صداما كان يعتبرها نصرا للعراق، ما جعل العراق هدفا للولايات المتحدة. وبحسب صدام كان العراق يتمتع بجيش كبير وبحكومة مستقلة وباقتصاد قوي، ولكن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة للقبول بوجود دولة عربية إقليمية مهيمنة وقادرة على تهديد إسرائيل. وكان يعتقد أن واشنطن - بعد انهيار الاتحاد السوفيتي - كانت تبحث عن أعداء تقاتلهم لتبرير احتفاظها بجيوش كبيرة وبالصناعات العسكرية. وكان وضعها كالدولة العملاقة الوحيدة في العالم قد أصاب الحكومة الأميركية بغرور كان بمثابة حالة مرضية.

ثم عدنا إلى موضوع القادة العظماء. كنت خلال سنين عملي لدى وكالة الاستخبارات المركزية أستمع مرارا وتكرارا إلى أن صداما كان يدرس سيرتي ستالين وهتلر، وكان يفترض أنهما كانا من يقتدي صدام بهما. غير أن صداما قد أعرب عن إعجابه بديغول ولينين وماو وجورج واشنطن، ثم أضاف تيتو ونهرو إليهم. وحرص على التوضيح بأنه كان يحترم لينين لكونه مفكرا، وقال: ستالين لم يكن مفكرا. كانت هنالك روايات عديدة عن ستالين: عن اهتمامه بالتطور الزراعي وتعامله مع مالكي الأراضي الواسعة، وعن رئيس استخباراته، بيريا. كان ذلك يقلل من شأنه وكانت أساليبه مقزِّزة.

لم يذكر صدام ولا حتى مرة واحدة إنه معجب بأي من هتلر أو ستالين. كان الرأي القائل إن صدام كان منبهرا بالزعيمين النازي والسوفيتي قد أتاح للأكاديميين مقياسا يمكنهم من خلاله تفسير صدام لعامة الناس، **كما كان وسيلة سهلة لتصوير رجل العراق القوي بصورة**

شيطان. ثم انتقل هذا التصور إلى عالم السياسة. فقام جورج بـــوش الأب عشية حرب الخليج بتشبيه صدام بهتلر، ففور وقوع هتلر جديد بين يدينا سيترتب علينا أن نتحرك. لماذا؟ لكون الدرس الرئيسي الذي استقيناه من سياسة هتلر الخارجية العدوانية كان أن دول التحالف اختارت أســـلوب التهدئة والتسكين بدلا من التحرك الذي كان ربما ســـيوقف الـــدكتاتور الألماني عند حده ليحول بذلك دون اندلاع الحرب العالمية الثانية.

9

صدام ينفجر غاضبا

بعد انتهائنا من الجلسات القليلة الأولى طلب مني بروس أن أتولى الدور الرئيسي في توجيه الأسئلة، فبعد أن كنا نتقاسم طرح الأسئلة أصبحت أنا السائل الوحيد ليتولى بروس دور إدامة الحوار لو بدا صدام موشكا على الامتناع عن التعاون. فمع قلة معرفته بصدام كان يظن بروس أنه قد استنفذ ما لديه من أسئلة مثيرة. كنا في غضون ذلك قد طورنا أسلوبا ثابتا لجلساتنا فوافقت برغم شعوري بالإرهاق بعد قضاء ثلاثة أشهر في العراق. كما كنت أشعر بشيء من الإحباط إذ لم يكن لدينا غير وقت قليل للبحث، وحتى لو توفر الوقت أحيانا كانت إمكانياتنا في التوغل في عالم الإنترنت محدودة بسبب ضعف شبكتنا المحلية. ربما كان في وسعنا أن نلجأ إلى مجرد طرح الأسئلة وتدوين إجابات صدام عليها. ولكننا كنا نسعى إلى الالتزام بمهنيتنا تجاه أهم ما كان يجري في العراق. كنت أدرك أن مثل هذه الفرصة لن تتاح لي طوال حياتي العملية. وباستثناء قيامها باستجواب رجل باناما القوي مانويل نورييغا في 1989، لم تتوفر لدى وكالة الاستخبارات الخبرة في هذا المجال منذ قيام الولايات المتحدة باستجواب الأدميرال كارل

دونيتس، خليفة هتلر المختار إبان الأيام الأخيرة للرايخ الثالث.

كنا في صباح كل يوم نلتقي زملاءنا العسكريين لنطلع على أحوال صدام منذ آخر مرة التقينا به، وأقدم لهم عرضا مختصرا للمواضيع التي كنت سأثيرها معه في ذلك اليوم. وبات واضحا أن مكتب التحقيقات الفدرالي ما كان سيأتي ليتسلم منا المهمة إلا بعد رأس السنة الجديدة، فحين سألت ممثل المكتب في بغداد عما كان يؤخرهم، قال لي: أعتقد أهم ينتظرون مرور عطلتي الميلاد ورأس السنة.

أما أنا فكان تصوري أن المكتب كان لا يزال يسعى إلى تشكيل طاقم وإلى تحديث ما لديهم من معلومات عن صدام الذي لم يكن مشتبها به عاديا. كما أبلغونا أهم سيعينون محققا خاصا يتكلم العربية ليكون رئيسا للطاقم.

راجعت قائمة المواضيع التي كنا قد ناقشناها، فقررنا أن نوجه الحوار نحو موضوع كان صدام قد رفض في البداية أن يخوض في تفاصيله، أي الهجوم بالأسلحة الكيماوية على حلبجة في آذار 1988 الذي تم للانتقام من تأييد الأكراد لإيران. وأسفر الهجوم عن مقتل نحو 5000 شخص. كان القائد العام للحملة ابن عم صدام، علي حسن المجيد. وكان الكاتبان أفراييم كارش وإناري راوتسي قد أصدرا كتابا تناول سيرة صدام حسين الذاتية وجاء فيه: لدى اقتراب الحرب العراقية - الإيرانية من نهايتها كان نصف عدد القرى والعديد من المدن الصغيرة في كردستان قد دمرت تماما وتم ترحيل سكانها، فلقد وضع نحو نصف مليون شخص في مستوطنات يمكن السيطرة عليها بسهولة، أو مخيمات اعتقال في الصحراء الجنوبية الغربية من العراق. كان شبح الاختراق الإيراني المحتمل قد دفع صدام إلى

استخدام الغاز ضد بلدة حلبجة الكردية، ثم مع تبخر الغاز الذي ألقته الطائرات العراقية، هرعت فرق التلفزيون الإيراني إلى البلدة فاكتشفت ومعها العالم بأكمله حجم تلك المجزرة المروعة.

لم يكن صدام يريد التحدث عن حلبجة، ليس فقط لكونها قد اعتبرت جريمة إبادة جماعية، بل بسبب محبته المزعومة للأكراد. ثم حين عدت إلى الموضوع بدت معالم الغضب على وجهه وقال: اذهبوا واسألوا نزار الخزرجي. (كان الخزرجي القائد الميداني في منطقة حلبجة آنذاك).

حين أخبرته بأن الخزرجي لم يكن موجودا وكان هو موجودا، اعترض صدام على أسلوب الاستجواب. أصابتني خيبة أمل إذ كان تناول موضوع حلبجة سيوضح لنا الكثير عن صدام. ولكني كنت عازما على جعله يتكلم عن الموضوع. كان ضرب الأكراد بالغاز الفتاك بمثابة جريمة بحق البشرية، كما كان برهانا على امتلاك صدام أسلحة دمار شامل، وكان مستعدا لاستخدامها حتى ضد أبناء بلده العراقيين.

سعيا مني إلى تلطيف الأجواء بينما كنت أبحث عن مدخل آخر إلى موضوع حلبجة، انتقلت لأسأله عن مجلس قيادة الثورة، وهو أعلى جهة سياسية حاكمة في العراق. كان صدام قد ترأس المجلس منذ عام 1979، بالتزامن مع رئاسته للدولة، ليكون المجلس محور السلطة في الحكومة البعثية. أجاب صدام بأن مجلس قيادة الثورة يعتبر الجهة العليا بموجب الدستور، ولكنه انتقل في حديثه إلى ملاحظاته المألوفة عن كون المجلس الوطني كان يشرع قوانين ينقض بعضها ما أصدره مجلس قيادة الثورة. وقال إنه كان يرغب بتشجيع نشر الأحزاب السياسية في العراق. كان يكرر ذلك مرارا، سعيا منه إلى إقناعنا بأنه ديمقراطي عراقي حقيقي وبأن

جهوده في إدخال التعددية في السياسة العراقية قد عطلها الغزو الأميركي. بعد نحو ساعة من الحوار تمكنت أخيرا من جعل صدام يؤكد بأنه رئيس مجلس قيادة الثورة وبأن أوامره لا بد منها لإقرار قرارات المجلس.

كان ذلك هو المنفذ الذي كنت أبحث عنه، فسألت صدام إن كان قرار استخدام الأسلحة الكيماوية ضد حلبجة نابعا من مجلس قيادة الثورة أم من جهة أخرى. بدا صدام غاضبا جدا لكوني قد أوقعته في زاوية مغلقة، فبات يواجه إما الإقرار بأنه قد أصدر الأمر، وإما بأنه لم يتمتع بالسيطرة الكاملة كما كان يدّعي، فسألني: ما هو سؤالك؟

فقلت له: حدثني عن قرار استخدام الأسلحة الكيماوية في حلبجة. هل تمت مناقشته في مجلس قيادة الثورة؟

كان صدام منفعلا بدرجة أصابته بضيق في تنفسه، ثم انفجر قائلا: لدى سماعنا عن حلبجة اعتبرنا أن التقارير كانت جزءا من الدعاية الإيرانية، فلم نتباحث حول الموضوع داخل المجلس. كنا نهتم دائما بتحرير أراضينا. أتقول أنت أن القرار قد اتخذ في بغداد؟ لو كنت راغبا في اتخاذ هذا القرار لكنت اتخذته ولست خائفا لا منك ولا من رئيسك. سوف أفعل ما عليّ أن أفعله من أجل الدفاع عن بلدي!

جلس صدام مكتوف اليدين ليشير بذلك إلى أن الحديث عن الموضوع قد انتهى، ولكنه تبسم وقال لي: ولكني لم أتخذ ذلك القرار. عندئذٍ قررنا أن نعلق الجلسة وحاولنا كعادتنا أن نلطف الأجواء قبل أن ننهيها، فسألته سؤالا مسالما، ولكن غضبه كان قد بلغ درجة لم يتمكن معها أن يمتنع حتى عن محاولة الإجابة. طلبنا الحارس فوجه لي صدام نظرة غاضبة ومد ذراعه للحارس كي يقوده إلى زنزانته. أما رئيسي فكان

سروره عارما لكوننا تمكنا أخيرا من اقتحام أعصاب صدام.

لقد أزعجت العديد من الأشخاص خلال حياتي، ولكن لم ينظر لي أحدهم بمثل نظرة صدام المليئة بالكراهية القاتلة في ذلك اليوم. فلقد بدا مخيفا حتى وإن كان محتجزا في زنزانة محكمة. إلا أن الحوار كان في الوقت ذاته قد أثار بعض التساؤلات في ذهني، فقمت بتقليبها لمدة أشهر من الزمن. فكلما فكرت في الموضوع اقتنعت بإحساسي الداخلي بأن ما قاله صدام كان يتضمن شيئا من الحقيقة. ولقد تعززت ظنوني من خلال نتائج استجوابات أخرى قام بها زملائي في الوكالة مع مسؤولين عراقيين آخرين. صدام لم يكتشف موضوع استخدام الأسلحة الكيماوية ضد حلبجة إلا بعد تنفيذ الهجوم. لذا كان صدام صادقا في ما قاله.

كان يبدو أن صدام قد خوّل قادته بالسيطرة على الأسلحة الكيماوية، فأول من أطلعه على الهجوم كان نسيبه، وزير الدفاع عدنان خير الله. أما غضب صدام الشديد فلم يعد إلى استخدام الأسلحة، وإنما لكونها قد استُخدمت في أراض يسكنها متعاطفون مع إيران، حيث لا سيطرة للعراق على الأخبار بينما كانت إيران قد توفرت لها فرصة دعائية ذهبية. كان صدام هو الذي خوّل قادته باستخدام هذه الأسلحة بحسب تقديراتهم، وكان هو من استخدمها بفاعلية مدمرة ضد هجمات الأمواج البشرية الإيرانية، ما غضت الولايات المتحدة النظر عنه لكونها كانت تساند العراق. لم يتأسف صدام إزاء ما حدث في حلبجة ولم يظهر أي شعور بالندم. وكان ذلك نموذجا آخر لما لم تعرفه – أو لم تكن تريد معرفته – حكومتنا في الوقت الذي كانت تستكمل وضع خطتها لإزالة صدام من السلطة.

كان موضوع انتهاكات حقوق الإنسان خطا أحمــرا بالنســبة إلى صدام، فكلما أثرناها كان يتشنج ويستعد لخوض معركة. كنت أنا مــن يثير الموضوع في أغلب الأحيان، فكان يسعى إلى تحاشيه بأيــة وســيلة. وحين سألته عن اكتشاف مقابر جماعية مال إلى الأمام وهــو ينظــر إليّ بانزعاج وقال: سبق لي أن أوضحت ذلك ضمن حديثي عن المحافظات، حين قلت إن في مثل تلك الظروف لم يكن غريبا أن تعثر على عشــرين جثة هنا أو على أربعين جثة هناك.

(كان صدام يقصد بذلك أنه قد فقد السيطرة على 14 من محافظات العراق الــ 18 في أعقاب الغزو الأميركي في 1991، وأنه بالتالي لم يكن مسؤولا عن الفظائع المرتكبة في المناطق التي لم تكن تحــت ســيطرته). فسألته عن المقابر المكتشفة في البصرة فطالبني بتحديد المكــان المحــدد في البصرة. قلت له إن المقبرة عُثر عليها في ضواحي المدينة فسألني: من هــم هؤلاء الناس؟ ما هي أسماؤهم؟

قلت له إني أجهل أسماءهم، فرفع ذراعيه مغتاظا وقــال إن كانــت هوياتهم مجهولة فليس مستبعدا أن تكون مدافن جنود إيرانيين. ثم أمضــينا أكثر من ساعة في الدوران حول أنفسنا في مناقشة هذا الموضوع.

كثيرا ما كان صدام يحاول تلطيف ما كان يعتبرها العــالم أعمــالا وحشية، ومنها الطريقة التي عامل بها عرب الأهوار وتتكون غالبيتهم من الشيعة. فلقد حوّل صدام مجريي نهري دجلة والفرات بعيدا عــن هــذه المسطحات المائية كجزء من انتقامه من الانتفاضــة الشــيعية في 1991، فتحولت إلى أراضٍ صحراوية، ما أدى إلى تهجير نحو 150 ألفا من عرب الأهوار، فلقد فر بين 80 و120 ألفا منهم إلى مخيمات إيرانية للاجــئين،

بينما تشتت الآخرون في مناطق أخرى من العراق. ادّعى صدام بأنه قام بتجفيف المنطقة من أجل صالح سكانها، وقال: كيف يمكن للمرء أن يعيش على الماء؟ الأرض هناك خصبة جدا وكنت أتطلع إلى توسيع الأراضي الزراعية. هل رأيت كيف يعيشون؟ لقد عشت بينهم لمدة أسابيع فتعرفت على كل تفاصيل معيشتهم... لقد شيدنا مدارس وعيادات طبية وزودنا المنطقة بالكهرباء. قبل ذلك كانوا يعيشون كما كانوا قبل ثلاثة قرون من الزمن.

وأوضح صدام أن تجفيف الأهوار كان يهدف أيضا إلى منع الإيرانيين من التسلل إلى داخل العراق، إذ كانت المستنقعات تحيط بالطريق الرئيسي الرابط بين مناطق الجنوب العراقي وبغداد، وكان الإيرانيون قد حاولوا قطع هذا الطريق خلال الحرب العراقية - الإيرانية.

سألت صداما ذات يوم عن وزارة الخارجية في حكومته، فأجرينا حديثا طويلا ومنورا عن تعاملاته البيروقراطية. ففي 1998 أجرى صدام حركة تنقلات للدبلوماسيين واستدعى العديد من السفراء إلى بغداد. سألته عن سبب هذه التغييرات فقال إنه لم يكن هنالك سبب محدد، وأوضح بأنه قد اعتبر بأن الوقت قد حان للدبلوماسيين الذين كانوا قد أمضوا سنوات عديدة في الخارج أن يعودوا إلى العراق. سألته بالتحديد عن استدعاء نزار حمدون، ممثل العراق السابق لدى الأمم المتحدة وأحد أكثر الناطقين باسمه فاعلية في الغرب. قلت له إن حمدون كان يتفهم النظام الدولي والولايات المتحدة وكان يجيد استخدام وسائل الإعلام لطرح رسالته أمام الجمهور الأميركي بأسلوب لم يتمتع به غير عدد ضئيل من دبلوماسيي المنطقة. أقر صدام بذلك ولكنه قال إن حمدون كان مصابا بالسرطان، وأضاف:

أميركا أفضل بلد لعلاج السرطان ولكننا كنا قد أصدرنا مرسوما في القيادة بأننا لن نرسل أحدا من وزارة الخارجية للعلاج الطبي في الخارج. أنا شخصيا كنت محرجا، فيمكن للرئيس أن يرسل الناس للعلاج. هكذا ولكونه بعثيا قديما ومخلصا من قبل ثورة 1968 وكان من بين مجموعة من الأشخاص الذين كنت أنا شخصيا أعرفهم وأثق بهم، فأرسلته، وأعطيته خمسة آلاف دولار للعلاج، كهدية شخصية مني تضاف إلى استحقاقاته.

كان المبلغ زهيدا، ربما لكون صدام لم تكن لديه فكرة عن تكاليف معالجة السرطان في الولايات المتحدة، أو ربما نتيجة امتعاضه من حمدون لكونه كان قد أقام العديد من العلاقات الوثيقة في الحكومة الأميركية عبر السنين.

لقد تم تهويل مسألة تفاقم النزاع الطائفي في العراق منذ سقوط صدام، وأصبحت الطائفية في العراق نموذجا لباقي دول المنطقة. وكان صدام يكرر فخره بأن العراق في ظل نظامه لم تكن فيه ظاهرة الطائفية، وقال: هل تعرف إن كان صدام حسين سنيا أم شيعيا؟ إنهما متساويان أمام القانون. في 1959 كان سكرتير حزب البعث شيعيا من الناصرية، وفي 1960–61 كان السكرتير كرديا شيعيا يدعى عبد الكريم الشيخلي، وفي 1965 كان السكرتير مسيحيا يدعى كلداني.

كما كان صدام يفتخر جدا بقيادته لحزب البعث، وقال: إنه جزء من أمتي، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية والوحدة العربية والحرية والديمقراطية. لذا حين كنت شابا وجدت أن هذه الأهداف تستحق القتال من أجلها. جميع أعضاء عائلتي كانوا حزبيين، باستثناء خالي خير الله الذين كان مسنا جدا.

سألته إن كان يشعر بالوحدة وهو في القمة، فقال لي مجيبا: أنا قائد ولكني زرت جبهة القتال وتناولت الطعام مع الجنود. كنت أزور الجبهة فما كنت أشعر بالوحدة مطلقا.

كما قال صدام إنه لم يرتئي لنفسه أن يحكم العراق مدة طويلة، وقال: ظننت أنه بعد نجاح ثورة 1968 سأتمكن من التقاعد وأترك القيادة في الثلاثين من تموز حين تولى الحزب السيطرة على البلاد. ولكن مجلس قيادة الثورة رفض ذلك بشدة. ثم عدت في 1974 إلى رغبتي في الاعتزال ولكن طلبي رُفض... فكان الاعتزال يعني التخلي عن المبادئ والتخلي عن الشعب فلم أعد إلى التفكير في الاعتزال بعد ذلك.

سألته إن كان الإعجاب بشخصيته المحيط به قد ألحق ضررا بقدرته على القيادة، فأجاب صدام: لم أطلب منهم أن يضعوا صورتي في كل مكان... فالعراق كان مهما قبل صدام حسين وقبل والد صدام حسين وقبل جد صدام حسين. العراق علّم العالم الكتابة، وعلمه الفن والرسم والصناعة، فكيف يمكن اعتبار صدام حسين أهم من العراق؟

حين سألناه عن إنجازاته التي يفتخر بها قال صدام: بناء العراق.. من بلد كان شعبه يمشي حافيا وكانت نسبة الأمية فيه 73% وكان دخل الناس قليلا إلى أن بلغ مستوى من التطور جعل الولايات المتحدة تعتبره مصدر تهديد. المدارس في كل مكان والمستشفيات في كل مكان وبات مستوى الدخل مرتفعا جدا قبل الحرب مع إيران. قبل 1991 كانت الكهرباء تمتد إلى كل قرية، وبنينا العديد من الطرق، فحتى الأميركيون الذين دخلوا العراق أبهرهم تطورنا. كنا نخدم الشعب ونرضي الله.

فسألناه إن كان هو - بعد كل ذلك التطوير - مسؤولا عن تراجع أحوال العراق، فقال: هل القتال من مسؤوليتي؟ أجل، كان القرار قراري، فإيران لم تعرض علينا السلام. لو كان الخميني قد توقف عند الحدود بدلا من محاولته للاستيلاء على أراضٍ عراقية، لكان كسب غالبية الرأي العام العراقي... ولكنه انحرف وأظهر حقيقته حين قال إن هدفه هو بلوغ كربلاء وليس الحدود فقط. أما الكويت فكانت مسمارا في قدم العراق، ولقد انكسر قرنا العراق في الكويت.

ثم سألناه عن تصوره للعراق بعد مئة عام، فقال صدام: الأمر بين يدي الله، ولكنني أرى العراق وقد تحرر من الأميركيين في غضون خمس سنوات.

أمضيت آخر جلساتي مع صدام في الحديث عن تاريخ العراق. كانت أقصر جلسة لي معه إذ لم تدم غير خمس وعشرين دقيقة. كانت الغاية الحقيقية منها أن أبلغه عن مغادرتي وأن أعرفه على بديلي. كنا قلقين من أن ظهور وجه جديد ربما سيزعج صدام ويجعله يمتنع عن التعاون. ولكن ما كان علينا أن نقلق، فبرغم ملله مني، لم يكن قد مل من العملية. كان ذلك سيحدث في وقت لاحق. تحدثت بكل دفء عن جلساتنا وأخبرت صدام .بمقدار سروري بالتعرف إليه. ثم أطلعه بروس على أن السيد ستيف كان عليه أن يعود إلى الولايات المتحدة وأن السيد بيل سيحل محلي. رفع صدام ذراعيه في الهواء ليعبر عن استيائه حيال ظهور مستجوب جديد، وقال: هل يعني ذلك أنه ستترتب عليّ الإجابة عن الأسئلة نفسها مرة أخرى؟

أخبرناه أن بديلي كان قد راجع جميع التقارير وكان على علم تام بكل ما قد تناولناه حتى الآن. ثم ألقيت كلمة وداع قصيرة. قلت: أريد

أن أشكرك على مشاركتك معنا في حواراتنا عن التاريخ. صحيح أننا اختلفنا في بعض الأحيان حول أمور معينة، ولكنني أقدر استعدادك لمناقشتها معنا. أشعر بالأسف لأنه كان علينا أن نلتقي في مثل هذه الظروف. والآن بعد أن التقينا أشعر أنني أصبحت أفهمك وأفهم بلدك بشكل أفضل من ذي قبل، فأشكرك على ذلك.

ثم وقفت ومددت يدي إليه ففاجأني حين أمسك بها و لم يتركها، ومضى في كلمة وداعه: أريدك أن تعلم أني أنا أيضا تمتعت بالأوقات التي جمعتنا. أما سبب الخلافات بيني وبينك فيعود إلى وجودك حيث أنت ووجودي حيث أنا. أنا لست مجرد أحد السياسيين الذين يتكلمون من أجل الكلام. ولكنني أريد منك أن تصغي لما أقوله لك، وأنت تستعد للعودة إلى واشنطن لتزاول عملك المهم جدا، أن تتذكر ضرورة تمسكك بالعدل والإنصاف، فهما أنبل الصفات التي يمتلكها الإنسان.

حثني صدام على استخدام حكمتي في فعل الخير، ولكنني لا أتذكر ما قاله بالتحديد بعد ذلك، إذ كان لا يزال ممسكا بيدي فلم أتمكن - وذلك للمرة الأولى منذ أن التقيت به للمرة الأولى - من تدوين ملاحظاتي. بقيت أسير قبضته لمدة خمس دقائق. كان رجل سياسة وكان يستخدم مهاراته السياسية أثناء وداعي. فما الذي كان يميزني عن غيري؟ كانت كلمة وداع صدام نابعة من التقاليد العربية الهادفة إلى جعل الضيوف يشعرون بأن فترة مكوثهم كانت قصيرة وأن رحيلهم يدعو إلى الأسى. وظل صدام متمسكا بقناعته بأن العراق بلده و لم نكن نحن سوى ضيوف. كما كان صدام بحسب اعتقادي يكن لي قدرا من الاحترام لأني أمضيت سنوات في دراسته قبل أن نلتقي. كما أدرك أن عليه أن يلتزم الحذر معي

لأني كنت سأتحداه لو حاول تزيين الحقائق. وربما كان مرتاحا من رحيل هذا المزعج الذي دأب على إثارة مواضيع الإبادة الجماعية وانتهاكات حقوق الإنسان.

في أعقاب رحيلي عن بغداد بدا صدام مسترخيا وأكثر تفاؤلا، وأعجب على الفور ببديلي السيد بيل، وذلك على الأرجح لكون بيل كان لديه كنز من المعرفة عن العراق، ما زاد من حيوية النقاش وجعله مشوقا لصدام. كما تميز بيل في نظر صدام لأنه ما كان عليه أن يثير انتهاكات حقوق الإنسان أو غيرها من الشؤون الأمنية التي كانت قد تمت تغطيتها. هذا لم يعنِ أنهما لم يختلفا أو لم تمر عليهما لحظات من التوتر. وبشكل عام أصبحت الجلسات لا تتخللها الكثير من المجابهات.

كما كان بيل لا يخضع إلى ضغوط التسابق مع الزمن ومطالب مقر القيادة. حين باشرت مع طاقمي باستجواب صدام أخبرونا خلال أسبوعنا الأول أن طاقم مكتب التحقيقات الفدرالي سيصل في أية لحظة وأن كل جلسة من جلساتنا ربما تكون الأخيرة. لذا لم يكن لدينا متسع من الوقت لإراحة صدام كي يتكلم بحرية، أي كان علينا أن نسارع في طرح الأسئلة الصعبة والمحرجة، ما أجبرني - باعتباري الخبير في الشأن العراقي - على إثارة مواضيع كانت تزعج صدام. وحين أثرت غضبه بأسئلتي عن حلبجة بدأ صدام يرتاب مني ويتساءل عن غايتي من إثارة موضوع ما. وفي اليوم التالي - حين عدت إلى أسئلتي عن وزارة الخارجية - قاطعني وقال: لا تراوغ، بل ادخل في الموضوع. ما الذي تريد معرفته؟

بعد رحيلي بفترة قصيرة طلبت القوات المسلحة الأميركية من صدام أن يصدر بيانا يدعو فيه المتمردين العراقيين إلى إلقاء سلاحهم. أطلعنا على

ذلك الأدميرال ماكريفن في آخر اجتماع صباحي حضرته في بغداد. تمنينا له حسن الحظ ولكنني لم أظن أن صدام كان سيوافق. وفي 13 كانون الثاني 2004 التقى ماكريفن صداما باعتبارهما قائدين كبيرين. لم يتضمن طلب ماكريفن أي تهديد - لا صريح ولا مبطن - بالإعدام، ولكن صدام رفض قراءة البيان أو توقيعه، بل قال: كرامتي لا تسمح لي بقراءته.

في وقت لاحق أوضح صدام تفاصيل رفضه لبيل، وقال: أعتقد أن السلطات العسكرية لم تكن تفهم لا صدام حسين ولا العراق ولا أيا من الناس المعنيين بالموضوع. أما هذا القائد العسكري فلقد عرف نفسه بأنه ضليع في التاريخ وتكلم عن نابليون وموسوليني... ولكنك تعرف أن قصة نابليون ليست قصتنا، فهي قصة مختلفة. لقد فهمت أن ما كان يعنيه هو التشبيه بموسوليني، إذ كان عليّ أن أوقع وإلا كان سيتم إعدامي. ولكن كم بلغت من العمر، وكم من وقت تبقى لي في الحياة؟ لا يجوز استخدام هذا الأسلوب مع صدام حسين. لا يجوز تهديدي، بل علينا أن نتحاور. حين أذكر الحوار يعني ذلك أنني مؤمن بالحوار وليس لأني سجين. لذا فإن الوسيلة لحقن الدماء تكمن في الحوار، أي الحوار معي ومع غيري من أعضاء القيادة المحتجزين. ولكن المحتل الذي يعبر نهر دجلة إلى بلادنا ويطلب من الذين تم احتلالهم أن يكفوا عن القتال، فهذا ليس منطقيا. فسوف نقول: إذا كنتم تريدون وقف سفك الدماء، فعليكم أن تغادروا. لن تخسروا شيئا بمغادرتكم. أما نحن فسوف نخسر كل شيء لو أوقفنا القتال.

10

غطس عميق في المكتب البيضوي

لدى عودتي إلى واشنطن تم استدعائي إلى الطابق السابع في مقر وكالة الاستخبارات المركزية لأقدم تقريرا عن جلسات الاستجواب. كان من المقرر أن تحضر الاجتماع نائبة مدير الاستخبارات جامي ميشيك ولكنها لم تتمكن من الحضور فقدمت تقريري إلى مساعدها. لم يتم استدعائي لمقابلة جورج تينيت ولا أي مسؤول كبير آخر.

بعد انتهائي من مقابلة معاون ميشيك عدت إلى موقعي القديم في مكتب إيران حيث ناداني رئيس الشأن الإيراني إلى مكتبه ومنحني الجائزة الوحيدة التي استلمتها لقيامي باستجواب صدام، وكانت عبارة عن تذكرة بقيمة خمسة وسبعين دولارا يتم صرفها في أحد المطاعم الهندية. بدا لي أن مكتب إيران أراد مكافأتي دون أن يفرط في ذلك لكوني لم أكن تابعا لهم. كانت وكالة الاستخبارات مبتلاة - كما هي حال غالبية البيروقراطيات الضخمة - بوباء من الإدارات المتنافسة. كان الأمر الوحيد الذي أزعجني هو أن الوكالة لم تُعزِّني بوفاة والدتي أثناء وجودي في العراق.

بعد حوالى شهرين من عودتي إلى بيتي تلقيت مكالمة من مكتب المدير التنفيذي بازي كرونغارد، الرجل الثالث في الوكالة وأحد المقربين من

جورج تينيت، فطلب مني أن أحدثه عن استجواب صدام. كل ما كانوا يريدونه هو معرفة كيفية إيجاد أسلحة الدمار الشامل. كان كرونغارد ضابطا حقودا سابقا في المارينز وكان – بحسب صحيفة الواشنطن بوست – يطلب من الناس أن يضربوا بطنه بقبضاهم كي يظهر مقدار صلابته.

كان شديد الحرص على إظهار مهنيته في العمل، وتوقعت أنه سيسألني عما كنت ألبسه في جلسات الاستجواب. من المفترض أنه كانت لديه فكرة جيدة عما سأقوله، فلقد شاهدني بملابسي غير الرسمية حين كان في بغداد. برغم ذلك وحين قلت له أني كنت بملابسي العسكرية اليومية، انفجر غاضبا وقال إنه كان سيواجهه بملابس رسمية. حاولت أن أوضح له بأن الظروف لم تكن تتلاءم مع البذلات الأنيقة إذ كنا أحيانا نخوض في الوحل ونحن في طريقنا إلى المعتقل. بدا كرونغارد متهكما حين أطلعته بأنه كانت لدي وثيقة موقعة من قبل صدام – الوثيقة كانت تبين كم كان لدى صدام من نقود لدى القبض عليه – وأنني قد سلمتها إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. فقال لي كرونغارد: أراهن بأنك كنت ستضعها في إطار ليراها أصدقاؤك.

قلت له إني كنت أريد الاحتفاظ بها لولا التعليمات القاضية بتسليم أي شيء يحمل توقيع صدام إلى مكتب التحقيقات، وهو ما فعلناه. بعد انتهاء مقابلتي مع كرونغارد اتضح لي أن الطابق السابع لم تكن لديه أية فكرة عما واجهناه.

كنت قد عشت في العراق تجربة يتمنى كل محلل أن يخوضها. أقول ذلك بكثير من التواضع، إذ كان هناك العديد من الشبان والشابات قد قاموا بأعمال بالغة الأهمية وفي ظروف أكثر قسوة. كانت إعادة تكييف

نفسي بالعمل الروتيني في لانغلي بمثابة صدمة، ولكنني كنت مسرورا بعودتي إلى الولايات المتحدة حيث كنت أتطلع إلى إعادة توجيه حياتي العملية. عملت في مكتب إيران لغاية تموز 2004 حين باشرت عاما من العمل كمدير لتحليل القيادات بمدرسة شيرمان كنت، وهي أكاديمية تابعة لمديرية الاستخبارات لتدريب الضباط الجدد. ثم عدت إلى مكتب إيران حتى أواخر عام 2005.

كان الطابق السابع في وقت سابق من تلك السنة قد أصدر طلبا مستعجلا لمحللين مستعدين للعمل في العراق. كانت الدفعات الأولى قد انتهت فترات خدمتها هناك بينما لم تكن الحرب توحي بانخفاض حدتها. كانت المذكرة تذكر بوضوح أنك لو كنت محللا راغبا في أداء دوره الوطني فعليك أن تتطوع الآن. أما الحقيقة فكانت أن أكثر المدراء، بعد استثناء من كانوا في مكتب العراق، لم يكونوا مؤيدين للحرب و لم يريدوا من محلليهم أن يساهموا في خوضها. حين فاتحت رئيسي في المكتب الإيراني حول عودتي إلى العراق أخبرتني بأني سوف أضحي بأية فرصة للترقية لو فعلت ذلك. وحين أيدها مديرها زاد ذلك من عزمي على الذهاب، وهكذا في عام 2006 تطوعت للعودة إلى ساحة العراق.

باعتباري محللا أقدم في طاقم تحليل القيادات العراقية، تم إلحاق ما يزيد على عشرة محللين بطاقمي، كان أكثرهم حديثي التخرج من كلياتهم. وكانت غالبيتهم لا تنوي البقاء لدى وكالة الاستخبارات، وكانوا يعتبرونها جسرا في طريقهم إلى وظائف برواتب أكبر. لدى مباشرتي العمل لدى الوكالة كان المحللون يلتحقون بشكل فردي، وكانوا بالتالي يتلقون أفضل التدريب المكثف والإشراف. أما بعد الغزو فكان

المحللون يتوافدون على الوكالة بحافلات مكتظة. لم يمتلك غير القليل منهم مهارات تحليلية وكانت غالبيتهم تكتفي بنسخ مواد سبق أن تضمنتها تقارير الاستخبارات أو تلك الواردة من الخدمة القومية السرية.

كرست نفسي لموضوع كان يعتبره البيت الأبيض من أولوياته المهمة في 2006، أي موضوع مقتدى الصدر. برغم هيئته المتواضعة كان لدى الصدر جمهور كبير من الأتباع الموالين له من الشيعة العراقيين لأنه كان نجلا وصهرا لاثنين من حملة لقب (آية الله) اغتيلا من قِبَل وحدات الاغتيال التابعة لصدام. كان الصدر شوكة في خاصرة إدارة بوش منذ إطاحة حكم صدام. لقد باشرت بدراسة الصدر حين طلب الجنرال جورج كيسي الابن، قائد قوات التحالف لغاية عام 2007 تقريرا يقارن بين الصدر وحسن نصر الله، زعيم حزب الله، الميليشيا الشيعية في لبنان، المعروفة بأنها أفضل مجموعة من المقاتلين من حيث التدريب والتجهيز في المنطقة.

فوجئت بالترفع والازدراء في توجه وكالات الاستخبارات الأميركية تجاه الصدر. كان يُقال أحيانا إنه يتطلع إلى أن يصبح نصر الله العراق ولكنه كان أقل منه شأنا في مهارات التواصل والقيادة. كان ذلك صحيحا، غير أن الولايات المتحدة أخفقت في اعتباره مجرد قاتل سفاح مجنون كان يمضي أوقاته مع ألعاب الفيديو. وكان مكتبي لم يزل يعتمد على تقييم بالٍ كان قد أعده محلل مستجد في 2003.

في غضون ذلك كان الصدر يطالب مرارا بجلاء قوات التحالف من العراق. وبعد أن أغلقت سلطات التحالف صحيفته، الحوزة، بتهمة التحريض في آذار 2004 انتقل جيش المهدي التابع للصدر إلى العنف

الذي أسفر عن مقتل عشرات من الجنود الأجانب ومن السنة. ثم حين قام بول بريمر، رئيس سلطة التحالف المؤقتة، بوصف الصدر بأنه خارج عن القانون في 5 نيسان 2004، دعا رجل الدين الشيعي إلى الجهاد ضد التحالف. وبعد ذلك بأربعة أيام أوقع جيشه قوافل عسكرية في كمائن وهي متجهة من وإلى مطار بغداد. كان لدينا الكثير من المعلومات عن الصدر، إلا أن أكثرها كانت ركيكة، فمع حلول عام 2006 حين كان جيش الصدر قوة قتالية تخيف كلا من السنة والجنود الأميركيين، كان يفترض أن تكون لدينا معلومات دسمة جاهزة لاطلاع صانعي القرارات عليها.

لدى مباشرتي في الاطلاع على التقارير أصابتني صدمة لكوني لم أجد أي ذكر لوالد مقتدى، محمد صادق الصدر الذي كان قد قتل في 1999 إبان جولتي الأولى كمحلل لقيادات العراق، فكانت أعمال الشغب في أعقاب مقتله أكبر تهديد لحكم صدام منذ الانتفاضات الشيعية في جنوب العراق بعد انتهاء حرب الخليج. لم يبدُ هنالك من كان يتفهم مدى تأثير مقتل الصدر على مقتدى وعلى الشيعة العراقيين. كما لم تجرِ أية دراسات عن تطلعات مقتدى الصدر ولا عن مكانته في التجمعات الدينية. أما الأسوأ من ذلك فكان غياب دراسات حول علاقات الصدر بالحوزة الدينية في النجف بزعامة علي السيستاني، صاحب أهم نفوذ ديني وسياسي في العراق في أعقاب الغزو.

باشرت في إعداد عدد من التقارير عن الصدر وعما كان يتطلع إلى تحقيقه. كنت على علم بأن الرابط بين الأب والابن كان بالغ الأهمية، وأن ملايين الشيعة الذين كانوا يبجّلون محمد صادق الصدر قد حولوا

تأييدهم لابنه. كنت ألاقي صعوبة في جعل الناس يفهمون أن الزعيم الشيعي الذي يعاني من أجلهم سيبقى مؤثرا على أتباعه بعد وفاته تماما كما كان أثناء حياته. ثم في أواخر عام 2007 استدعاني رئيس مجموعتي إلى مكتبه ليخبرني أن البيت الأبيض يريد (غوصا عميقا) عن رجل الدين، أي عرضا موجزا لا يتجاوز ربع الساعة أو عشرين دقيقة أمام الرئيس في المكتب البيضوي. وكانت ورقة حول موضوع الغوص العميق كثيرا ما يتم إعدادها وتسليمها إلى البيت الأبيض ليتمكن الرئيس ونائبه من الاطلاع عليها خلال عطلة نهاية الأسبوع قبل الاستماع إلى العرض الموجز صباح الاثنين. شعرت بخفقان في قلبي لكوني كنت سأقوم بشيء طالما كنت أريد القيام به، أي التوجه إلى المكتب البيضوي، لأقدم ملخصا إلى الرئيس.

صحيح أن وصف الموضوع بأنه (غوص عميق) يبدو مضلِّلا ولكنه كان مع ذلك وسام شرف للمحلل. فانهمكت في إعداد ورقتي التي استنتجت فيها أن مقتدى الصدر كان يلاقي صعوبة في التأقلم مع العيش في إيران حيث كان قد لجأ في كانون الثاني 2007 قبيل قيام الولايات المتحدة بضخ عدد من القوات الإضافية إلى العراق، إلا أنه كان سيحتفظ بتأثيره القوي في الميدان السياسي العراقي بشرط ألا يطول مكوثه في إيران. جعلتني التقارير أعتقد بأنه كان متذبذبا حول خطواته التالية وحول سبل احتفاظه بدور له في ما كان يجري داخل العراق.

كنا أنا ورئيس مجموعتي متفقين على ذلك، ونال التقرير إعجاب غالبية من اطلعوا عليه. ثم مر التقرير بمراحل عدّة من المراجعة والتحرير من قبل رئيس الطاقم، ورئيس المجموعة، قبل أن ينتقل إلى محرري تقرير

الرئاسة اليومي. واجهتُ بعد ذلك (لجنة قتل) يسعى فيها خبراء إلى طرح أسئلة قد تثار في البيت الأبيض. وارتأى مديري أني بحاجة إلى المزيد من الإعداد، فتعرضت إلى لجنتي قتل إضافيتين. وفي غضون ذلك كانت ترد معلومات جديدة كل يوم فكان علي أن أقوم بتحديث تقريري بشكل متواصل.

الاستعدادات للغوص العميق - تحديد نقاط التقرير، وكتابته، ومروره بلجان القتل - استمر لمدة بضعة أسابيع قبل موعد المقابلة في المكتب البيضوي، أي في 4 شباط 2008. استيقظت في الساعة الثانية ليلا كي أصل إلى لانغلي في الرابعة فجرا. راجعت حاسوبي لأرى إن كان قد حدث شيء في العراق يستدعي إضافته إلى تقريري. ثم صعدت إلى الطابق السابع لعرض المراجعة الأخيرة لتقريري. (تقوم وكالة الاستخبارات بتزويد أعضاء طاقم الرئيس للأمن القومي بتقارير استخبارات يومية، بالإضافة إلى الرئيس ونائب الرئيس). ثم رافقت المحلل الذي يزود مدير الاستخبارات القومية، الأدميرال مايك ماكونل، الذي زودته بملخص لما كنت أنوي عرضه، فبدا راضيا عنه. ثم أطلعني على مكان جلوسي في المكتب البيضوي.

تبدو الأجواء خيالية حين تجد نفسك تنتظر دورك للتحدث مع أقوى رجل في العالم، فغرفة الانتظار كانت مليئة بأناس يتنقلون بسرعة وبنشاط. وشاهدنا بعض شخصيات الإدارة البارزين وهم يدخلون مكتب الرئيس. ثم جاء أحد مضيفي البيت الأبيض حاملا صينية مشروبات غازية، وكانت الصينية وكل ما عليها من زجاجات تحمل ختم الرئاسة.

أخيرا خرج أحد المعاونين وقال لنا: الرئيس جاهز لاستقبالكم الآن.

لدى دخولي وجدت أنني سأجلس على أريكة تقع إلى يمين نائب الرئيس، وكان كل من الرئيس ونائب الرئيس يجلس على كرسي منفرد. كان معنا في المكتب زميلتي المحللة كارن والأدميرال ماكونل ومستشار الأمن القومي ستيفن هادلي ومقدم التقارير من وكالة الاستخبارات. لدى جلوسي قال لي الرئيس: انطلق وأعطني ما لديك.

باشرت بتقديم ملاحظاتي الأولية ولكن قبل أن أنتهي من نصفها قاطعني الرئيس بعدد من الأسئلة. تحدثنا عن الصدر لبضعة دقائق وبدا الرئيس منشغلا ومهتما بالتقرير الذي أعددناه. قال بوش إن التقرير كان يلبي تماما ما كان يتطلع إلى رؤيته لكونه زوده بالكثير مما كان لا يعرفه عن مقتدى. ثم أشار مازحا إلى أنه ومقتدى كانا يعانيان من ارتباطهما بأبوين مشهورين. وكانت الإشارة إلى مشكلات الصدر في السيطرة على تياره وإلى استيائه من العيش في إيران، أفضل ما سمعه البيت الأبيض من أخبار سارة عن الصدر منذ عام 2004. وكان ازدراء الرئيس للصدر واضحا منذ أن أصبح العفريت العراقي الشرير الجديد. أثناء حديثنا سألني الرئيس إن كان علينا أن ندبر قتله، فقلت له إن ذلك لن ينجح إلا في جعله شهيدا ويزيد بالتالي من شعبيته.

عند ذاك ذكر مدير الاستخبارات الوطني أني كنت أول من استجوب صدام حسين، فسألني بوش: كم منكم كان أول من يستجوبه؟

فقلت له إني لا أعرف إن كان صدام قد التقى أحدا قبلي ولكنني كنت أول شخص من وكالة الاستخبارات المركزية يتحدث معه. ثم سألني بوش عن طبيعة عملي في بغداد فقلت له إني عملت محللا

للمستهدف رقم واحد. وسألني إن كنت لدى السفارة، فأجبته بأنه لم تكن هناك سفارة آنذاك ولم يكن هناك غير مقر سلطة التحالف المؤقتة. وسألني إن كنت أعرف جورج بيرو، وكيل مكتب التحقيقات الفدرالي الذي كان موضوع تغطية برنامج (ستين دقيقة) التلفزيوني قبل بضعة أسابيع، فأخبرته إننا لم نلتقِ مطلقا.

سألني بعد ذلك عن طبيعة صدام، فقلت له إنه كان يبدو مسالما وكان يلجأ إلى التواضع المرح بهدف إراحتك. هنا بدا بوش وكأنه سيفقد صوابه **فسارعت إلى التوضيح بأن تصرف صدام كان مجرد مناورة وأن صدام الحقيقي – أي ذلك الرجل الذي عرفته – كان ساخرا ومغرورا بالإضافة إلى كونه قاسيا وساديا، ما جعل بوش يهدأ.** ثم سألني بوش عما جعل صدام يمتنع عن قبول عرضنا بأن يغادر العراق. ففي 17 آذار 2003 خاطب بوش الشعب الأميركي ليعلن بأنه قد منح صدام ثماني وأربعين ساعة لمغادرة العراق قبل أن تشن الولايات المتحدة هجومها لإطاحة نظامه. أوضحت بأن صدام لم يشعر بالأمان إلا في العراق وأنه لم يتوقع أن الولايات المتحدة لن تكون قادرة على تحمل حرب قاسية. سألني بوش إن كان صدام يعرف أنه سيتم إعدامه، فقلت له إن من أوائل الأمور التي أشار إليها صدام كانت معرفته بأن حبسه سينتهي بإعدامه، وأنه قد سلم نفسه لذلك. فقال بوش إن صدام ستترتب عليه مساءلة عسيرة في الآخرة.

الجلسة التي كانت بحسب المألوف ستدوم عشر دقائق أو ربع ساعة استغرقت نحو ثلاثين دقيقة كانت منعشة ومضنية في آن واحد. كانت منعشة لكوني كنت أتحدث مع رئيس الولايات المتحدة، ومضنية لكونها

كانت تتطلب مني اليقظة الكاملة، وكنتيجة للأسابيع التي أمضيناها في الاستعداد لها، ولدى انتهاء الجلسة كان كل ما يحركني هو الأدرنالين. شكرنا الرئيس ثم تبسم لدى توجهي إلى الخروج وسألني: هل أنت متأكد من أن صدام لم يقل شيئا عن مكان إخفائه لزجاجات الحمى القلاعية؟ فضحك الجميع. أما أنا فلم أعتبر هذا التعليق لائقا، بالنظر إلى فقدان الولايات المتحدة ما يزيد على أربعة آلاف شاب وشابة، ناهيك عن عشرات الآلاف من الجرحى.

لدى عودتي إلى المقر الرئيسي حضرت الاجتماع الصباحي في الطابق السابع وقدمت موجزا لما تم في المكتب البيضوي. كانت أوجه الجميع مبتسمة لكون ما قلته قد أرضى الرئيس. كما كنت أنا مسرورا بسبب الاستحسان الذي ناله ما عرضته. ولكن انتابني بعض الانزعاج بمقدار اهتمام كبار مسؤولي الوكالة بإرضاء الرئيس.

بعد ذلك طلبوا مني إعداد تقرير حول استجواب صدام قام مكتبي بتقديمه أمام المكتب البيضوي في آذار 2008. ثم تلقيت في نيسان دعوة لمناقشة استجواب صدام مع نائب الرئيس تشيني الذي لم يحضر جلسة البيت الأبيض لأسباب صحية. أعددت ما كنت قد تعودت عرضه حول كيفية استجواب صدام وعما حصلت عليه من معلومات، وتوجهت مع بيل، الذي تبعني في بغداد، وجورج بيرو، رئيس طاقم مكتب التحقيقات الفدرالي الذي استجوب صدام والذي خصص برنامج (ستين دقيقة) حلقة عنه. حضر اللقاء مع تشيني عدد من مساعديه، بمن فيهم ديفيد آدنغتون وجون هانا. كنت قد سمعت الكثير عن هذين الأخيرين كما سبق لي أن عرضت الموضوع على هانا وكونت عنه انطباعا بأنه واسع

الاطلاع وبأنه ميال إلى التمسك بأيديولوجيته الخاصة. أما شخصية آدنغتون فكانت مثيرة للجدل.

كان تشيني مستهدفا بكثير من الانتقادات التي كانت تصوره بأنه مصدر الشر في إدارة بوش. أما أنا، ومن خلال تعاملي القليل معه، فوجدته مهنيا ومحترما وحساسا تجاه الآخرين. كان يتوقع مني أن أقود العرض ولكني ذكرته بأنه سبق له وأن استمع إلى بعض مداخلاتي، فمن الأفضل أن يتولى بيل دور الراوي. قدم بيل عرضا عن استجوابات وكالة الاستخبارات بشكل مركز وحكيم، ثم قمنا نحن الثلاثة بعرض ملاحظاتنا على الحاضرين. أما تشيني فلقد استمع إلى مجمل ما قدمناه وسأل عددا من الأسئلة النافذة دون أن يكشف عما كان يرمي إليه. كان من اللاعبين السياسيين المتمرسين وكان خبيرا في التستر على أوراقه.

كان لدى تشيني جانب إنساني ما كان يراه غير عدد قليل من الناس. أنا وجدته مهنيا وجديرا بالاحترام وكان يمهد السبيل أمام إجراء مناقشات حرة وسلسة. لم أشعر بأنه يناور من أجل الحصول على إجابة معينة، بل كان يصغي لما تقوله، ثم ينتظر خروجك قبل أن يطلع الرئيس على آرائه التي ربما تكون مغايرة لما قلته. ولكنه كان يستمع بانتباه وتركيز، وهي صفة لم يتمتع بها بوش. في إحدى مراحل الجلسة سألنا تشيني عن أحد مساعدي صدام فأوضحنا له أن صدام ما كان يستسيغ إحاطة نفسه بأشخاص أذكى منه فكان يعين العديد من أصحاب المهارات المتواضعة. ضحك تشيني وقال إنه يتبع الأسلوب ذاته، ما جعل المساعدين الحاضرين يغصون ضاحكين.

في مرحلة لاحقة أعلن تشيني فتح الجلسة أمام الجميع ليطرحوا ما لديهم من أسئلة، وكان واضحا أن محضر الجلسة كان سيشير إليه تشيني في مذكراته. رشقنا المساعدون بسيل من الأسئلة: ما الذي كان يربط صدام بالهجوم الأول على مركز التجارة العالمية؟ كيف كانت علاقات صدام بالإرهابي الفلسطيني أبو نضال؟ ما الذي قاله صدام عن مساندته للعمليات الاستشهادية في إسرائيل؟ ما الذي قاله عن دعم منظمة التحرير الفلسطينية؟ هل تحدث صدام عن الاجتماعات بين أسامة بن لادن وفاروق حجازي، المسؤول الكبير في المخابرات العراقية الذي التقى ببن لادن في أواسط التسعينيات قبل أن يصبح سفيرا للعراق لدى تركيا؟ ماذا عن أسلحة الدمار الشامل؟ هل كان صدام يخطط لإعادة تكوين ترسانته؟

لم يتوقفوا عن طرح الأسئلة الساخنة ذات العلاقة بالإرهاب والتي كنا قد أجبنا عليها مرارا خلال السنة الفائتة. كان من المقرر ألا تتجاوز مدة الجلسة نصف ساعة، ولكنها استمرت لمدة تسعين دقيقة.

11

في تقاطع مع الرئيس

بعد ذلك ببضعة أشهر طُلب مني أن أذهب إلى البيت الأبيض للمشاركة في جلسة (غوص عميق) أخرى، ولكن دوري هذه المرة كان لمساندة محلل شؤون الخليج الذي كان سيتحدث أمام الرئيس حول ميول الشيعة في المنطقة وتوجهاتهم. وكنت أنا موجودا أيضا لأجيب عن الأسئلة المتعلقة بالعراق أو إيران. فعلنا كل ما كنا نفعله استعدادا لمثل هذه الاجتماعات: تم إعداد تقريرنا المكتوب وتزكيته وعقدنا جلسة القتل وعرضنا ما أعددناه على مسؤولي الطابق السابع لنطلعهم على ما كنا سنقوله. ولكن مهما بذلت من جهود لإعداد نفسك عليك أيضا أن تتوقع المجهول.

تم تحديد الثامن من أيار 2008 موعدا للاجتماع وكنت متشوقا لذلك، إذ قلت لنفسي: سوف أذهب إلى المكتب البيضوي وأجلس مع النخبة والعظماء مرة أخرى وستتاح أمامي فرصة التمعن في أجواء المكان، إذ كنت في المرة الأولى متوترا إلى حد جعلني أنسى تفاصيل المكتب البيضوي. لم أتعرض إلى مثل ذلك التوتر في دوري المساند للمحلل الآخر، برغم ضعف معلوماتي وخلفياتي عما كان يتضمنه تقرير زميلي من

مواضيع مثيرة للجدل، فكان التقرير يتضمن جزءا كبيرا عن الدعم الإيراني للإرهاب فبلغوني بأن أكون مستعدا للإجابة على أسئلة حول هذا الموضوع، فقمت بمراجعة مكثفة للموضوع كي أتمكن من تقديم إجابات موزونة وموضوعية.

مع اقتراب الموعد كانت ثقتي بنفسي تزداد إزاء اجتماع المكتب البيضوي، فكنت قد غمرت نفسي في موضوع إيران والإرهاب. استيقظت في الثالثة من فجر اليوم المحدد كي أجهز نفسي للانتقال إلى مقر الوكالة ومن ثم إلى البيت الأبيض. راودني أول شك بأن النهار لن يمر كما كنت أتوقع حين وصلت إلى الطابق السابع لألتقي بالآخرين فسألوني عن تقرير كان قد ورد خلال الليل وكان يتضمن معلومات مهمة. أدركت من أول نظرة أن التقرير بدا غريبا ومغايرا لكل ما كنت أعرفه عن الموضوع، فلم أعر له الكثير من المصداقية.

كان مدير الاستخبارات القومي قد بدا لي خشنا في لقائنا الأول ولكنه تبين في الحقيقة رجلا طيبا يتولى وظيفة مستحيلة تتمثل في السعي إلى السيطرة على أجهزة استخبارات منفلتة وفي التعامل مع رئيس يُقال عنه إنه كان مستبدا في تعامله مع موظفيه ومستشاريه. بدت عليه معالم الانزعاج حين أخبرته بأن دوري في الجلسة كان سيقتصر على الإسناد، وقال إنه عليّ رغم ذلك أن أستعد للمساهمة بشكل ما، فأطلعته على النقاط الرئيسية في تقريرنا. أعتقد أنه كان يتوقع أني لم أكن مستعدا ولكن ذلك كان أبعد ما كان عن الحقيقة. أبلغني ماكونيل أن الرئيس كان منشغلا جدا فربما لن يتمكن من تخصيص وقتا طويلا لنا، وأضاف أن فترة وجودنا في المكتب البيضوي

لن تزيد عن خمس دقائق وعليّ أن أتوقع سؤالا منه عن الصدر.

بعد فترة انتظار قصيرة اصطحبونا إلى داخل المكتب البيضوي حيث رحب بنا كل من الرئيس ونائبه. باشر زميلي غريغ بتقديم موجز لتقريره عن دول الخليج وتعرض على الفور إلى رشقة أسئلة من الرئيس. كان الرئيس يبدو منزعجا ومشتت الذهن، إذ كانت ابنته جينا ستتزوج خلال الأسبوع، كما كان يعد نفسه لزيارة مهمة إلى الشرق الأوسط كان سيعود منها قبيل حفل الزفاف. لا أعتقد أنه كان قد قرأ تقريرنا مساء اليوم السابق كما كانت عادته. عادت معالم الانزعاج إلى وجهه حين أثرت موضوع الصدر واحتمال انتقاله إلى السعودية، فقال بوش إن الملك عبد الله لم يكن المودة للصدر وأن السبب الوحيد للسماح له بدخول السعودية كان لأداء فريضة الحج. ولكن العاهل السعودي ما كان سيترفع عن مجاملة الصدر، وكان أحيانا يزوده بالمال الذي كان الصدر بأمس الحاجة إليه.

ثم قال لي بوش إن عادل عبد المهدي، عضو المجلس الإسلامي الأعلى في العراق، قد أخبره أن الصدر كاد يكون متخلفا. أخبرت بوش أنه سبق لي أن سمعت مثل هذه التعليقات عن الصدر، ولكن عبد المهدي كان من أعداء الصدر فربما كان ذلك يشوه نظرته عنه. لم يكن الرئيس قد احتسب كون القادة المتناحرين العراقيين قد يلجؤون إلى الإساءة بغية إرضاء الولايات المتحدة. بدا بوش مقتنعا بأن العراقيين ما كانوا سيكذبون عليه بعد أن قام بإنقاذ بلادهم من قبضة الطاغية. فاجأتني سذاجته لكونه كان رجلا ذكيا وليس كذلك الطالب الكسول الذي لا تتجاوز درجاته درجة (مقبول)، كما كانت تظهره وسائل الإعلام الساخرة. كنت قد

أدركت بمجرد التحدث معه بأنه كان يقرأ الكثير من الاتصالات السرية وتقارير الاستخبارات.

بعد مرور خمس دقائق بدأ الملل يظهر على وجهه، فوضع الأوراق أمامه وقال: حسنا، إذا ما تقوله هو أن كل شيء على ما يرام، أهذا صحيح؟

أجابه محلل الخليج، غريغ، وقال إنه صحيح. فسألني بوش: طيب، ما هو الموقف مع الصدر؟

كان الصدر يجتذب الانتباه الدائم في البيت الأبيض إبان عهد بوش، فبرغم كوني قد أطلعت الرئيس في شأن الصدر في شباط المنصرم، إلا أنه أراد تحديث معلوماته عن رجل الدين هذا. كنت بصراحة قد أعددت نفسي للإجابة عن أسئلة تتعلق بالتقرير الذي تسلمه منا الرئيس، ففوجئنا بطلب الرئيس. كنت أنا مزودا بكل التطورات ذات العلاقة برجل الدين العراقي، ولكني وجدت نفسي مطالبا بتقديم عرض منسق خلال أقل من ثلاثين ثانية وأن أكون جاهزا للإجابة على أية أسئلة، وهو أمر ليس سهلا. فكلما كانت وكالة الاستخبارات تحضر إلى المكتب البيضوي لإجراء (غوص عميق) حول موضوع محدد، كنا نعد تقريرا من شأنه أن يساعد على وضع المناقشة ضمن إطار محدد. كان ذلك مهما جدا لكون بوش ميالا نحو توجيه سيل من الأسئلة المتباينة إلى مقدم العرض.

كان الرئيس قد غير كليا نقطة التركيز في الاجتماع، فما كنا سنعود لمناقشة موضوع غريغ، وأصبح الرئيس يطالب بعرض لموضوع مختلف تماما، أي موضوع الصدر، فوجدت نفسي فجأة وأنا أقدم عرضا للرئيس بلا تقرير مكتوب وبلا إطار محدد كان سيساعده في التركيز. كان رئيس

الوزراء نوري المالكي قد شن في آذار 2008 هجوما على الصدريين في البصرة الذين تلقوا ضربة شديدة برغم تمكنهم من محاصرة جماعة المالكي. لم أكن مستعدا لمناقشة مفصلة حول الصدر لكوني كنت قد أمضيت معظم وقتي في العمل على موضوع الإرهاب الإيراني لمساندة غريغ في عرضه. وفجأة وجدت نفسي محط أنظار الجميع وترتب عليّ أن ألجأ إلى الارتجال.

ها أنا في المكتب البيضوي حيث كان ماكجورج بندي يعرض تقاريره على الرئيسين جون كندي ولندون جونسون، وكنت دائما أعتبر هذا المكتب مكانا لمناقشة القضايا الدسمة بشكل جدي ومدروس. باشرت في طرح موضوعي، علما بأنني كنت المحلل الوحيد في المكتب القادر على التحدث حول الموضوع، بينما كانت الوكالة قد اعتادت على تخصيص محللين لتغطية كل قضية. أطلعت الرئيس على المساعي الإيرانية المحتملة لمقاضاة الصدر في قضية مقتل أحد منافسيه من رجال الدين في 2003. بدا بوش مستأنسا إزاء ذلك وضحك قائلا: من كان سيتصور الإيرانيين وهم يضعون الصدر تحت المطرقة.

سألني عن دوافعهم في ذلك فقلت له إن الإيرانيين كانوا يبحثون عن وسيلة للضغط على الصدر كي يجعلونه يتماشى مع مصالحهم. كما قلت له إن الصدر ربما سيفاجئنا جميعا وأنه لم يزل محاطا بالعديد من الأتباع وربما كان يتمتع بمرونة ما كنا نتوقعها. وجه لي بوش نظرة غريبة وسألني إن كنت أعتقد أن الصدر يمكنه أداء دور بناء في العراق أو أن يتصالح مع حكومة المالكي، فقلت له إن ذلك ممكن ولكنه غير متوقع في الأجواء السياسية الحالية.

قال بوش إن الصدر عديم الخبرة وأنه بلطجي وهو شخص لم تعد الولايات المتحدة بحاجة إلى التعامل معه. فكان ردي أن الصدر كان يمثل وجهات نظر أعداد كبيرة من العراقيين، وهو قادر على تحريك جماهير كبيرة لو أراد ذلك، فسألني الرئيس إن كان لدي ما يدل على ذلك، فقلت له إن الصدر قام أخيرا بمنع أتباعه من التظاهر كي لا يشعلوا نار العنف. فأجابني بوش بأنه قد اطلع على تقارير مفادها أن الصدر قال ذلك لكونه كان يعلم أن ما من أحد كان سيخرج للتظاهر. ما كنت قد سمعت ذلك - ولم أتخيل من أين أتى بهذا الهراء - ولكني لم أتابع الموضوع معه. وذهلت لكون الرئيس كان يريد مجادلتي. حاولت أن ألفت انتباه زميلتي من الوكالة بهدف جعلها تضع حدا للجلسة، إذ كان عليها بل على مديرها أن توضح للرئيس بأن الوكالة قد حضرت لعرض موضوع الشيعة، وفي إمكانها تقديم (غوص عميق) عن الصدر في وقت لاحق. ولكنهما التزما الصمت وبدا الجميع خائفين من إثارة أعصاب بوش، بمن فيهم كبار مستشاري الرئيس.

كان واضحا لدى طاقم الأمن القومي أن الرئيس كان مربكا، وذلك من خلال ردود فعله على كلامي، فبادروا إلى التعبير عن تأييدهم له وإلى مهاجمتي باعتباري غريبا معاديا. فعبر وزير الدفاع روبرت غيتس عن استخفافه بما كنت أقوله، قائلا: يا سيادة الرئيس، إننا مقتنعون بأن الصدر لم يعد مصدر تهديد، فهو يقول شيئا اليوم ليعود في يوم آخر ويقول شيئا آخر. إنه مشتت وما يقوله لا يعني شيئا. فتدخلت قائلا إن الصدر ظل ثابتا في التعبير عن معارضة الولايات المتحدة وكان قد عزز قدرته على اجتذاب أتباعه. عند هذه النقطة

قالت لي كوندوليزا رايس: ولكن ألا تعتقد بأنه تافه؟ فما الذي يجعل أحدا يصغي إليه بجدية؟

فقلت لها: مع كل احترامي يا سيادة الوزيرة، لقد سمعت ذلك طوال السنوات الخمس الأخيرة، ولكننا بوصفه تافها نكون قد أسأنا لأنفسنا لكوننا نستخف به. هنا تدخل بوش وهو يكاد يصرخ في وجهي: هكذا؟ أما أنا فأعتقد بأننا نبالغ في تقييمه! إنه بلطجي وقاتل، والشعب العراقي لا يريد ذلك.

ومضى الرئيس إلى أن الحرية هي التي ستسود في المستقبل، وأبناء الشعب العراقي يريدون الأمان لعائلاتهم مع حق السعي إلى توفير العيش الكريم، وأنهم سئموا تعرضهم إلى القتل من قبل الصدر، ثم سألني عن رأيي في ذلك. أقريت له بأن جيش المهدي بقيادة الصدر قد أساء لنفسه بسلوكه العنيف، ولكن الدين كان يعني الكثير لأتباع الصدر. وأضفت أن مقتدى، ووالده المبجل محمد صادق يتمتعان بمكانة أيقونية لدى شيعة العراق الذين هم الأغلبية بين سكان العراق. وخطر لي أن المفارقة كانت أنني كنت أشرح للرئيس - وهو رجل متدين - مدى أهمية الدين في العراق.

عندئذٍ تدخل الأدميرال مايكل مولن، رئيس هيئة الأركان المشتركة، وقال إنه قرأ أن بعض المقربين من الصدر قد رووا له إنهم حلموا بصور والده وهو يبكي دما، فسألني مولن: ما الذي يتحدثون عنه؟ شرحت له أنه ليس من غير المألوف أن يعبر الصدر ومستشاروه عن أنفسهم بهذه الطريقة. وقلت له إن الصدر ميال نحو الروحانية، وأنه كان يتتلمذ لينال مرتبة آية الله، وأنه كثيرا ما كان يرى الأمور من خلال موشور تجارب

والده. كما شرحت أن الأحلام في الثقافة الإسلامية يُنظر إليها بشكل مختلف عن النظرة الغربية، فنحن نكاد نعتبر الأحلام ضربا من الهلوسة، بينما يعتبرها الشيعة أحيانا بأنها لها تأثير حقيقي على الأحداث أو كنذير لا بد من اعتباره جادًّا. ونقلت عن أشخاص كانوا يعرفون والد الصدر إجلالهم ورهبتهم تجاهه بطريقة تشبه تحدث بعض السنة عن صدام حسين.

حين سألني بوش بلهجة تهكمية عن العراقيين الذين كنت أتحدث معهم ضحك الجميع مع ضحكة الرئيس. فأطلعتهم على أن العديد من العراقيين كانوا إلى يومنا هذا يتجمعون عند قبر صدام حسين لإحياء ذكراه، كما قررت أن أطلع الرئيس على بعض من كلمتهم من العراقيين، وخصوصا عن واحد منهم كنت قد استجوبته في 1988، وكان أحد مساعدي نجل الرئيس عدي. وصفته بأنه كان لبقا ويجيد الانكليزية ولديه إلمام بالسياسات الدولية، ويحسن المناورة ضمن منظومة صدام السياسية، كما كان مقتنعا بأن صداما وعديا كانت لديهما القدرة على قراءة أفكار الناس. سعيت إلى جعل ذلك نموذجا عن طبيعة العراقيين، **خصوصا من كان منهم قد عانى من الإرهاب الاعتباطي الذي كان يُستخدم بحقهم.**

ضحك الرئيس إذ إن نظرته إلى العالم المحددة بالأسود أو الأبيض فقط لم تتح له تقبل أن أي عراقي كان يجل الدكتاتور المطاح.

كان بوش يسألني مرارا إن كنت أعتقد أن الصدر قادر على القيام بدور بناء في العراق، أم إنه سيبقى على خلاف مع الولايات المتحدة. قلت له إن أباه كان معاديا لأميركا وأن مقتدى كان ميالا إلى الموقف ذاته. سألني بوش عن سبب ذلك العداء، فذكرت له أن الصدر الأب كان

قد ندد بحرب الخليج وبالسياسة الأميركية تجاه إسرائيل. كما قلت له إن الصدر يمكنه في الأرجح أن يكون طرفا بنّاء كما يمكنه أن يكون مصدر إزعاج. كنت أدرك أن هذه الإجابة لن ترضي بوش، إذ كانوا قد أخبروني بأن الرئيس يريد الاستماع إلى آراء واضحة حتى وإن كانت خاطئة، لا أن تتسم بالمراوغة. كما أوضحت أن الصدر سيبقى على الأرجح يحتفظ على المدى القصير بآرائه المعادية للولايات المتحدة، ولكن الأرجح أيضا فهو أن الصدر سيتبنى بعد عودته إلى العراق مشاعر معادية لطهران قد تنصب في صالح أميركا.

مال بوش نحوي وسألني مرة أخرى: هل كان علينا أن نقتله؟

كان قد سألني ذلك خلال لقائنا الأول في المكتب البيضوي، ووجهه أيضا إلى عدد من المحللين الآخرين. لم أعرف ما الذي كان يجعله يحوم حول هذا الموضوع، أو ما الذي يجعله يسأل موظفا بسيطا إن كان على الولايات المتحدة أن تخالف القانون. فأجبته قائلا: كلا، ليس علينا أن نقتله فسوف يسفر ذلك عن تحويله شهيدا، وعن جعل المزيد من الناس ينتمون إلى حركته.

وحذرت الرئيس من أن التعامل مع القضايا والناس في الشرق الأوسط لا يتيح له تصنيفهم بدقة تجعله يدرك بوضوح من هو العدو ومن هو الصديق، فكثيرا ما يتعذر تبويب الناس وفق معايير محددة، فهم يقومون أحيانا بأفعال متناقضة في آن.

فسألني الرئيس: فما هو الحل؟ ما الذي عليّ أن أفعله؟

قلت له إن تبني التوجه السلبي ليس سهلا، ولكن الصدر قد يصبح ألد عدو لنفسه، فبمعزل عن وجود الولايات المتحدة كالعفريت المخيف،

قد يرتكب الصدر خطأ يحرمه من وضعه القيادي. فنظر إليّ بوش وقال: كان هنالك من يقول إن عليّ أن أترك صداما وشأنه، ولكنني برهنت لهم خطأ ذلك.

فأجبته قائلا: أجل سيدي، لقد فعلت.

كنا نتحدث عن الصدر ولكن فحوى الحديث كان سينطبق على صدام أيضا. بعد قضائه سبع سنوات كرئيس للبلاد كان بوش قد انهمك في دراسة الشأن العراقي ولكنه ظل لا يتفهم تداعيات الغزو في المنطقة. كان أحد الزملاء قد أخبرنا أن بوش كان يقرأ كتاب ديفيد فرومكن الصادر في 1989 بعنوان (السلام الذي قضى على كل سلام: تكوين الشرق الأوسط الحديث). إنه كتاب مشوق يروي كيف تورطت قوى التحالف في الحرب العالمية الأولى في منطقة الشرق الأوسط وقامت بتقطيع المنطقة إلى مناطق نفوذ بمعزل عن الاعتبارات العرقية والطائفية وتداعياتها. كان سيتأمل المرء من رئيس يتمتع بهذا المستوى من الفضول الفكري أن يراجع نفسه مرارا قبل أن يطلق كلاب الحرب. ولكن بوش كان يقرأ الكتاب في 2007 وليس في 2002 – أي قبل أن يقحم الولايات المتحدة في النزاع المدمر في العراق.

أخيرا سمعنا صوتا عقلانيا عائدا إلى ديك تشيني الذي طلب إطلاعه عن آية الله العظمى علي السيستاني. تحدثنا قليلا عن وضعه الصحي – إذ كان قد توجه في 2004 إلى لندن لتلقي علاجا لقلبه – وكيف أنه كان يحث الشيعة على تبني الاعتدال في وجه العنف السني. لم يبدُ لا الرئيس ولا نائبه مهتمين بالموضوع، وكان المناخ العدائي قد تراجع بعد أن تركنا موضوع الصدر. سألوني عن رأيي حول من سيكون خليفة السيستاني،

فقلت إن المرجح هو آية الله العظمى محمد إسحاق الفياض الأفغاني. فضحك بوش وقال: أفغاني؟ سيلقنهم درسا!

ضحك الجميع قبل أن يعلن الرئيس لي ولزميلي أن مهمتنا قد انتهت وأذن لنا بالانصراف.

أثناء توجهي للخروج من المكتب البيضوي تبسم لي جوش بولتون، رئيس موظفي البيت الأبيض، معبرا عن تعاطفه معي في ما تعرضت إليه من معاملة. لم يسبق لي أن تعرضت لشيء كهذا من رئيس للولايات المتحدة، فقال لي زميلي غريغ: كنت عظيما. أما أنا فما كنت سأجد وسيلة للإجابة على تلك الأسئلة. لقد أحسنت بمعالجة الموقف.

لم أقتنع بذلك كليا، فلقد بدا ماكونيل منزعجا مني لدى خروجنا. كما كنت أعرف أن الرئيس لم يكن مسرورا، فكنت قلقا من ظهور مشكلة لدى عودتي إلى مقر وكالة الاستخبارات.

في طريق عودتنا سألت زميلتي في الوكالة عن رأيها في أدائي، فترددت وتلكأت قبل أن تقول بطريقة تنقصها الثقة: لا بأس.

بعد عودتي إلى لانغلي أطلعت أفراد المكتب على مجرى الجلسة فوجدت أن زملائي لم يتمكنوا من إخفاء قلقهم. المهتمون بديمومة عملهم المهني يعتبرون أن ما تقوله ليس مهما إذا تمكّنت من إرضاء الرئيس. ثم انتقلت إلى الطابق السابع لإطلاع كبار المسؤولين، فقلت لهم إن النقاش كان نشطا واكتفيت بذلك. شاهدت نظراتهم المتوترة و لم يرد أحد مني أن ندخل في مناقشة طويلة.

ثم بلغني أن مدير وكالة الاستخبارات، مايك هايدن، قد تم إبلاغه بأن الأمور لم تسر على ما يرام وأن الرئيس كان منزعجا. كان النهار

بمثابة إعصار لولبي – مع الذهاب أولا إلى المكتب البيضوي ومن ثم إلى وزارة الدفاع لاطلاع نائب وزير الدفاع، أريك أيدلمان – فلم أجد فرصة لتدوين تقريري حول مجرى الاجتماع. وكان عليّ في اليوم التالي أن أعد مذكرة تضاف إلى تقرير الرئيس اليومي، فلم يبق ما يكفي من الوقت لجمع أوراقي المتعلقة بالاجتماع. ثم حدث شيء غريب فلقد انتبهت إلى أن ما من أحد كان يطالبني بها. فأدركت أن الوسيلة الوحيدة لحماية نفسي كانت تتطلب مني إكمال كتابتها كي أضع روايتي عما حدث بين يدي الإدارة، فسارعت في إعداد مذكرتي الموجهة إلى الطابق السابع.

كانت النبذة الوحيدة من الأخبار السارة ظهرت حين قام مايك موريل، نائب رئيس وكالة الاستخبارات بإرسال ورقة إلى إدارة قسمي أعرب فيها عن اعتقاده بأني قد تعرضت إلى موقف بالغ الصعوبة إلا أني تمكنت من تدبر الموقف بشكل جيد. لم يشركني أحد من المدراء في الاطلاع على الورقة في حينها وفضلوا إخفاء الأمر عني كي أبقى عالقا مع عدم رضائهم عني. حين كنت أتجول في المقر خلال الأسابيع التالية كنت وكأنني مصدر أشعة نووية ضارة، ولم يتحدث معي غير زملائي المقربين. وحين سمعت في وقت لاحق عن رسالة موريل شعرت بالامتنان إزاء ذلك الإسناد من شخص كان يتفهم الضغوط التي يوجهها المحللون.

توفرت لي فرصة للعودة إلى المكتب البيضوي في أواخر أيام إدارة بوش، فاخترت ألا أذهب، قبل أن أشعر بالندم. كانت قد أتيحت لي فرصة للقاء الرئيس مرة أخرى، فكانت زيارتي الثالثة ستعتبر وساما على صدري، ولكنني لم أكن واثقا من تأثير تقريري على رئيس لم يبقَ من فترة ولايته إلا حوالى خمسة وأربعين يوما. أما الأهم فكان رفضي المعاملة

نفسها التي تعرضت إليها في زيارتي السابقة. شعرت بأن مقابلتي للرئيس كانت ستشبه التلويح بوشاح أحمر أمام عيني ثور هائج. ويكفي أن يتأمل المرء كم من أموال دافعي الضرائب كانت تبددها أجهزة الاستخبارات، خصوصا إذا تجاهل الرئيس كل ذلك العمل المكلف في حال عدم انسجامه مع وجهات نظره السياسية.

12

في ظل والده

كانت زيارتي للمكتب البيضوي جزءا من سياسة جديدة تم تبنيها في أواخر 2007. كان الرئيس مستمرا في تلقي التقارير الاستخباراتية في صباح كل يوم، ولكن البيت الأبيض طلب من وكالة الاستخبارات المركزية أن ترسل محللين لاطلاع الرئيس على جملة كبيرة من القضايا ذات العلاقة بالشأن العراقي. ويبدو أن المنطق الكامن وراء ذلك التغيير ربما كان نابعا من إحساس الرئيس بالإحباط إزاء ما كان يتم تزويده به، أو ربما لكون بوش ومستشاروه يفضلون تلقي وجهات نظر غير مختزلة. كان الوقت متأخرا لإجراء تعديل في العملية وما كان أحد يعرف مدى تأثيره على سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق، إلا أنه كان دليلا على إدراك الحكومة بأن سياساتها لم تكن ناجحة.

دعوة الإدارة إلى منح وكالة الاستخبارات المركزية المزيد من التأثير في المكتب البيضوي كان يمثل تغييرا راديكاليا، بعد أن كان طاقم بوش يكن العداء لخبراء الوكالة خلال فترة الاستعداد للحرب. ولم يكن حظ الوكالة أوفر لدى الإدارة السابقة، فكان كلنتون لا يثق بالوكالة ويستبعدها عن دوائر التأثير، ونادرا ما كان يستعين البيت الأبيض

بمحلليها، بل كانت جلسات الاطلاع الصباحية يتولاها مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي ساندي بيرغر.

جاءت دعوة بوش كمصدر بهجة للوكالة القائمة أصلا على تلبية كل ما يطلبه منها الرئيس وتبحث دائما عن سبل توفير احتياجاته. فكنا سننال المزيد من الوقت معه ليتوفر لنا بالتالي المزيد من الفرص لتعزيز مكانتنا لدى أهم زبون لدينا. وكان مكتب تحليلات العراق سيرسل محللا متمرسا إلى البيت الأبيض يوم الاثنين من كل أسبوع لاطلاع الرئيس حول المستجدات في العراق.

غير أن كل ذلك ما كان سيؤدي بالضرورة إلى توسيع مدى اطلاع الرئيس، إذ كانت الوكالة تتبع أسلوبها المعتاد بترك البيت الأبيض يحدد موضوع البحث، أي وفق (التوجه الخدمي) الذي كانت إدارة الوكالة قد تبنته باعتباره الأسلوب الأمثل حتى قبل تولي إدارة بوش مهام السلطة، ثم ترسخ هذا الأسلوب خلال الفترة السابقة للحرب مع العراق. صحيح أن الأسلوب كان سيسفر عن نتائج رائعة لو كان صانع القرار مطلعا كليا على مختلف جوانب القضية، وكانت لديه الشجاعة اللازمة لاتخاذ القرارات بغض النظر عن التداعيات السياسية. ولكن التوجه الخدمي قد تسفر عنه نتائج وخيمة لو كان الرئيس لديه انطباعات قوية مسبقة، ونقص في الانتباه والتركيز، ولم يبقَ غير القليل من الوقت قبل موعد الانتخابات التالية. كنت دائما أرتئي أن تحديد أهمية مواضيع البحث يجب أن يتولاه المحللون، فصناع القرار كثيرا ما يكونون منهمكين في العمل إلى درجة تحد من قدرتهم على ترتيب أولويات تركيزهم. ولكن كبار المسؤولين في الوكالة كانوا يعتبرون أن ترك اختيار مواضيع البحث للبيت

الأبيض سيمكن الوكالة من تفادي الانتقادات لو لم تسر الأمور على ما يرام، فكانت الوكالة في تلك الحالة ستقول إنها قدمت المعلومات المطلوبة وأن صانع القرار هو المسؤول في حال تعثر الولايات في وجه تطورات غير متوقعة.

كانت الوكالة بموجب التوجه الخدمي تزود عالم صانعي السياسة بأحدث استخباراتها الآنية التي كانت تروي المتعطشين للاطلاع على المعلومات السرية. وكانت تقدمها على شكل مذكرات مركزة يتم إرسالها صباح كل يوم إلى الجهات المعنية، وتتضمن وصفا لآخر التطورات في المناطق الساخنة المهمة. وكانت هذه التحليلات بطبيعتها تكتيكية وضحلة نسبيا، إلا أنها كانت تشبع فضول صانعي السياسة إلى معرفة آخر المستجدات في هذا الموضوع أو ذاك. فكان ذلك التوجه يضحي بالمضمون الاستراتيجي الضروري جدا في تكوين سياسة خارجية تمتاز ببعد النظر. لذا كنا في الواقع نقدم جرعات من الاستخبارات دون أن نوضح لصانعي السياسة الاتجاه الذي ستتخذه قضية ما أو ما سيتمخض عنها من عواقب. أما أصدقائي في وكالة الاستخبارات فيقولون لي إن هذا الحال لم يزل أشنع وأخطر تقصير في آلية الاستخبارات.

كنت مؤيدا متحمسا لبوش في عام 2000، بعد أن أتعبني قلقي من تعامل إدارة كلنتون مع الشؤون الخارجية - كنت أعتبر أن تعامل إدارة كلنتون مع الشؤون الخارجية يشبه سلوك طفل يعاني من النقص في الانتباه، فما كان كلنتون يبدو مهتما بالسياسة الخارجية إلا في حالات تأثيرها الإيجابي على موقفه السياسي في الداخل. كما كنت أعتقد -

بالاستناد إلى تجارب الماضي - أن رئيسا من الحزب الجمهوري كان سيتفوق في هذا المجال. وكان بعض زملائي المقربين في الوكالة يعيبون رغبتي بحصول تغيير في البيت الأبيض، ولكني عبرت لهم عن رغبتي في العمل مع إدارة تتعامل بجدية مع السياسة الخارجية.

كان طاقم كلنتون يتألف من مجموعة من الهواة الأذكياء الذين كانوا يعتبرون السياسة الخارجية شأنا كماليا وليس شأنا ملحّا من شؤون الأمن القومي. خلال العام الختامي لعهد كلنتونِ حضرت اجتماعا لمجلس الأمن القومي بصحبة زميلة كانت تساعد المجلس في إصدار تقييم انتهاكات صدام لحقوق الإنسان. كانت المحللة قد أعدت ورقة خصصت لها الكثير من وقتها وكان الاجتماع مخصصا لتهيئة الجميع لبيان كانت ستصدره وزارة الخارجية حول الموضوع. ثم لم يحدث أي شيء. أخيرا عقدت وزارة الخارجية مؤتمرا صحفيا عرضت فيه الورقة الخاصة بتفاصيل انتهاكات صدام لحقوق الإنسان. غير أن المؤتمر الصحفي تزامن مع إجراء عملية اقتراع سياسية أولية أسفرت عن نقل أخبار صدام إلى صفحات الجرائد الداخلية، فوعدت الوزارة بأنها ستتحقق مستقبلا من عدم تضارب الأخبار المهمة.

كما كان هنالك ذلك الاجتماع الشعبي بولاية أوهايو الذي حضره طاقم الأمن القومي - وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت ووزير الدفاع وليام كوهين ومستشار الأمن القومي ساندي بيرغر - حيث قام جمهور الحاضرين بمقاطعتهم وإسكاتهم وهم يحاولون توضيح سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق. لو كانت ستمر بضع سنوات أخرى بقيادة رئيس مشابه لكلنتون لكان صدام في الأرجح سيفلت من

العقوبات الدولية التي كانت بالفعل قد بدأت تتآكل لدى انتهاء ولاية كلنتون.

كانت آمالي في بوش كبيرة لكوني كنت أدرك نجاح والده في معالجة شأن السياسة الخارجية إبان رئاسته للبلاد. كانت وكالة الاستخبارات تواقة لوجود رئيس ملم بالسياسة الخارجية ليدير شؤون البلاد الدولية بدراية وعناية. كانت إدارة كلنتون تقدّم الشؤون الداخلية على أي شأن آخر، فكنت أتوقع من جورج بوش الابن أن يتولى الرئاسة ليضع حدا لاستخفاف صدام بالقانون الدولي ولقابليته على نشر الفوضى في منطقة الخليج بعمل عدواني جديد ولنجاحه المتزايد في تقويض نظام العقوبات. ولكنني كنت أظن أيضا أن سياسة إدارته الخارجية ستتسم بالعناية والحذر وليس بالمزاجية أو التهور. وكنت أفترض أن كولن باول سيكون مؤثرا جدا في اتجاه الاعتدال. كما توقعت لكوندوليزا رايس أن تكون مستشارة ذكية ومستقلة للأمن القومي. وتوقعت أن يستعيد ديك تشيني نمط عمله الذي حقق له كل ذلك النجاح كوزير للدفاع. ولكن رايس كانت ذكية وضعيفة، وتعرض باول إلى التهميش من قبل المحافظين الجدد، وتفوق تشيني على فاعليته بوزارة الدفاع ولكن بشكل معتم.

في أعقاب فوز بوش بعد إعادة فرز الأصوات كانت وكالة الاستخبارات تتطلع إلى قيامه بتعيين مدير يقود الوكالة بالكفاءة نفسها التي اتسم بها والده إبان توليه إدارتها في السبعينيات. غير أن الأب كان يتفوق على الابن في حسه المتميز تجاه عالم الاستخبارات. وكان يدرك بأن اللون الرمادي الغامض الذي يتخلل عمليات التحليل والتقييم يتراوح بدوره بين الفاتح والغامق، كما كان من المعروف أن الاستخبارات نادرا

ما تتضمن حقائق كاملة، لتستند بذلك الاستنتاجات إلى سلسلة طويلة من التخمينات. كما كان يقدر الخط الفاصل بين التحليل والسياسة وكان حريصا جدا على عدم سحب الوكالة عبر ذلك الخط. أما الأهم فكان تفهم بوش الأب للدور الذي يجب أن يلعبه مدير الوكالة. ففي كتابه (العالم وقد تحول) الذي شاركه في كتابته مستشاره للأمن القومي برينت سكوكروفت بعد انتهاء ولايته، دوّن بوش رؤيته عن كيفية أداء مدير الوكالة لعمله:

إنه ليس، ويجب ألا يكون، صانع سياسة ولا منفذا لها، بل عليه أن يبقى فوق السياسة ويقتصر عمله على شأن الاستخبارات. والاستثناء الوحيد لذلك، بحسب قناعتي المشددة، يتعلق بعمل سري ينبثق من قرار سياسي محدد. لم أطلب ضمي إلى كابينة الحكومة وكنت مقتنعا تماما بأن مدير الوكالة ليس عليه حتى حضور اجتماعات الكابينة الوزارية ما لم تكن تتعلق بالسياسة الأمنية الداخلية أو الخارجية.

في أعقاب أحداث 11 أيلول أعلن بوش أمام العالم أنهم إما معنا وإما ضدنا. كان العديد من الخبراء يعتبرون أن هذه النظرة إلى العالم قد تمخّضت عن الاعتداءات الإرهابية، ولكن الحقيقة هي أنها تمثل نظرة بوش إلى كل شيء، إذ كانت قاعدة (نحن ضد الآخرين) منتشرة في إدارة بوش حتى قبل 11 أيلول، وبعد فوزه بفارق ضئيل على منافسه آل غور. وكان من اقترن اسمه من المسؤولين بإدارة كلنتون يمثلون الأعداء فكان لا بد من إزاحتهم لكونهم وقفوا ضده.

أما أهم المستثنين فكان مدير وكالة الاستخبارات المركزية جـورج تينيت الذي أراد أن يحتفظ بوظيفته وبذل الكثير من أجل إظهار مـدى قدرته على مساعدة طاقم بوش في ما يتعلق بالسياسة الخارجية والأمـن القومي، وكما كتب بوش في مذكراته (نقاط القرار) في 2010:

مع انتقال رامسفيلد إلى وزارة الدفاع، لم يتبقّ لديّ مرشح لوكالـة الاستخبارات المركزية. كنت أكن احتراما كبيرا للوكالة نتيجة الوقـت الذي قضاه أبـي فيها. كنت أتلقى تقارير استخبارات خلال الأسـابيع التي أمضيتها كرئيس منتخب، حين التقيت بمدير وكالـة الاسـتخبارات جورج تينيت الذي كان مغايرا تماما لصورة مدير الاستخبارات المتـأنق والمترفع الواردة في روايات التجسس، بل كان من الطبقـة العاملـة في نيويورك حيث نشأ مع أبويه المهاجرين من اليونان. كان يتحدث بطريقة صريحة ومباشرة كما بدا واضحا باعتزازه بالوكالة.

كانت الصورة المرسومة في ذهن بوش المأخوذة من روايات التجسس تمثل الانطباع السائد بين معظم أعضاء إدارته. أما المفارقة فهي أنه كـان فخورا للغاية بوالده وبقيادته لوكالة الاستخبارات، إلا أن بوش الأب كان - كما كان ابنه - هو المترفع المتخرج من أرقـى الجامعـات. غـير أن الرئيس الجديد كان يبحث عن شخص يتميز بخشونته ورجولتـه ليقـود الوكالة. وكان، في الواقع، يبحث عن مغفل يمكنه السيطرة عليه والتحكم فيه. كما كان كل من تشيني ورامسفيلد يريد مديرا سـهل الإخضـاع ومستعدا ليكون كبش الفداء في حال وقوع خطأ ما. فوجدوا ذلك المدير

المثالي في جورج تينيت الذي كان طموحه العارم يتمثل في أداء دور بين كبار اللاعبين، ما جعله في نهاية الأمر يعد خشبة المسرح لفشله هو.

ولكن لا بد من القول إن تينيت قام بأشياء جيدة كثيرة في الوكالة- فلقد أدرك بان المعنويات فيها كانت منهارة خلال عقد التسعينيات بعد سلسلة من الانتكاسات (مثل القبض على أولدرتش أيمز، والشائعات بتورط الوكالة في انتشار الكوكايين المعزز في الولايات المتحدة، وإجراءات التقشف إبان عهد كلنتون). فلقد سعى تينيت إلى رفع المعنويات ونجح في زيادة ميزانية الوكالة، وفي استئناف عمل التجنيد. إلا أنه أفرط في جهوده لإرضاء البيت الأبيض. كان يشجع المحللين على تضخيم فحوى تقاريرهم عندما تكون الأدلة ضعيفة وركيكة، كما أحاط نفسه برجال مطيعين. أما أكبر مصدر للقلق فكانت الطريقة التي لاعبته بها الإدارة. كان يبحث عن الاستخبارات التي تعجب وترضي مراكز السلطة، فكان يطمح إلى الانتماء إلى مجموعة الكبار في البيت الأبيض. ولكن الذي ما كان يعرفه هو أن إدارة بوش، وبالأخص حاشية نائب الرئيس من المحافظين الجدد، لم تكنّ غير القليل من الاحترام لوكالة الاستخبارات وكان سيسرها جعل الوكالة كبش فداء لأية سلبيات محتملة في العراق.

خلال المراحل الأخيرة من سنوات عهد كلنتون كنا مطالبين بعدم الاكتفاء باطلاع صانعي السياسة على ماهية قضية ما، في ما كان يبدو توجها مناقضا للتوجه الخدمي في تلبية احتياجات الإدارة من الاستخبارات. ولكنها لم تكن متناقضة مع وجود وكالة استخبارات تبذل كل جهودها لإرضاء الإدارة ولطمأنة صانعي السياسة بأنها قادرة على

تلبية جميع احتياجاهم. وكان نمط تحليلات الوكالة قد تطور خلال الفترة الممتدة بين مغادرتي العراق واندلاع الحرب ليصبح: دع صانعي السياسة يقررون ما الذي يريدونه، ثم زودهم بما يطلبون، بأفضل ما لـديك مـن إمكانيات.

ويبدو أن قيادات الوكالة قد تفهمت - قبل نهايـة 2005 - تلـك الظاهرة المنتشرة في عدد كبير من الحكومات: حين تفشل الإدارة فشـلا جسيما، كما حصل في 11 أيلول وفي حرب العـراق، يترتـب علـى وكالات الاستخبارات أن تتحمل المسؤولية أمام الرأي العام.

في بداية 1999 كان يُطلب من المحللين بشكل متزايـد أن يطلعـوا صانعي السياسة على الخيارات المتاحة لهم - وهو وضع أعتبره قريبا جدا من خط إصدار وصفات سياسية. وكما قال لنا مديري السابق، فيـل، وهو أحد المقربين من تينيت: إنهم منشغلون بدرجة تجعلهم لا يعرفون ما يجري. فعلينا أن نساعدهم في التوصل إلى الحلول.

كان فيل يعتبر ذلك مهمّا إذ كان ينوي الإثبات لكبار المسؤولين في الطابق السابع بأنه كان يقدم حلولا ثمينة لصانعي السياسة حـول سـبل التعامل مع صدام. وكان شاغلو الطابق السابع يسعون إلى إظهار أهميتهم للإدارة الجديدة. عند التحاقي بالوكالة قبل ثلاث سنوات كانوا يؤكدون عليّ باستمرار بأننا لسنا في صدد تكوين السياسة، ولكن تم اطلاعنا الآن على ضرورة جعل الوكالة تنتمي إلى خلطة النخبة في وسط العاصمة، وأن بقاء الوكالة مقترن بذلك.

خضع نشاط الاستخبارات في شأن العراق إلى درجة عاليـة مـن التسييس إبان عهد بوش الذي لم يكن لديه تفهـم متطـور للشـؤون

الإسلامية أو لعمل الاستخبارات. ففي عام 2000 وأثناء انتظاره في مدينة كروفورد بولاية تكساس قرار المحكمة العليا بحسم انتخابات الرئاسة، كانت وكالة الاستخبارات مستمرة في تزويده بالتقارير كما كانت تفعل خلال مرحلة الحملة الانتخابية. وفي أحد أيام عملية إعادة فرز الأصوات قال بوش لمقدِّم التقرير إنه متشوق جدا إلى حسم نتيجة الانتخابات، فاعتبر الرجل أن هذا كان رد فعل طبيعيا إزاء قلق الانتظار. إلا أن بوش أضاف قائلا: أكاد لا أستطيع الانتظار لأتمكن من البدء في الاطلاع على ما لديكم من أسرار حقيقية.

كان يعتقد أن الوكالة تحجب معلومات الاستخبارات الحساسة إلى حين الإعلان عن الفائز. لم يكن بوش يعتقد بأنه كان يطلع على المعلومات فائقة السرية نفسها التي كان يتلقاها منافسه آل غور، ما جعل البعض في لانغلي يضحكون. ولكن سرعان ما تحولت سذاجة الرئيس إلى مسألة خطيرة وما كان أحد سيضحك عندئذٍ.

بعد تولي بوش الرئاسة بفترة قصيرة توجه أحد كبار المحللين إلى المكتب البيضوي لإطلاعه على الإسلام، ولدى سماعه بوجود نزاع شيعي - سني حول معتقداهما المتباينة في شأن من كان سيخلف الرسول محمد، فردّ عليه الرئيس قائلا: انتظر، كنت أظن أنك قلت إن جميعهم من المسلمين؟

تلك هي اللحظة التي كان علينا أن نستغلها في تعريف الرئيس إلى منطقة الشرق الأوسط، ولكن تينيت ومن حوله في الطابق السابع فضّلوا التعامل مع جهله من خلال تزويده بالتحاليل الهادفة إلى مساعدة الرئيس على تحديد أفضل السبل لمعالجة موضوع صدام حسين.

أعتقد أن مساعي بوش لجعل الوكالة تساند غاياته السياسية كانت نابعة من علاقته بوالده، إذ كان الابن يسير دوما في ظل والده، ثم حين دخل عالم السياسة أصبح في وسعه أن يشير إلى أنه قد تم انتخابه ليشغل منصبا لم يشغله والده، وهو منصب حاكم ولاية تكساس. وبعد توليه رئاسة البلاد لم يكتف بوش بمخالفة آراء وكالة الاستخبارات وبحجب ثقته عنها، كما فعل الكثيرون في إدارته، بل كان يريد من الوكالة أن تساند رغبته في شن الحرب على صدام حسين. هكذا كان بوش الابن عازما على التفوق على بوش الأب فيما بدا اختبارا للقوة.

اكتسبت قضية صدام وكيفية التعامل معه قوة دفع هائلة في أعقاب هجمات 11 أيلول، فلقد طلب بوش - بالاستناد إلى أقوال مستشار البيت الأبيض رتشارد كلارك - وفي اليوم التالي مباشرة طلب من كلارك أن يكتشف ما يربط صدام بتلك الاعتداءات، وكان معاون وزير الدفاع بول ولفوويتز يريد أن يعرف عدد المرات التي وجه فيها صدام تهديدات للولايات المتحدة في خطاباته وتصريحاته لوسائل الإعلام. وطُلب من وكالة الاستخبارات أن تراجع ملفاتها لإيجاد أية علاقات بالإرهاب، فكانت كل حركة لصدام ستخضع مجددا إلى التمحيص. كما كان واضحا في لانغلي أن البيت الأبيض سينظر بعين الرضا إلى أي تفسير يلبي رغبته في حل مشكلة العراق بصورة حاسمة ونهائية.

كان من بين أبرز النماذج لهذه الجهود يتمثل في كيفية التعامل مع المعلومات المقدمة من قبل المجلس الوطني العراقي بزعامة أحمد الجلبي، تلك الجماعة المعروفة بتقديم معلومات تخدم مصالحها الذاتية. لم تخضع المعلومات الواردة من المجلس الوطني العراقي إلى التقييم أو إلى التحقق من

مصداقيتها، بل كان يتم إرسالها إلى وزارة الدفاع حيث كانت تستخدم لتبرير شن الحرب. أما محللو وكالة الاستخبارات من أصحاب الشعور بالمسؤولية فلم يصدقوا استنتاجات المتشددين في أجهزة الاستخبارات أو من كانوا يوصفون بالخبراء في الإدارة الحكومية. القضية بلغت ذروة حدها حين أصدر مركز مكافحة الإرهاب ورقة عن صلات حكومة صدام بالإرهاب الدولي. كانت تلك الورقة أكثر وثيقة إثارة للجدل تصدر عن أحد مكاتب مديرية الاستخبارات خلال فترة الاستعداد للحرب، إذ كانت مليئة بالنواقص والافتقار إلى الدقة وتحليلات خرافية. أما الأسوأ فكانت قناعة مركز مكافحة الإرهاب بالأدلة. ثم مُنح مكتب الشأن العراقي مهلة ثلاث ساعات لمراجعة الورقة قبل أن يتم رفعها إلى البيت الأبيض. وما يزيده فخرا رفض المكتب تزكية ما ورد في التحليل، بل أعد مذكرة معارضة أشارت بالتفصيل إلى الأخطاء العديدة الواردة في الورقة. تم إرسال المذكرة إلى الطابق السابع حيث قامت وكيلة المدير باختزالها قبل أن يحملها تينيت إلى الجهات الحكومية، حيث تم استخدام ما ورد في الورقة من قبل المتشددين من أمثال دوغلاس فيرث في وزارة الدفاع لتبرير غزو العراق.

مع اتضاح نوايا البيت الأبيض في الإعداد للحرب ضد العراق اصطفت وكالة الاستخبارات خلف الرئيس وقامت بنقل محللين من مكاتب أخرى إلى مكتب الشأن العراقي. كان العديد منهم قد أمضوا سنين في منطقة حروب البلقان في عقد التسعينيات فكانوا يبحثون عن خيول جديدة يركبونها في السباق من أجل الترقية الوظيفية. كما قررت في الوقت ذاته خدمة العمليات السرية أن تحمي نفسها من خلال

مراجعتها لما لديها من تقارير غير منشورة كي تضع كل ما موجود مما يخص العراق والإرهاب داخل القنوات الرسمية بعد أن حُجبت هذه المعلومات لافتقارها إلى ما يجعلها مقنعة. وهكذا بدأ عصر التحليلات متواضعة الجودة، وكان العراق أول ضحية له، كما جعل وكالة الاستخبارات المركزية طرفا متواطئا في مأساة العراق.

كتب بوش في وقت لاحق: لم أكن راغبا في تكرار نمط الاتهامات والتحقيقات الذي مزق أجهزة الاستخبارات في عقد السبعينيات.

ولكنه فعل ذلك بالتحديد، فكاد أن يدمر الوكالة من خلال تحميلها مسؤولية كل الأخطاء التي ارتُكبت في العراق، ووصف تحليلاتها بأنها مجرد تخمينات، إذ لم يكن يسمع غير الذي كان يتطلع إلى سماعه.

13

أول مسوّدة للتاريخ

تأتي المسوّدة الأولى للتاريخ من الصحافيين الذين يغطون الأحداث الكبيرة، ثم تأتي المرحلة التالية من المشتركين في الحدث الذين يتسابقون إلى إصدار رواياتهم حول الحدث ما دامت أسماؤهم عالقة في الأذهان، وما دامت دور النشر تصدر شيكات مغرية.

مع ظهور هذه الروايات صدمني مقدار انحراف معظمها عن رصد الحقائق الواقعية. كان اهتمامي بالطبع مكرسا لمسألة البحث عن صدام واستجوابه، فتعرضت إلى صدمة حين وجدت حجم الاستخبارات التي وفرتها وكالة الاستخبارات المركزية - سواء الميدانية منها أو تلك الصادرة من مقر الوكالة - التي تم بكل بساطة تجاهلها. بقي كبار اللاعبين السياسيين متمسكين بشدة بتبريراتهم لخوض الحرب، حتى بعد أن أظهرت الحقائق أنهم قد أخطأوا، ليشبهوا بالتالي الناجين من غرق سفينة الممسكين بأطراف قوارب النجاة.

كان ذلك يعود جزئيا إلى الفجوة بين واشنطن والميدان التي باعدت بينهما مع استمرار الحرب. كانت القيادة في واشنطن ترتبك أحيانا مع انتشار شائعات كان العملاء الميدانيون يعرفون أنها نابعة من أوهام أحد

المختلين. كما دهشت لدى قراءتي كتاب بوش (نقاط القرار) عن مؤامرة صدام المزعومة لقتل ابنتيه، إذ كان لا يزال مقتنعا، برغم كل الأدلة المشيرة إلى عكس ذلك، بأن ابنتيه كانتا مستهدفتين من قبل صدام. غير أن بوش لم يشر أبدا إلى لقائه مع أمير البحرين في 2002 حين قال الرئيس إن صداما كان قد حاول اغتيال والده وهذا هو الدافع وراء مطاردته.

لدى انتهائي من قراءة مذكرات بوش كانت قناعتي قد زادت بأنه لم يتعلم أي شيء عن العراق أو عن صدام حسين. كان كتاب بوش بمثابة دفاع عن اعتقاده بأن صداما كان مصدر تهديد للولايات المتحدة، حتى بعد أن أوضح الغزو والاستجوابات العديدة بأن صداما لم يكن غير نمر من ورق في ما يخص أميركا. كما تطرق بوش في كتابه إلى اجتماع لمجلس الأمن القومي في 19 آذار 2003 سأله خلاله قادته العسكريون إن كان تحقيق النصر ممكنا. الدولة العظمى الوحيدة في العالم ضد قوة عسكرية من الدرجة الثالثة؟ كيف كان أي أحد سيجيب بالنفي؟ ولكن ما من أحد سأل بوش إن كان النصر يمكن تثمينه بالدم والمال وتقويض الاستقرار الإقليمي. أما كبار أعضاء القيادة فكانوا يعرفون أن بوش كان قد اتخذ قراره، ونادرا ما كان أي من المرؤوسين مستعدا لمواجهة الرئيس بقوله: سيدي، إنك ترتكب خطأ.

من بين أكثر جوانب مذكرات بوش المقلقة كان وصفه لصدام في عشية الحرب، فلقد كتب: كان هناك شخص واحد قادر على تفادي الحرب ولكنه لم يفعل. بعد أن خدع العالم، كان الشخص الوحيد الذي خدعه أكثر من غيره هو صدام نفسه.

لقد أظهر ذلك إخفاقا جوهريا في فهمه لشخص صدام وللدوافع التي جعلته يفعل ما فعل. كان صدام مستعدا للتفاوض، فلقد صرح صدام إبان عهدي كلنتون وبوش الابن بأنه جاهز لمحاورة الولايات المتحـــدة في أي وقت، ولقد كرر ذلك مرارا، قبل وبعد القبض عليه.

خلال الأشهر السابقة للغزو كان بعض أصـــدقائي يعـــودون مـــن اجتماعات مجلس الأمن القومي ليتحدثوا عن المنطق الخـــرافي الســـائد في البيت الأبيض. كان طاقم بوش يرفض التعامل مع أي أحد له صلة بصدام أو بحزب البعث. كان ذلك موقفا مخيفا، إذ كانوا مقبلين على إصدار أمر بغزو بلد وهم لا يعرفون شيئا عمن كانوا سيهاجمون. وحتى بعد القـــبض على صدام كان البيت الأبيض لا يبحث عن معلومات غير تلـــك الـــتي تدعم قراره بشن الحرب. (كنت خلال فترة الاستعداد للحرب أتســـاءل حول كم سيمر من وقت قبل أن تحول الإدارة أنظارها في اتجاه إيـــران – البلد الذي كنت أعمل على دراسته آنذاك، ثم تبين أن بعـــض مســـؤولي الإدارة تأملوا التحرك ضد إيران، ولكن العراق كان عنيدا بدرجة حالت دون أي تحرك ضد إيران).

في مذكراته المعنونة (المعروف والمجهول) اشترك رامسفيلد بشكل غير مباشر في تحميل صدام مسؤولية عدم تفادي الحـــرب. فلقـــد روى أن الإدارة كانت تأمل بأن جهدا دبلوماسيا نشـــطا – مـــدعوما بتهديـــد باستخدام القوة – ربما كان سيقنع صداما ومـــن حولـــه ممـــن كـــانوا سيفضلون المنفى في الخارج. فإن كان هناك عدد كافٍ من العقال حول صدام، ربما كانوا سيقتنعون بأن جورج بوش كان جادا في عزيمته وكان متمسكا بنزع سلاح صدام حسين.

كان رامسفيلد ينوه بأن أعوان صدام ربما كانوا قادرين على إقناعه بمغادرة البلاد لتفادي الحرب، أي بأن يلجأ في الواقع إلى الاستسلام. كان ذلك نموذجا آخر للخطأ العميق في قراءة الزعيم العراقي. كان صدام فخورا جدا بجذوره، ولم يسافر إلى الخارج غير مرتين فقط، وكان من شبه المؤكد أنه لن يغادر العراق أبدا، لأي سبب كان. لم يكن العراق مجرد بلده، بل كان بمثابة كيانه ومجمل هويته. كان هذا المفهوم قد تم توضيحه مرارا لصناعي السياسة في واشنطن. ولكن هل كانوا يصغون؟ هل كان رامسفيلد يصغي؟ كل ما يمكنني استنتاجه هو أن صانعي السياسة الأميركية كانوا أسرى ما كانوا قد أقنعوا أنفسهم به قبل اندلاع الحرب، مهما كانت تشير إليه الاستخبارات المناقضة.

حين كان الرئيس بوش يروج لكتابه، تمت استضافته في برنامج أوبرا التلفزيوني حيث ادّعى أنه لم يتطلع إلى خوض الحرب. وفي تعليق مشابه كتب رامسفيلد أن بوش لم يكن عازما على (إصلاح) العراق لدى توليه الرئاسة. وقام رامسفيلد بتوبيخ إدارة كلنتون على تهدئتها لصدام، إلا أنه أضاف أن موضوع العراق لم يُثر في لقائه مع بوش بمدينة أوستن قبل مراسيم تنصيبه. غير أنه كان واضحا من خلال لقاءاته بمحللي الوكالة خلال مرحلة الانتقال من إدارة إلى الإدارة التالية أن موضوع العراق كان يحتل نسبة كبيرة من أفكاره.

كما قال رامسفيلد إنه كتب مذكرة إلى الرئيس عرض فيها ثلاثة خيارات محتملة للتعامل مع صدام: (1) الإقرار بأن العقوبات لم تنجح. (2) تبني سياسة أكثر حزما بالتعاون مع جيران العراق العرب. (3) السعي إلى مبادرة للتواصل مع صدام من أجل فتح فصل جديد من العلاقات

الأميركية - العراقية. لست في وضع يتيح لي الحكم على أهم مشاعر رامسفيلد، ولكن يمكنني القول إني استنتجت من المقربين منه أن رامسفيلد لم يمكن صقرا بردود فعل آلية كما يصوره الكثيرون، ولم يكن هو القائل إنه يترتب علينا إطاحة صدام وشن الحرب على العراق. إلا أن علاقاته الضعيفة مع القوات المسلحة وخطته الحربية الناقصة ساهمت كثيرا في الفشل في العراق. أما في أعقاب الغزو فلقد نقض ما ورد في مذكرته السابقة، مدعيا بأن صدام رحب باعتداءات 11 أيلول وأن لديه روابط مع الإرهابيين. ولقد أخطأ في كلا الادعاءين.

كما كتب رامسفيلد أن البيت الأبيض كان يعتقد أن صدام كان سيدفع 60 مليون دولار إلى عملائه ثمنا لاغتيال ابنتيه بالإضافة إلى ابنتي بوش. كان هذا مضحكا، فصدام كان مختبئا في مكان لا تكاد تصله موجات الراديو، وكان رامسفيلد على علم مؤكد بذلك. وما زاد الأمر سوءا هو نقل رامسفيلد عن تينيت قوله: لقد قضيتم على ولدي صدام، فمن المرجح أنهم سيستهدفون ابنتيك. كان تينيت، سعيا منه إلى إرضاء أسياده، قد شوه تماما ما ورده من عملائه الميدانين. ووصف الكاتب رون سوسكند ذلك بأنه (حل الواحد في المائة) مستندا إلى ملاحظة نسبها إلى تشيني كان مفادها: لو تجاوزت صحة تقارير الاستخبارات نسبة واحد في المائة، فعلى الإدارة أن تعتبرها صائبة ومثبتة.

ثم عاد رامسفيلد إلى إثارة مسألة شبيه صدام. من بين كل الأساطير المتعلقة بحكم صدام، لم تكن هناك أسطورة عالقة في الأذهان كأسطورة شبيه صدام. فبرغم عدد المرات التي فندها محللو الاستخبارات، فإنهم لم ينجحوا في إقناع بوش ورامسفيلد وصانعي السياسة بأنها لا تتجاوز كونها

أسطورة، بل وكان طاقم بوش يرفض الاستماع إلى أي شيء يشكك بصحتها. والأسوأ من ذلك، ومع استمرار الحرب وتحول العراق إلى لعبة لتبادل اللوم حول من كان محقا ومن كان مخطئا، كانت قناعة الإدارة بوجود من يشبه صدام تتسع وتتعمق. فكانت الإدارة مقتنعة تماما بأنها محقة بذلك، مهما كانت تظهره تقارير الاستخبارات.

مضى رامسفيلد إلى حد جعله يصف بول بريمر، مدير سلطة التحالف المؤقتة، بأنه وغد بيروقراطي يعبث ببلاد ما بين النهرين - رغم قيامه هو وتشيني بإصدار أوامرهما اليومية إلى بريمر، فلقد أمراه بالاستمرار في حملة اجتثاث البعث وفي تفكيك الجيش العراقي. ولكن مذكرات رامسفيلد تحمل بريمر مسؤولية التأخير في نقل السيادة إلى العراقيين.

لم يكن هذا النمط من التأليف التاريخي حكرا على الجانب الأميركي من المحيط الأطلسي، فكانت مذكرات توني بلير تتسم بالدفاع العنيد على غرار مذكرات بوش. كنت أتأمل من بلير - صاحب الخلفية الأوسع في الشؤون الدولية - أن يظهر الشجاعة من خلال الاعتراف بأن بريطانيا كانت قد ساهمت في الغزو بالاستناد إلى فرضيات ثبت لاحقا أنها كانت خاطئة. وبدلا من ذلك أطال بلير الحديث عن التهديد المتنامي المتمثل في صدام. ثم استند إلى أعمال هيئة دولفر في شأن أسلحة الدمار الشامل، وقال: صدام كان محتفظا كليا بقناعته بأهمية هذه الأسلحة الاستراتيجية لنظامه ولبقائه، كما كان يعتقد بأن استخدام الأسلحة الكيماوية كان عنصرا حيويا في ردع الجنود الإيرانيين المدفوعين بحماستهم الدينية والذين كانوا يلقون أنفسهم بموجات بشرية ضد القوات العراقية في الحرب العراقية - الإيرانية. وكان يعتقد بأن استخدامها هو الشيء الوحيد الذي

كان سيعوض عن التفوق العددي للقوات الإيرانية. كما كان يعتقد أن امتلاك القدرة النووية سيخدم غايته الأساسية في جعله القوة المهيمنة في العالم العربي.

لم تكشف استجوابات صدام، أو أيّ من أعوانه السياسيين والعسكريين، أو كبار علمائه، عن أي دليل يؤيد تأكيد بلير بأن العراق كان يهدد جيرانه، ناهيك عن تهديد الغرب، بأسلحة كيماوية أو نووية. إن كانت الأدلة تشير إلى أي شيء فإنها كانت تشير إلى عكس ذلك تماما. صحيح أن الأسلحة الكيماوية قد لعبت دورا حاسما ضد إيران، ولكن صداما كان قد تخلص من أسلحة الدمار الشامل قبل غزو عام 2003. أما عن الأسلحة النووية فكان صدام ربما يحلم بامتلاكها ولكنه لم يقر بذلك، ومن المؤكد أنه حتى لم يقترب من تحقيق امتلاكها.

كانت إحدى المفارقات الكبيرة في حرب العراق هي أن الدكتاتور الوحشي صدام حسين والمقاتل من أجل الحرية جورج بوش كانا يتشابهان في العديد من الجوانب. كان كل منهما يبدي مظهرا مترفعا ومتغطرسا، وكان جاهلا نسبيا في شؤون العالم الخارجي ولم يسافر إلى الخارج إلا فيما ندر، وكان ميالا إلى عدم رؤية الأشياء بغير اللونين الأسود والأبيض، وكان يشعر بالحرج أمام تعدد الخيارات، وكان يحيط نفسه بمستشارين منصاعين، وكان يعتز بإجماع الآراء ما دام مؤيدا وجهات نظره، ولم يثق بآراء الخبراء. وهنالك المزيد من التشابه بينهما:

- كان كل منهما يفتقر إلى الخبرة العسكرية الحقيقية ولديه توقعات غير واقعية لما يمكن للقوة أن تحققه.

- كان كل منهما يتخذ قرارات عسكرية مستندة إلى غايات سياسية، وكان لا يتفهم أن الاستخدام العقلاني للقوة أو حتى التهديد باستخدامها، قد يفوق في فعاليته اللجوء إلى القوة.
- تسلق كل منهما سلم السلطة من خلال تمسكه التام بفكره السياسي، إلا أنه – مع حلول نهاية حياته العملية – كان مستعدا للتخلي عن مواقفه الأيديولوجية لصالح توجهات أكثر واقعية، وكان قد طور مهارات سياسية وقدرات على التأثير الجماعي.
- كان كلاهما يعتبر نفسه رجلا عظيما وكان عازما على جعل التاريخ يبرزه بهذه الصورة.
- اعترف لي كل منهما بأنه يثق بغريزته أكثر مما يثق بعقله.
- كان كل منهما منعزلا عن الواقع خلال سنوات توليه السلطة. ففي الوقت الذي كانت بغداد توشك على السقوط كان صدام منشغلا في موضوع نشر الرواية التي كان قد ألفها. أما بوش فقال إنه كان يستمتع بمكوثه داخل الفقاعة، أي داخل شرنقة المكتب البيضوي التي كانت تعزله عن العالم الخارجي.
- كان كلاهما يهوى المجازفة، تلك النزعة التي ساهمت في بلوغه قمة السلطة قبل أن تتحول إلى نقطة ضعفه بعد بلوغه تلك القمة. فلقد قامر كل منهما بزج بلده في الحرب؛ قام صدام بغزو إيران والكويت وقام بوش بغزو أفغانستان والعراق.

يمكن للمرء أن يحاجج بأن بوش كان محقا في مهاجمة أفغانستان بعد اعتداءات 11 أيلول، ولكن قراره بغزو العراق كان مرتكزا على فرضيات خاطئة لا تخدم المصالح الأميركية. وسعى كل من بوش وتشيني ورامسفيلد

في مذكراهم إلى تبرير الحرب، ولكن ما من محلل لشؤون الشرق الأوسط يصدق أن صدام حسين كان يشكل تهديدا للولايات المتحدة.

مع اقتراب نهاية ولايته الرئاسية قام بوش بزيارة مقر وكالة الاستخبارات المركزية ليشكرنا على كل ما نبذله من جهود، متناسيا أنه كان قد نبذنا في بعض الأحيان. وجه لنا كلمة بأسلوبه المتناثر المألوف، مستخدما كل ما لديه من العبارات الرنانة. إلا أنه كان يخطئ في التركيز على بعضها منتقصا بذلك من تأثير خطابه. أما مدير الوكالة مايك هايدن فبدت عليه علامات البهجة والارتياح. ثم انتقل الرئيس في حديثه إلى التأكيد بأن المستقبل سيتميز بالحرية، وقال: لا تدعوا أحدا يقول أي شيء آخر، فالرب موجود وهو يؤمن بالحرية! هنالك من يقول إنه من المقبول أن يعيش بعض الناس تحت وطأة دكتاتور. هذا من سوء حظهم.

وكان غريبا أن يوجه بوش نظره في اتجاهي حين قال: لا تصغِ إلى هؤلاء فهم من المترفعين. استغربت مرة أخرى لأن هذه الكلمات كان يتفوه بها رجل متخرج من أرقى جامعات البلاد.

لم يعرف أحد ما هو المتوقع من إدارة أوباما الجديدة في 2009. كان أكثر زملائي في العمل مسرورين لكونه قد فاز في الانتخابات، كما كنت أنا مسرورا وكنت أتوقع أنه سيتفهم مختلف جوانب السياسة الخارجية. كان مديري هو الذي يقدم لأوباما تقارير وتحليلات الاستخبارات خلال فترة الحملة الانتخابية ووصف الرئيس المنتخب بأنه مثابر ويحسن التحليل وكثير القراءة ووصفه بأنه كان يمتص المعلومات كما لو أنه إسفنجة. كانت هذه أخبار سارة، خصوصا في ضوء ما كنا نسمعه عن ماكين وبالن. وردنا أن ماكين كان يلجأ إلى الصراخ وكان قاسيا في تعامله مع

موظفيه. ورغم تفوقه على أوباما في خبرته ومهارته في مجال السياسة الخارجية، إلا أنه لم يتسم بالتريث والعقلانية، على غرار بوش الذي كنا قد اكتفينا من التعامل معه.

كنا نتوقع أن يدرج العراق ضمن قائمة أولوياته اليومية لشؤون السياسة الخارجية. قبل أن يترك بوش البيت الأبيض طلب من مكتبي أن نعد للرئيس الجديد بضع دراسات متعلقة بالقضايا الرئيسية في العراق. فقمنا بذلك وكنا جاهزين لمساعدة الطاقم الجديد في استيعاب الموقف وخلفياته. ثم انتظرنا وانتظرنا ثم انتظرنا، وسرعان ما اتضح أن البيت الأبيض في عهد أوباما لم يكن مهتما بالكثير من الخوض في شأن العراق. بعد أن كان محللونا على موعد أسبوعي في المكتب البيضوي، وجدنا أنفسنا بلا وسيلة للوصول إلى الرئيس إلا من خلال المذكرات التي ربما كانت ستدرج ضمن التقرير اليومي لإطلاع الرئيس على آخر الاستخبارات. يبدو أن أوباما لم يكن يعتبر العراق مشكلة تخصه، ولم يكن على استعداد لبذل الجهود والوقت ورأس ماله السياسي في إدامة سياسة كان قد ورثها من إدارة بوش. كان ذلك مؤسفا جدا، إذ كنا للتو قد بدأنا في تحقيق تقدم في الحد من مستوى العنف في العراق.

تركت مكتب العراق في 2009 ولكني حافظت على تواصلي بأصدقائي الذين كانوا يتابعون عملهم هناك، كما كنت أتتبع آخر التطورات في المنطقة. وخلال السنتين الأوليين من عهد أوباما لم يطلب البيت الأبيض غير جلسة (غطس عميق) واحدة حول العراق. كانت الإدارة ببساطة إما غير مهتمة وإما كانت تتظاهر بذلك. ثم بات صعبا تضمين تقرير الاستخبارات اليومي ورقة تخص العراق. بعد ذلك تم

حذف مخصصات محللي العراق من ميزانية الوكالة، وتم نقل أفواج المحللين الذين التحقوا بمكتب الشأن العراقي بين عامي 2004 و2006، إلى العمل على شؤون أفغانستان وهي المكان الذي كانت إدارة أوباما مهتمة به.

الانتقال إلى إدارة جديدة يمثل مرحلة حرجة لوكالة الاستخبارات المركزية التي تقوم بكل ما في وسعها من أجل إثبات قيمتها لدى الرئيس الجديد، وتجس نبض الإدارة لتتعرف إلى أولوياتها وتعرض مساعدتها في أي شيء ممكن. كثيرا ما تكون الوكالة مصدر مساعدة كبير جدا، إلا أنها تجد نفسها أحيانا أمام زبون مشكِّك جدا، كما كانت الحال مع أوباما. فكان الرئيس الجديد لا يتفهم ما يجعل الحكومة تنفق كل تلك الأموال على الاستخبارات، وتحصل على القليل في المقابل.

تضاؤل أهمية العراق في البيت الأبيض امتد تأثيره إلى بغداد، ففي 2009 تخطت الإدارة الجنرال أنتوني زيني - القائد السابق لقيادة الجيش الوسطى - حين اختارت كريستوفر هيل سفيرها في العراق. كان هيل قد عمل كمبعوث خاص إلى كوريا الشمالية إبان عهد بوش بعد أن عمل في شأن منطقة البلقان إبان عهد كلنتون، علما بأن نائب الرئيس بايدن وطاقم أوباما خلال فترة انتقال السلطة قد وعدوا زيني بذلك المنصب. أما السفير راين كروكر الذي خلفه هيل في السفارة فكان يأمل أن يتم إسناد المنصب إما لوليام بورنز أو بيث جونز، الدبلوماسيْين المخضرميْن المناسبيْن تماما لشغل المنصب. غير أن وزيرة الخارجية هيلاري كلنتون اعترضت على تعيين جنرالين سابقين للعمل في دولتين حساستين مثل العراق وأفغانستان، (كان السفير في كابول هو الجنرال السابق كارل آيكنبيري). ربما كانت كلنتون تخشى عدم تمكنها من السيطرة على زيني الذي كانت

خبرته في شؤون المنطقة تفوق خبرتها. كما كان هيل محميا من قبل رتشارد هولبروك المقرب جدا من الوزيرة كلنتون والذي كان قد عمل مستشارها لشؤون أفغانستان وباكستان بوزارة الخارجية. غير أن اختيار هيل كان بمثابة كارثة، فكان لا يعرف شيئا عن المنطقة ولم يكن يعتبر هذه المعرفة ضرورية له. قدم له ذات مرة أحد المحللين ورقة كنت قد أعددتها عن مقتدى الصدر وعائلته فكان رده: هل لا بد لي من معرفة ذلك؟

لم تكن لدى هيل أي معرفة باللغة العربية ولا بتاريخ العراق ولا باللاعبين في الجانب العراقي رغم أهمية ذلك في تمكينه من أداء عمله بشكل فعال، وبدا متطلعا إلى فرصة تتيح له مغادرة الشرق الأوسط. هكذا بدأ تدهور سياسة الولايات المتحدة في العراق، بعد أن تم دفع ثمنها آلاف الأرواح وتريليونات من الدولارات.

وكان الأهم من ذلك تحرك حكومة المالكي بخطى واضحة في اتجاه الطائفية. من المفيد أن نتذكر أن المالكي تولى رئاسة الوزارة خلال أسوأ فترات القتال بين بغداد ومسلحي التمرد بقيادة تنظيم القاعدة في العراق الذي كان قد أسسه الزرقاوي قبل أن يتطور ويتحول إلى (الدولة الإسلامية في العراق والشام – أي داعش). كان اختيار المالكي يمثل حلا بديلا إثر فقدان الولايات المتحدة لثقتها بإبراهيم الجعفري الذي كان قد انتخب رئيسا للوزراء في 2005 قبل أن يُجبر على التنحي في 2006.

في أعقاب الضخ الإضافي للقوات الأميركية في 2007 ومع صحوات العشائر السنية التي شهدت انضمام العشائر السنية في محافظة الأنبار إلى القوات الأميركية لمحاربة تنظيم القاعدة في العراق، توقف المالكي عن

حديثه حول تخليه عن السلطة، بل بالعكس تماما. كانت الخطوة الكبيرة التالية للمالكي قد تمثلت في (حملة هجوم الفرسان) في 2008 حين جابه الميليشيات الشيعية في بغداد وجنوب العراق. في أثناء ذلك كان بوش يظن أن المالكي كان قد وجه ضربة قاضية إلى مقتدى الصدر، ولكنه لم ينجح في ذلك. ولو لم تكن القوات الأميركية في البصرة لكان المالكي وجد نفسه أسيرا لدى الصدريين. (وكان المالكي قد ذهب إلى البصرة للإشراف على العملية، إلا أن الميليشيات كادت أن تحاصر مقر قيادته).

كانت نقطة التحول في العلاقة الأميركية - العراقية في أعقاب الضخ الإضافي للقوات الأميركية قد حدثت خلال انتخابات 2011. كان من المتوقع أن يفوز فيها المالكي وتحالفه المسمى (دولة القانون)، ولكن فرز الأصوات أظهر تقدم منافسه الشيعي أياد علاوي عليه. كان علاوي من المفضلين لدى الحكومة الأميركية - ولدى وكالة الاستخبارات بشكل خاص - وهو من الشيعة العلمانيين ولديه روابط جيدة بالطائفة السنية. وفي أعقاب تفوقه بفارق قليل على المالكي في الاقتراع، كان علاوي تواقا إلى تشكيل الحكومة الجديدة.

عند هذه النقطة ارتكبت حكومة أوباما خطأ استراتيجيا كان له صدى قوي وواسع النطاق في العراق. كلما طال بقاء المالكي في منصبه زاد استبداده، ما جعل الأميركين والعراقيين على حد سواء يعلقون على المالكي الجديد الذي بات سلوكه يشبه سلوك صدام. كان المالكي في حملته الانتخابية يتواصل مع العشائر الشيعية لنيل تأييدها وأشرك الكبيرة منها في خيرات الحكومة سعيا منه إلى تقويض شعبية علاوي. كما حصل المالكي على تأييد المرجعية الدينية الشيعية في النجف. وكانت هذه

المساعي لكسب التأييد الديني والعشائري من أجل بناء قاعدة سلطة قوية تشبه - سواء بقصد مسبق أم لا - الطريقة التي استخدمها صدام في تسيير العراق. كما كان المالكي قد دأب على احتكار المزيد من القوة والسلطة لمنصب رئاسة الوزراء، فعزز قبضته من خلال تأسيس مكتب القائد العام للالتفاف على سلم قيادة الجيش، ومن خلال تشكيل مراكز قيادات للمحافظات تتيح له السيطرة على نخبة القوات الأمنية العراقية.

أصر المالكي بأن انتخابات 2011 قد تم التلاعب بها. كانت تلك هي اللحظة المناسبة لتدخل إدارة أوباما ولإطلاع المالكي بأن الوقت قد حان لرحيله، إذ كان ذلك سيؤكد شرعية الانتخابات ويحقق للعراقيين نموذجا جديدا للانتقال السلمي للسلطة. غير أن إدارة أوباما لجأت إلى السبيل الأسهل، من خلال وصفها للمالكي بأنه (رجل أميركا) وبأن توليه ولاية ثانية سيخدم مصالح الولايات المتحدة. ومن سوء الحظ كان الملف العراقي لدى إدارة أوباما متروكا لنائب الرئيس جو بايدن الذي كان إلمامه بالسياسة الخارجية يبدو ركيكا في أفضل صوره. وكانت أهم مشاركة له في مناقشات القضية العراقية خلال السنوات التي أمضاها كعضو في مجلس الشيوخ تمثلت في اقتراحه بأن مصلحة العراق تكمن في تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء - كردستان وسنيستان وشيعستان.

نُقل عن بايدن قوله لغيره من أعضاء الإدارة إنه سيراهن بمنصبه كنائب للرئيس على استعداد المالكي لتمديد اتفاقية وضع القوات بين الولايات المتحدة والعراق، والتي تمنح القوات الأميركية حق البقاء في العراق ففي غياب هذه الاتفاقية كان سيترتب على الولايات المتحدة سحب جميع قواها من البلاد. لم يكن هناك سياسي عراقي واحد على

استعداد لتأكيد رغبته في تمديد الاتفاقية، ولكن غالبية السياسيين كانوا يخشون تداعيات انسحاب القوات الأميركية. انتهى أمد الاتفاقية في نهاية الأمر، ليستعيد العراق بذلك سيادته الكاملة. وكانت أسوأ تداعيات زوال الاتفاقية هي تجدد نزعة حكومة المالكي الطائفية، فلقد باشر باضطهاد منافسيه السنة، بما في ذلك اقتحام مكتب ومسكن وزير المالية رافع العيساوي، وصدور حكم بإعدام نائب رئيس الجمهورية طارق الهاشمي، ما أدى إلى تجدد الاحتجاجات في محافظة الأنبار في أواخر عام 2013. أما المتمردون السنة الذين كانوا يعملون ضمن جماعات تحمل أسماء مختلفة، فسرعان ما تجمعوا تحت راية تنظيم داعش وارتكبوا فظائع سيفتخر بها الزرقاوي.

14

رحيل مثقل بالأسف

بحلول عام 2009 كنت قد زرت العراق ثماني مرات، وتراوحت فترات إقامتي فيه بين بضعة أشهر وبضعة أسابيع. كنت قد عملت هناك في تحليل التوترات الطائفية وعلاقات العراق مع الدول المجاورة، وأمضيت فترتين كنت أطلع السفير خلالهما على المستجدات، كما ساهمت في عمليات البحث عن الزرقاوي. خلال زيارتي الأخيرة تبادلت المعلومات مع عملاء استخبارات آخرين وكنت أحد المحللين المخضرمين المشاركين في الزيارة، ومن بينهم عدد من ممثلي الطابق السابع. لقد أدهشني مدى التغيير الذي كان قد طرأ على مجمعنا الذي أصبح يشبه بلدة أشباح كما أدهشني الصمت والهدوء، فلم أسمع خلال الأسبوع أي دوي انفجار.

كانت آخر زياراتي الطويلة إلى العراق قد تمت في 2006 وكنت خلالها ضمن مجموعة مخصصة للقضايا الاستراتيجية مكلفة بالبحث الميداني للإجابة عن سؤال محدد أثاره أحد صانعي السياسة (منعتني الوكالة من ذكر ما كان يتضمنه السؤال). كان أعضاء طاقمي في هذا العمل هم: بين تي، وأريك بي، وأليزا أس. كانوا زملاء ممتازين وتمكنا من إنجاز عمل بالغ الجودة للوكالة، وكان عملنا ممتعا لأننا كنا نعمل بعيدا عن قيود

العمل في مقر الوكالة. وكان وجودك في العراق كمحلل يتيح لك تحكما ذاتيا في نفسك، فكنت ترتدي ما يعجبك من الملابس وكنت تتمشى إلى مكان عملك القريب جدا من مقطورة سكنك. كما كنت تتسلم مخصصات إضافية لكونك تعمل في منطقة حرب، ولم تكن مقيدا بطلبات مدرائك المزاجية، ولم تكن غارقا تحت وطأة المطالبات بتقديم تقارير الاستخبارات الآنية كل أسبوع. كان العمل الميداني يتيح لك الاطلاعَ على بعض الحقائق على الأرض حول ما كان يجري في العراق. كان نشاط بين وأريك يضيف عمقا لما كنا نؤديه من عمل، وكانت أليزا تتولى تنسيق جداول عملنا بشكل يمكننا من التنقل بأقل ما يمكن من الإرباك، وهو عمل ليس سهلا. كان موسم الصيف هادئا نسبيا وكان من المقرر لنا كلنا أن نغادر في أوائل أيلول. إلا أنه تبين أنه كان عليّ أن أقضي فترة إضافية أخرى قبل رحيلي عن هذا البلد المبتلى، ففي آب اندلعت الحرب بين إسرائيل وحزب الله، وفور مباشرة إسرائيل بقصف بيروت بدأ الصدريون بقصف المنطقة الخضراء في بغداد فيما اعتبر هجوما تضامنيا. كنا نعرف منذ البداية أن الصدر كان معجبا جدا بحسن نصر الله، فوجدنا أنفسنا نسارع يوميا بحثا عن الاحتماء من قذائف الهاون والصواريخ، فكنت أتطلع بشوق إلى المغادرة.

لدى عودتي إلى الولايات المتحدة في 2006 كان قد تجمع لديّ حق التمتع بإجازة مطولة لكوني أمضيت فترات طويلة في منطقة حرب، فتوجهت إلى كاليفورنيا لزيارة عائلتي وبقيت معهم ثلاثة أسابيع تقريبا. في اليوم المحدد لعودتي إلى واشنطن انتابني شعور بالرعب من التقيد بكتبي في لانغلي، فحاولت وأنا في طريقي إلى المطار أن أبحث عن عذر

يحول دون صعودي إلى الطائرة، وكانت أعماقي تنبهني إلى أن الوقت قد حان لترك عملي في الوكالة. ولكني لو فعلت ذلك على الفور لكنت قد أضعت فرصة إطلاع الرئيس ونائب الرئيس على ما كنت قد شاهدته وما كنت أعرفه.

في لانغلي بدأت أفكر بمهمة تحليلية تبعدني عن العراق الذي كنت قد شبعت منه. أما القشة التي قصمت ظهر البعير فكانت على شكل تقرير مطوّل عن الصدر وأتباعه الذين وصفتهم بأنهم سيمثلون قوة لا بد من التعامل معها خلال السنوات الخمس المقبلة. أما الجنرال روبرت أوديرنو، قائد القوات في بغداد، فلقد عبر عن انزعاجه لدى قراءته التقرير. بدا لي أن أهم ما أزعجه في تحليلي هو أنه جاء متناقضا مع وجهة نظره التي كان يرسلها إلى الرئيس ونائب الرئيس حول تحقيق التقدم في العراق. ثم ترتب عليّ أن أخفف من مضمون التحليل لإرضاء صانعي السياسة. وفجأة طُلب مني أن أقدم ورقة تتناول ما سيؤول إليه الصدر بعد ستة أشهر وليس بعد خمس سنوات. جمعوني مع محلل جديد فتعاونا على مراجعة وتعديل تحليلي الأصلي عن الصدر. التحليل الجديد لم يتضمن غير إعادة ترتيب محتويات الورقة التي اعترض عليها أوديرنو ولكن صياغتها استهدفت تفادي انتقاداته.

المحللون الذين يمضون فترات طويلة في العمل على ملف معين كثيرا ما يُصابون بما يشبه الصدمة لدى انتقالهم إلى العمل في مكتب جديد. يكون المحلل مدركا أنه بحاجة إلى تحدٍّ جديد في عمله ولكنه سيكون قلقا حيال ترك ما كان قد اعتاد عليه. شاهدت ذات يوم إعلانا داخليا يعلن البحث عن محلل قيادات في ما يتعلق بكوريا الشمالية، فظننت أن ذلك

ربما كان ما سيلبـــي حاجتي إلى إعادة تنشيط ذهني، وأن متابعة عالم كيم جونغ إيل الغريب سيكون ممتعا. أصدقائي اعتبروني مجنونا ولكني حضرت المقابلة وسرعان ما قبلت الانضمام إلى طاقم كوريا الشمالية. كانت تلك خطوة غريبة في مسار عملي الوظيفي لكونها أبعدتني عن المنطقة التي كنت أعرفها. غير أن كوريا الشمالية كانت تحتل مركزا متقدما ضمن قائمـــة أولويات البيت الأبيض، وكانت ستحقق لي بداية جديدة في العمل على موضوع آني ومهم.

باشرت العمل في شأن كوريا الشمالية وفي شأن كيم ولكني فشلت في توليد الحماس للموضوع. كانت الوكالة مقتنعة كليا بتقييمها لكـــيم وكانت تخوض معارك يومية مع وزارة الخارجية حـــول وجهـــة النظـــر الصحيحة تجاه نظامه. وكان الأسوأ من ذلك هو أن نظام كيم بات يشبه نظام صدام في العديد من جوانبه، فقلت لنفســـي: لقـــد ســـبق لي وأن حضرت هذا الفيلم، وأعرف أنه لن ينتهي على خير.

كما كنت أدرك أني بحاجة إلى سنوات عديدة قبل أن أصبح ملمـــا بالشأن الكوري الشمالي، كما أدركت أنني لم أكن أعرف شيئا عن آسيا وأن وضعي كان يشبه انعكاسا لمفارقة انتقال كريستوفر هيل من كوريـــا إلى العراق. ولكنه كان سفيرا يمكنه الاستعانة بخبراء يوضحون له الصورة. أما أنا فكنت محللا مطالبا بأن يكون خبيرا لنفسه. فتوصلت أخيرا إلى أن خياري الوحيد كان أن أترك وكالة الاستخبارات بعد قضائي فيها ثلاثـــة عشر عاما.

كانت مغادرتي تجربة تحرر. (كنت قد انتقلت إلى جهـــة شـــقيقة – مركز مكافحة الإرهاب القومي- بمدينة ماكلين في ولاية فيرجينيـــا). في

الوقت الذي كان العديد من العاملين لدى وكالة الاستخبارات قد أدمنوا على الحياة فيها ولا يمكنهم تصور العمل بعيدا عنها. فكانوا إما لا يريدون حرمانهم من الاطلاع على المعلومات السرية، وإما كانوا يفضلون تأجيل مغادرتهم حتى تتجمع لديهم سنوات خدمة تؤهلهم للتقاعد، أو كانوا ببساطة يحبون العمل الحكومي. ومهما كانت الأسباب فضّل الكثيرون البقاء حتى بعد أن أصبح عملهم مملا.

كان أفضل جوانب عملي لدى الوكالة يتمثل في فرصة القيام بعمل لا يتوفر في أي مكان آخر، فحين غاب ذلك فقدت كل شيء في نظري. فلقد تحولت الوكالة إلى مؤسسة مصابة بتصلّب الشرايين برغم قيامها بتعيين كل تلك الدماء الشابة خلال السنين الأخيرة. وكانت الوكالة لا تزال تعتقد أنها قادرة على تحويل أي شخص إلى محلل من الطراز الأول خلال بضعة أشهر، ولكن خبرتي تؤكد أن هذا التوجه ليس صائبا. وربما كان الأمر الأسوأ أنني كنت متأخرا جدا في مجال التكنولوجيا المتعلقة ببعض جوانب البحث التحليلي. كانت هذه الحالة تعيق المحللين من أداء عملهم بأفضل ما يمكن. بعد مغادرتي قامت الوكالة بتغيير اسم مديرية الاستخبارات إلى مديرية التحليل، فالوكالة تجيد تغيير الأسماء ولكنها لا تجيد تغيير طباعها أو أساليبها.

كنت قد لعبت دورا صغيرا جدا في كارثة جسيمة جدا ألمت بسياسة أميركا الخارجية، وهي حرب العراق. انهينا أنا وزملائي في الوكالة عملنا بأسف عميق لما أصاب صورة أميركا حول العالم، ولكل الشباب والشابات من أفراد قواتنا المسلحة الذين إما قتلوا وإما عادوا إلى ديارهم مصابين بجراح جسدية أو نفسية، ولما فعلته الولايات المتحدة بالشعب

العراقي. في اليوم الأول من وجودي في العراق مر السائق الذي نقلني من المطار إلى الفيلا القريبة من القصر الجمهوري بالقرب من مجموعة من الأطفال الذين كانوا يلعبون على قارعة الطريق، فقال لي: هؤلاء هم سبب وجودنا هنا. كان ذلك ما خطر لي أيضا، وإن كنت أتأمل إن كان محقا بما قال.

منذ ذلك الحين تبين لي أن آماله لم تتحقق، فكان وجودنا يستند إلى مخيلة المحافظين الجدد المتعلقة ببسط النفوذ الأميركي في المنطقة وإلى قناعة الرئيس بوش بأن صدام أراد قتل بوش الأب. هل كانت إزاحة صدام من السلطة أمرا مجديا؟ لا أعتقد ذلك. كان صدام في 2003 منهمكا في تأليف الروايات، ولم يعد يدير الحكومة. هل كان ولداه سيخلفانه؟ ربما، ولكنهما ما كانا على الأرجح سيتمكنان من البقاء طويلا، فمن الأرجح أيضا أن أحد الضباط السنة من المحور العسكري - الأمني سينقض على السلطة بانقلاب. ما كان مثل ذلك المشهد سيبدو جميلا ولكنه كان على الأقل سيكون حلا عراقيا لمسألة من يحكم العراق. فكانت الولايات المتحدة ستتمكن عندئذٍ من تجديد التعامل مع النظام الجديد.

لا أرى وأنا أكتب هذه السطور غير العواقب السلبية التي ألمّت بالولايات المتحدة بسبب إطاحة صدام. أولا، أصبح الشرق الأوسط يزداد اعتماده على أميركا في إصلاح مصائب المنطقة ولتولي دور الوسيط في النزاعات المحلية، خاصة في العراق. كلما سعت الولايات المتحدة إلى دفع العراقيين نحو تسوية خلافاتهم وإلى إعادة بناء بلادهم، كانت القوى السياسية العراقية تنشطر إلى مجاميع طائفية تتنافس فيما بينها لكسب الدعم الأميركي. ثانيا، لقد أنفقنا تريليونات الدولارات وضحينا بآلاف من

الرجال والنساء من أفراد قواتنا المسلحة، لنحصل في نهاية المطاف على بلد تزيد فيه حالة الفوضى على ما كانت عليه إبان حكم صدام البعثي. ثالثا، لقد نهض عفريت الأصولية الإسلامية بنقمة تجعله يشكل تهديدا يتفاقم يوميا. ولقد أثبت تنظيم داعش وغيره من التنظيمات المتفرعة عن القاعدة أنهم أكثر عنفا من تنظيم القاعدة الأصلي الذي خطط لهجمات 11 أيلول من ملاذه الآمن في أفغانستان.

الولايات المتحدة لا يمكنها السماح لتنظيم معاد بضراوة للغرب مثل داعش أن يسيطر على أراض يستخدمها كملاذ آمن ولتدريب الإسلاميين المتطرفين. تنصب عزيمة الجهاديين في القضاء على النفوذ الغربي في المنطقة، ويلهمون أتباعهم بشن هجمات فردية في الولايات المتحدة وأوروبا، وينسقون عمليات إرهابية في الخارج لا تستهدف غير قتل وإصابة أعداد كبيرة من المدنيين، كما حصل في باريس في تشرين الثاني 2015. أما تطور وتحول داعش إلى منظمة إرهابية دولية - تستهدف (العدو القريب) المتمثل في الأنظمة الكافرة في الشرق الأوسط، و(العدو البعيد) في الغرب - فلا يمثل تهديدا أمنيا فحسب، بل يمثل معضلة تتمثل في كيفية الموازنة بين التدابير الرادعة والحفاظ على الحريات المدنية. صحيح أنه من المبكر أن نجزم بأن تحوّل داعش يشكل تهديدا خطيرا على الأراضي الأميركية ولكن يجدر بنا أن نستعد لمواجهة ذلك الاحتمال.

يبدو أن إيران كانت أكثر المستفيدين من مغامرتنا في العراق، فلقد شاهد الشيعة في طهران اقتياد الطاغية السني في بغداد إلى حبل المشنقة من قبل حلفائهم الشيعة العراقيين، وأصبح لديهم جار على حدودهم الغربية تقوده حكومة شيعية. لقد تبددت - في الوقت الحاضر على الأقل

- مخاوف إيران من مواجهة عراق مسلح راغب في حسم ملائم للطريق المسدود الذي أنهى حرب السنوات الثماني بين البلدين. لقد أصبح العراق أحد أكبر شركاء طهران في التبادل التجاري. كما أسفر تكوين حكومة شيعية في بغداد عن إعادة إحياء المخاوف إزاء قيام (الهلال الشيعي) ليهيمن في يوم من الأيام على المنطقة ويهدد الأنظمة الملكية السنية.

أما الأكراد الذين دفعوا ثمنا دمويا لمعارضتهم حكم صدام فربما سيتمكنون من الخلاص. وكانوا - بقيادة الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال طالباني والحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود بارزاني - ألد أعداء أنفسهم، فكانوا يتقاتلون فيما بينهم أكثر من مقاتلتهم لصدام. ولكن في أعقاب 11 أيلول باتوا يعلمون أن حلمهم الأزلي بكردستان مستقلة قد يتحقق.

الأحزاب السياسية الشيعية المتحالفة في غالبيتها مع إيران كانت أكبر الفائزين. إلا أنها كانت في الوقت ذاته - شأنها شأن الأكراد العازمين على الاستقلال - تعارض بشدة أية مصالحة طائفية أو عرقية في العراق. البلدان الديمقراطية الغربية تعتبر المصالحة السياسية دواء شاملا لكونها تبدد خلافات مختلف المساهمين. أما العراق فلا يعمل على هذه الشاكلة، فظلت السياسة في العراق طوال القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين تعمل بمبدأ (الفائز يكسب كل شيء).

يسر المسؤولين السابقين في إدارة جورج بوش أن يشيروا إلى أن سقوط صدام أشعل فتيل الربيع العربي. ربما كان ذلك صحيحا ولكنه ليس مما يُفتخر به، فسرعان ما تحول الربيع العربي إلى (شتاء عربي)

اتسم بالحروب الأهلية والفوضى السياسية. ولقد أظهر فشل الربيع العربي في بعض الحالات صلابة الأنظمة العربية ذات القيادات الفردية الاستبدادية، وفي حالات أخرى الفوضى العارمة الناتجة عن استبدال القيادة القوية بفراغ سياسي. وكانت إزالة صدام نقطة التحول في تدهور جيل الستينيات من القادة العرب المتسلطين، ولكن زواله ترك فراغا سيملأه على الأرجح قادة أقوياء تكون أيديهم ملطخة بكميات أكثر من الدماء.

لقد أثبتت إزالة صدام من السلطة أنها نكبة حلت بالعراق الذي بات الآن دولة فاشلة بجميع المعايير. ويعود هذا الانهيار إلى جملة من العوامل: قناعة إدارة بوش الزائفة بضرورة خوض الحرب، وزج قوة غازية لم تكن كافية لإنجاز مهمتي إطاحة صدام مع القدرة على حفظ السلام في أعقاب إطاحته، وعدم وجود خطة للانتقال السياسي بعد تنحيته. ولكن هذه الكارثة السياسية لا يجوز لها أن تحمل عبارة (صُنع في أميركا) بأكملها فلقد حصلت الولايات المتحدة على الكثير من المساعدة من أصدقائها العراقيين المغتربين الذين أمضوا سني منفاهم في السعي إلى إقناع واشنطن بإطاحة صدام.

من الصعب القول - ومن الأصعب الاستماع إليه - أن علينا أن لا نيأس من العراق. لقد شاهدت عن كثب مساعينا لمساعدة العراق، وأصبحت أتفهم تماما أننا لا يمكننا القيام بما لا يفعله العراقيون بأنفسهم، ولكن الولايات المتحدة لا بد لها من إصلاح روابطها مع السنة وأن تفعل ما في وسعها لإجبار الحكومة الشيعية في بغداد على تبنّي التسامح والتعددية في تعاملها مع حكام العراق السابقين. صحيح أنه مطلب

صعب، ولكنه ضروري إن كان العراق وجيرانه يرومون دحر تنظيم داعش على كل من المدى القريب والمدى البعيد

كما أن وكالة الاستخبارات المركزية بحاجة ماسة إلى الإصلاح، وأتوقع أن الحل لا يكمن في لانغلي. كانت سنوات عهد بوش قاسية، كما هي حال سنوات عهد أوباما. فكلما زادت ثقة أوباما بتوجهاته الذاتية في شؤون السياسة الخارجية تناقص اهتمامه بما تقوله الوكالة. أما الذين عليهم مراجعة أنفسهم حول الاستفادة من الاستخبارات فهم الرؤساء وصانعو السياسة في كل من السلطتين التنفيذية والتشريعية. البداية الصائبة تتمثل في الإقرار بأن وكالات الاستخبارات لا يمكنها غير تقديم المعلومات وأنها ليست بلّورة سحرية قادرة على قراءة المستقبل. ويترتب على مدراء الطابق السابع أن يحدوا من رواج الانطباع القائل إن الوكالة تعرف كل شيء.

كما يترتب على محللي الوكالة أن يزيدوا خبرتهم عمقا. التوجه الحالي في الوكالة يرتكز على تطوير مهارات التحليل التي كثيرا ما تتضمن تطوير فرضيات تتم مناقشتها في اجتماعات تتيح للجميع طرح الأفكار والانتقادات، وهو توجه مفيد لو تم بالأسلوب الصحيح، ولكنه لا يتجاوز حاليا كونه ضرورة خاطئة، فهو يُستخدم غالبا كوسيلة للتغطية، ويتيح للوكالة الإشارة إليه أمام منتقديها بأنها فعلت كل ما في وسعها للتوصل إلى الإجابات الصائبة. فالإجابة الصحيحة لن تظهر ما لم يكن لديك محللون يتمتعون بالعمق، وليس مع وجود كادر كبير من المحللين. لا بد أن يكون أبرز اهتمامات الوكالة هو التأكد من أن محلليها لديهم الخبرة الكافية لتمكينهم من بلوغ حقائق تستحق طرحها أمام اجتماعات

المناقشة، فبعكس ذلك ستستمر الوكالة في الوقوع في (فخ الحاسوب): إن أدخلت الزبالة لن تحصل على غير الزبالة.

أسلوب التغطية الذي تتبعه الوكالة لحماية نفسها يشكل عقبة جسيمة. الخبرة لا تُثمّن، بل ولا يوثق بها، لأن الخبراء يخطئون أحيانا. انظر إلى إيران في 1978 وأوائل 1979 حين أسفرت المظاهرات وأعمال الشعب عن إجبار الشاه على الفرار من البلاد حين كانت الوكالة تفتقر بدرجة مذهلة إلى تفهم المعارضة للشاه. أما الخبرة الأوسع فسوف تساعد صانعي السياسة في أغلب الأحيان على تكوين تفهم أفضل للقضايا المتحكمة في الأوضاع. وكانت الوكالة خلال فترة السنتين ونصف السنة الأخيرة من حكم صدام تفتقر إلى الفهم الصائب لحكمه، إذ كان هناك نقص خطير في الفهم الحقيقي لصدام وفي المحللين من أصحاب الخبرة القادرين على استخلاص الزبدة المفيدة من الكم الهائل من التقارير الميدانية.

إن كان علينا أن نخوض الحرب مجددا – وهو أمر مؤكد، عاجلا أم آجلا – سيترتب على الولايات المتحدة أن تتحقق تماما من كونها ستقاتل بدوافع حقيقية سليمة. الشروط التي وضعها كولن باول قبل حرب الخليج كان لا بد من جعلها المعايير القياسية لاتخاذ قرار التحرك العسكري في 2003. كان (مذهب باول) يتضمن عددا من التساؤلات التي تتطلب أجوبة إيجابية، ومن بينها: هل هنالك ما يهدد عنصرا حيويا من عناصر أمننا القومي؟ هل تم تقدير المخاطر والتكاليف بشكل كامل؟ هل استنفذت جميع السياسات غير العسكرية؟ هل لدينا استراتيجية للانسحاب؟ هل يلقى التحرك العسكري تأييدا في الداخل وفي الخارج؟

لقد تم تهميش باول إبان عهد جورج بوش الابن من قبل معاوني البيت الأبيض العازمين على القضاء على صدام.

كان قرار التخلص من صدام يكمن في نهاية الأمر بين يدي الرئيس، وسيظل جزءا لا يُنسى من تركته. وبدا القرار مدفوعا باعتبارات شخصية، كما بدا خاليا من أية فكرة عما ستفعله الولايات المتحدة في أعقاب الغزو، كما لو كانت الأمور ستدبر نفسها بنفسها. السياسات المكونة بدوافع شخصية تنبع من القلب وليس من الدماغ وكثيرا ما تسفر عن تداعيات غير مرغوبة. لا بد أن يكون العراق موضوع رواية تحذيرية لرؤساء المستقبل، ولا بد أن تكون وكالة الاستخبارات أكثر اتزانا وعقلانية بعد مشاركتها ومساهمتها الواعية في مأساة العراق، حين كانت تلبي بعبودية ما كان يطلبه الرئيس، سعيا منها - كضرورة حتمية - إلى الاقتراب من مركز السلطة ولتبرير حجم ميزانيتها. ولكن بعض أفراد الوكالة يسربون المعلومات كلما اختلفوا مع قرارات الرئيس المتعلقة بالحرب. طوال عملي لدى الوكالة لم أرَ مثل ذلك الكم من المعلومات الخطيرة والسرية التي تم تسريبها، ما كان يسيء إلى الإدارة وإلى الوكالة وإلى القوات المسلحة.

بدلا من إظهار القادة الأجانب شياطين - كما حصل مع صدام - على الولايات المتحدة أن تتعامل معهم بأسلوب واقعي ناضج. الدول الديمقراطية تنفر من الطغاة، ولكنهم يقومون أحيانا بمساعدة الولايات المتحدة في تدبّر أمر الأسوأ منهم، مثل تنظيمي داعش والقاعدة، وإيران. لو توجهت الولايات المتحدة إلى وصف خصومها الأجانب بالشياطين، تبدأ الخيارات المتاحة لنا بالتناقص. ففي 1990 مثلا، شبّه جورج بوش

الأب بهتلر. ربما كان هنالك ما يبرر ذلك التشبيه، ولكن الواقع هو أن بوش زاد من الصعوبات التي واجهته وواجهت من تلاه من الرئاسة في التوصل إلى سياسة بناءة تجاه العراق، فمن كان سيتمكن من التفاوض مع هتلر؟ غالبية قادتنا السياسيين يلاقون صعوبة في تفهم ذلك. أعرف أن بعض الناس سيتساءلون: كيف يمكننا تكوين علاقات مع أشخاص يقتلون أبناء بلدانهم؟

ولكن لننظر إلى سورية. لقد أسفرت جهود إزالة الأسد عن مقتل مئات الآلاف وعن نزوح نصف سكان سورية عن ديارهم، ما أدى إلى أزمة لاجئين ذات عواقب جسيمة للشرق الأوسط ولأوروبا. كم سيكون رائعا لو وُجد سوري من طراز توماس جيفرسون وراء الكواليس ينتظر تولي الأمور بعد سقوط الأسد، ولكن لم يتقدم أحد حتى الآن ليتسلم ذلك الرداء. كان علينا أن نقدم هذه الرسالة نفسها إلى إدارتي كلنتون وبوش حين سألونا عن البدائل الديمقراطية لحكم صدام.

على الولايات المتحدة أن تطور وتحسن قابلياتها في مجال الاستخبارات، والاستخبارات البشرية بشكل خاص. الفشل التام في العراق أكد بشدة على الحاجة لأناس يقومون بجمع المعلومات، فالوسائل التقنية - مثل الإنصات والرصد المصور، من بين غيرها - لها أهميتها، ولكنها أدوات لا بد من ارتباطها بأشخاص قادرين على استشعار ما يجري على الأرض.

في مجال الشؤون الخارجية تقوم الولايات المتحدة بإعادة اختراع العجلة نتيجة نسيانها السريع لدروس آخر حرب خاضتها. تماما كما ينسى الناس آلامهم، تُصاب الولايات المتحدة بداء النسيان حيال الدماء

والأموال المهدورة في الحرب. نحتفل بانتصاراتنا ولكننا لا نحاسب الحكومة حين يفشل استخدام القوة في بلوغ غايته أو يخلف الفوضى في أعقابه.

خلال السنوات التالية لمغادرتي وكالة الاستخبارات كنت كثيرا ما أفكر بصدام الذي تمكن من اختراق جلدي ليعشّش في ذهني. ربما كان ذلك يعود إلى شعوري المزمن بالذنب لكوني شاركت بالكثير مما وقع في العراق من أخطاء. لدى عودتي إلى الولايات المتحدة للمرة الأولى سألوني عن مدى معرفتنا بصدام فقلت إنني اقتربت من الإلمام به، ولكني أدركت بعد مرور السنين أن زملائي وأنا ما كنا نعرف عنه شيئا. كنا أسرى الانطباع المبني على أحداث 1990-91 حين تسبب بقتل مئات الآلاف من أبناء شعبه في فوضى الغليان التي تبعت الحرب العراقية - الإيرانية.

كنت أرى صداما عن قرب يوميا على مدى أشهر عديدة، وجرت بيننا مناوشات **حول أساليبه الوحشية**، وكنا نتناقش حول التاريخ والزعامة، وشعرت بشخصيته الجذابة وبحدود ذكائه، وكنت أحترمه يوما ثم أكرهه في اليوم التالي، ولم أكوّن في نهاية المطاف غير مخطط صورة للرجل، وسوف أمضي حياتي في ملء الفراغات في تلك الصورة.

الخاتمة

شنق في ظلام الليل

في كانون الأول 2006 كنت في مقر وكالة الاستخبارات المركزية مكلفا بترقب إعدام صدام. كان دوري لتولي المناوبة خلال عطلة نهاية الأسبوع وكان عليّ أن أبلغ الطابق السابع عن أية تطورات. لكوني قد أمضيت وقتا طويلا مع صدام ويبدو أن مديري توقع أنني سأكون مهتما بعملية إعدامه، ولكنني لم أكن مهتما. لم أكن متعاطفا مع صدام ولكن الإسراع بإعدامه بدا غير مناسب. كنت أتوقع أن محاكمته وتنفيذ عقوبته كانت ستتم بشكل مدروس ومنسق ورزين. فلم أكن مهيأ لما حدث، فلقد أصابت الصدمة كلا منا ممن كانوا قد تابعوا مسيرة حياته العملية.

كانت حكومة نوري المالكي الشيعية تكاد لا تصبر للتخلص من صدام، ولكن الحكومة الأميركية قد توسلت العراقيين بتأجيل الإعدام إلى ما بعد عيد الأضحى ظنا منها بأن تجاهل ذلك سيسيئ إلى مشاعر المسلمين في العراق وفي المنطقة. ولكن ما حدث هو أن السفير الأميركي في العراق زلماي خليلزاد ونائبه ديفيد ساترفيلد كانا خارج العراق لقضاء فترة أعياد الميلاد، وكانا قد أبلغا القائمة بأعمال السفير، مارغاريت

سكوبي، بعدم التوقيع على أي شيء يمكن اعتباره الضوء الأخضر لتنفيذ

عملية الإعدام. ويبدو أن كلا من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع كان عليها أن توافق على نقل صدام من معتقله الأميركي.

كان صدام قد أكد مرارا أنه لا يخشى الموت وبدا مستسلما لمصيره، بل ربما كان الموت سيريحه.، إذ كان يبدو غاضبا من احتجازه ومن الإذلال الذي تعرض إليه خلال محاكمته. قال لي أحد أصدقائي في السفارة في وقت لاحق: كل ما كان على سكوبي أن تفعله هو أن لا تفعل شيئا. كان توقيعها ضروريا للاستمرار في عملية الإعدام، وكانت قد تلقت أوامر محددة من السفير ونائبه بعدم التوقيع على أي شيء إلى حين عودهما من إجازتيهما بمناسبة أعياد الميلاد. وكانت سكوبي تجيد عدم القيام بشيء. ولكنها خضعت في هذه الحالة إلى ضغوط العسكريين الذين كانوا يتطلعون إلى التخلص من صدام من خلال تسليمه إلى العراقيين.

هكذا تتم بعض أهم المناسبات التاريخية: ليس من خلال الكثير من التأمل والمراجعة، وإنما بفعل الصدف والظروف.

كنت أتوقع أن إعدام صدام سينقل عبر التلفزيون لكونه سيعرض على العالم، وللعراقيين بشكل خاص، بأنه مات وفق سلطة القانون. ولكن الذي تم بدلا عن ذلك هو أن التسليم تم في الظلام بعد منتصف الليل لدى قيام مروحية أميركية بنقل صدام من سجنه إلى مجمع تم فيه تسليمه إلى حكومة المالكي. ثم تم نقله بسرعة إلى سرداب أحد المباني الحكومية العراقية. لا يعلم غير الله ما جرى بين صدام ومحتجزيه. أما ما شاهده

العالم في اليوم التالي فكان مروعا. في تسجيل فيديو مصور بهاتف محمول ظهر صدام وهو يتسلق منصة مؤقتة ليواجه مضطهديه. شاهدنا جمهرة غوغاء شيعة يطالبون بعلو أصواتهم بالانتقام من سيدهم السني السابق. لم يكن ذلك ما يُفترض أن تكون الولايات المتحدة قد قاتلت من أجله. لم يكن ذلك ما كان شبابنا وشاباتنا يموتون من أجله. لم يكن ذلك ما كان قد وعد به الرئيس بوش للعراق الجديد.

بينما كنت أشاهد الصور رديئة الجودة التي كان يلتقطها بهاتفه المحمول مستشار المالكي للأمن الوطني موفق الربيعي، وكان ما لفت انتباهي هو أن صدام كان الرجل الأكثر وقارا وهيبة في الغرفة. لقد تعامل مع الموقف كما كنت أتوقع منه؛ بتحدٍّ وبلا خوف إلى النهاية. كانت عملية إعدام مستعجلة تمت بمنصة مؤقتة في سرداب مظلم ببغداد. بالنسبة إليّ كانت قد انهارت آخر الركائز.التي ارتكزت عليها عملية حرية العراق. لم يكن صدام رجلا يجذب الإعجاب، وكلما زادت معرفتك له تناقص مقدار إعجابك به. كان قد ارتكب جرائم مروعة بحق البشرية. ولكننا أتينا إلى العراق قائلين إننا سنحول الأوضاع نحو الأحسن، وسنجلب معنا الديمقراطية وسلطة القانون. وها نحن نسمح بشنق صدام في ظلام الليل.

نبذة عن المؤلف

جون نكسون خبير في شؤون الشرق الأوسط كان قد أمضى ثلاثة عشر عاما لدى وكالة الاستخبارات المركزية كمحلل لشأني العراق وإيران. بعد مغادرته الوكالة عمل في دولة الإمارات العربية المتحدة مستشارا لزبائنه حول السياسات الإقليمية والمخاطر السياسية.

وُلِد نكسون ونشأ في وانتاغ بولاية نيويورك حيث حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من جامعة هوفسترا في 1985، وحصل على شهادة الماجستير في التاريخ من جامعة نيويورك في 1989، كما حصل على الماجستير في دراسات الأمن القومي من كلية أدمند والش للخدمة الخارجية التابعة لجامعة جورجتاون في 1996.

يقيم نكسون في شمال ولاية فيرجينيا منذ 1993. عمل فترة قصيرة في مقر الكونغرس قبل أن تعينه وكالة الاستخبارات المركزية محلل قيادات في 1998. خلال وجوده في الوكالة عمل على شؤون العراق وإيران وكوريا الشمالية، ليصبح أحد المحللين القليلين الذين عملوا على شؤون من وصفهم الرئيس السابق جورج بوش بمحور الشر. وفي 2010 قام نكسون بإجراء أبحاث عن التطرف الشيعي في المركز الوطني لمكافحة الإرهاب. مكث نكسون وعمل في الشرق الأوسط بين عامي 2011 و2015 وتنقل على نطاق واسع في المنطقة، وهو مختص في السياسات الإقليمية بمنطقة الخليج. كما إنه متعطش للمطالعة في التاريخ والسير والسياسة. وهو من سكان مدينة ألكزاندريا بولاية فيرجينيا.